على الغاياتي شاعر الوطنية المهاجر

صفحات منسية من تاريخ النضال الوطني

تأليف

خيري أمين محمد

د. أمل خيري أمين

٢٠١٩

المحتويات

مقدمة ٣

مقدمة المؤلف ٧

البيئة العامة والبيئة الخاصة ١٢

نشأة الغاياتي ١٥

ميلاد شاعر ١٩

الصحفي الناشئ ٢١

محنة الديوان ٣٠

في الآستانة ٤٢

في جنيف ٤٨

العودة للوطن ٥٧

الغاياتي الشاعر الوطني ٦٢

جذور الشعر الوطني ٦٣

الغاياتي شاعرًا ملتزمًا ٦٩

مسألة الأزهر ٧٦

الجامعة الإسلامية والجامعة المصرية ٧٧

الجامعة المصرية ٨٧

حب مصر والتشبيب بها ٩١

الحنين في شعر الغاياتي ٩٥

إحياء المآثر التاريخية ١٠٠

النشيد القومي ١٠٢

محنة الجامعة ١٠٦

الخديوي عباس بين الوطنية والخيانة ١٠٩

مناضلة الاحتلال ١١٦

الإشادة بمبغضي الاحتلال (أبطال الوطنية) ١٣٠

الغاياتي الشاعر السياسي ١٤٧

الدعوة إلى الجلاء والاستقلال ١٤٩
الائتلاف ومقاومة الحزبية ١٥٤
الحرية ١٥٨
مهاجمة القوانين المصادرة للحرية ١٥٩
الدستور ١٦٤
الغاياتي الصحفي ١٦٩
الغاياتي شيخ الصحفيين ١٧١
مولد منبر الشرق ١٧٤
العدد الأول ١٧٩
المنبر في عهده العربي ١٨٤
ديوان وطنيتي دراسة فنية ٢٠٧
الملامح العامة لشعر الغاياتي ٢٠٩
الظواهر العامة لأسلوب الغاياتي ٢١٢
مآخذ على شعر الغاياتي ٢٢٠
ملامح الصورة ٢٢٢
وفاته ٢٣٦
قالوا عن الغاياتي ٢٣٧
مصادر الدراسة ٢٤٠
ملاحق ٢٤٣
الحكم الصادر في قضية الشيخ عبد العزيز جاويش والزعيم محمد فريد لمصادرة ديوان "وطنيتي" للشيخ علي الغاياتي ٢٤٣

مقدمة

شاءت الأقدار أن أقضي طفولتي الباكرة يتيمة الأب، ولكني ورثت عنه حبًا للقراءة والاطلاع والكتابة مستفيدة من مكتبة ضخمة تركها والدي رحمه الله في بيته تحوي كتبا في شتى المناحي الفكرية والأدبية والعلمية.

وتسنى لي أن أطلع على بعض الأوراق المتناثرة التي خطها والدي بيده وعرفت فيما بعد أنها مسودات لأطروحته التي كان ينوي التقدم بها للحصول على درجة الماجستير بقسم اللغة العربية بكلية الآداب جامعة القاهرة.

وتمر الأعوام وأنشغل بدراستي للماجستير والدكتوراه في الاقتصاد، ثم اتجاهي للعمل البحثي والكتابة، وكان من ضمن اهتماماتي كتابة الأبحاث في مجال تراجم أعلام الفكر العربي والإسلامي، فعدت لهذه الأوراق المتناثرة لأجد ما يصلح منه أن يؤلف كتابًا عن أحد الشخصيات الوطنية في العصر الحديث، وهو الشيخ علي الغاياتي.

فكرت أن أجمع هذه الأوراق وأعدها للنشر إحياءً لذكرى والدي، ليخرج هذا العمل للنور، ولكن راعني أن الأوراق غير مرتبة وينقصها الكثير، وتحتاج لمزيد من العمل فترددت فترة ثم استعنت بالله، وقررت البحث عن مصادر أخرى لمزيد إلمام بهذه الشخصية الوطنية لاستكمال هذا العمل الفكري.

ولم أكن أسعد حالا من والدي الذي كان يؤكد في أوراقه أن الكتابات حول الغاياتي نادرة؛ فقد اكتشفت أنه حتى الآن ما زالت الكتابات قليلة والمراجع نادرة، كما أنه أتيح له وقتها الحصول على مصادر أصلية لن تتاح لي، سواء من مقابلات شخصية مع أفراد من أسرة الغاياتي أو أصدقائه الذين عاصروه، إضافة إلى الأعداد الأصلية لمجلته منبر الشرق كاملة، والاطلاع على مذكرات الغاياتي الشخصية، وهو بالطبع ما لن يمكنني الحصول عليه بعد هذه السنوات.

لذا وبعد مرور ما يقارب الخمسين عامًا على تسجيل والدي لرسالة الماجستير وشروعه في إعدادها، آثرت استكمال هذا الجهد الفائق بإعادة تجميعه وترتيبه وتحريره وإضافة ما يحتاج إليه من خلال المصادر القليلة الحديثة التي توافرت لدي، لأعد هذا الكتاب للنشر وفاءً لذكرى والدي من جهة وتقديرًا لجهود الشيخ علي الغاياتي المجاهد الوطني الذي طوته صحيفة النسيان عن عمد، وهو الشاعر الفذ والصحفي الموهوب الذي قضى جل عمره منافحًا عن وطنه ووطنيته.

وأعتبر الكتاب تأريخًا لمرحلة هامة في تاريخ النضال المصري ضد الاستعمار لم تنل حظها في التعريف بها، وقد اطلعت على بعض عناوين حديثة كتبت عن الشيخ لكن لم أتمكن من الحصول عليها، لكني أزعم أن ما كتبه والدي في مخطوطته جاء من مصادر لم يتسن من قبل ولن يتسن لأحد الحصول عليها لكونها مخطوطات بيد الشيخ أو

تلامذته الذين قضوا نحبهم، كما أنه شاملًا لحياة الشيخ وديوانه وصحيفته وجوانب شخصيته ولم يقتصر على الدراسة الفنية للشعر أو التعريف بالديوان فقط كما فعل غيره، ولو كانت خرجت للنور في مطلع السبعينيات كما أراد لاعتبرت حينها وثيقة تاريخية نادرة.

ومما حفز والدي على الكتابة حول الشيخ علي الغاياتي ما رآه من سقوط سيرته إما سهوًا أو عمدًا، كما شجعته مقولة للشيخ نفسه ذكرها في مقدمة ديوانه فقال عن نفسه "أما منزلتي في الشعر والحكم علي باعتباري شاعرًا فهذا ما لا عناية لي به، ولا اهتمام لي بشأنه، وما الأمر فيه إلا بيد الأجيال المقبلة وحدها إن شاءت كنت لديها أحد المحسنين، وإن لم تشأ فلا حرج عليها". وقد رغب والدي رحمه الله وقتها أن يكون واحدًا من هذه الأجيال التي تنصف الشيخ.

يقول الأستاذ فتحي رضوان عن الشيخ علي الغاياتي في كتابه (عصور ورجال): "لقد كادت ذاكرة التاريخ أن تهمل هذا الرجل العظيم الذي لم يُحسب على الشعراء ولم يُحسب على أعلام الصحافة بقدر ما كان خليطًا بين هذا وذاك نظير روحه العابرة والثائرة التي مرّت على أحلام مصر وحلّقت بها قليلا للأعلى وكان من أجمل تلك اللحظات تلك التي شهدت وثبة الروح الثائرة إلى بارئها...".

وقال أيضًا عنه: "...الشيخ علي الغاياتي هو أحد أفراد ذلك الجيل من المجاهدين الإسلاميين الذين تخرّجوا من مدرسة الحزب الوطني وقادته أمثال مصطفى كمال وعبد العزيز جاويش والورداني الذين حملوا شُعلة النضال الوطني والإسلامي في بداية القرن ولعب دورًا كبيرًا في الإعداد للثورة التي اندلعت سنة ١٩١٩".

وقد استعان الوالد بمصادر أصلية تنوعت بين مذكرات الشيخ وأوراقه الخاصة، وأعداد مجلة منبر الشرق الصادرة بالعربية والفرنسية، وقد أهدته أسرة الشيخ مجلدًا يحوي الأعداد الأصلية الصادرة خلال السنوات (١٩٤٧-١٩٥٣) وذكروا له أنها أعداد نادرة قدموها خصيصًا له لأنه أول من تصدى للكتابة عن الشيخ. كما أهدته أسرة الشيخ نسخة من ديوان وطنيتي موقعة بخط الشيخ ومهداة إلى مجلة الرسالة.

ويسعدني وأنا أقدم بين يدي هذا الكتاب أن أضع تعريفًا قصيرًا بمؤلف هذا الكتاب.

مؤلف هذا الكتاب هو الأستاذ خيري أمين محمد من مواليد القاهرة في الثامن من مايو عام ١٩٣٩ لأب وأم مصريين، حفظ القرآن الكريم في أحد الكتاتيب والتحق بالمدرسة الابتدائية ثم الإعدادية، وتوفي والده وهو في المرحلة الإعدادية فاضطر لاستكمال دراسته في معهد المعلمين بالقاهرة وتخرج منه بعد خمس سنوات دراسية.

ثم عين مدرسًا بالقاهرة، وعاصر في هذه الفترة سنوات الاتحاد بين مصر وسوريا فانتدب للعمل بسوريا، وكان يطلق عليها الإقليم الشمالي، فسافر في الفترة من ١٩٥٨ إلى ١٩٦١، وهي نفس فترة عمر الاتحاد الذي ما لبث أن انتهى، فعاد إلى القاهرة بعد انقضاء فترة انتدابه.

وكان أن انتهز فرصة إقامته في سوريا ليستأنف دراسته بجانب العمل، فحصل على شهادة الثانوية العامة بالقسم الأدبي، وبمجرد عودته لمصر تقدم للالتحاق بكلية الآداب جامعة القاهرة، فكان يجمع بين العمل والدراسة إضافة إلى التحاقه بالتجنيد الإلزامي.

إلا أن كل هذه المسؤوليات لم تمنعه من التفوق والتخرج من الكلية بتقدير جيد جدًا مع مرتبة الشرف عام ١٩٦٥، وكان الأول على دفعته، وكان المنتظر أن يتم تعيينه معيدًا بالكلية، إلا أن رئيسة القسم في ذلك الوقت، وهي كاتبة شهيرة معروفة بعدائها للإسلام والفكر الإسلامي وتبنيها للتوجهات العلمانية والغربية ارتاعت من فكرة تعيينه معيدًا بالكلية، وهو المعروف بالتزامه وتدينه وتبنيه توجهات فكرية إسلامية، فاستبعدته من الوظيفة وعينت بدلًا منه الطالب الذي يليه في الترتيب، نظرًا لتوافقه الفكري معها وتأييده المطلق لتوجهاتها طوال سنوات الدراسة بالكلية وظل هذا الطالب التلميذ الوفي لها بل والوفي للأفكار العلمانية حتى اليوم.

على إثر ذلك قدم خيري أمين استشكالًا للجامعة للنظر في أحقيته بالتعيين، إلا أن رئيسة القسم استماتت في الدفاع عما سلبته منه، فكان أن كافأته الجامعة بمنحة لدراسة دبلوم اللغة العربية بمعهد البحوث والدراسات العربية بالقاهرة، فالتحق به وحصل على درجة الدبلوم في النقد والشعر عام ١٩٦٨، وحصل على تقدير جيد جدًا، ثم تقدم بتسجيل أطروحته للماجستير بكلية الآداب بعنوان "على الغاياتي حياته وشعره" تحت إشراف الأستاذ الدكتور عبد الحميد يونس أستاذ الأدب الشعبي، والذي سعد بموضوع الأطروحة، وقدم له كل الدعم بتعريفه بأسرة الغاياتي.

وفي عام ١٩٦٩ تزوج خيري أمين بالقاهرة وقد ساعدته زوجته في كتابة رسالته على الآلة الكاتبة، ثم ما لبثت وزارة التربية والتعليم أن قررت إعارته إلى دولة الجزائر لتدريس اللغة العربية في إطار حركة التعريب التي انتهجتها الجزائر، فسافر في مطلع السبعينيات من القرن العشرين، فتوقف عن إعداد الرسالة مؤقتًا.

وبعد عودته ونتيجة لبعض الظروف الأسرية والصحية لم يتمكن من استئناف إعداد موضوعه، وما لبث أن توفي في ١٩ يونيو ١٩٨١ إثر حادث أليم، ولم يتسن له استكمال جهده الفكري أو إخراجه للنور، لذا وبعد مرور هذه السنوات أحببت أن أستكمل ثمرة جهده واستخرج درته المكنونة من بين ثنايا السطور والأوراق الصفراء، وأعدها للنشر وأدعو الله أن يتقبل هذا العمل وأن يوفقني لإخراجه في أفضل صورة إنه على كل شيء قدير.

وقد قابلتني صعوبات عدة؛ يأتي على رأسها ندرة المصادر، وتفرق أجزاء الرسالة بين الأوراق المتناثرة دون ترتيب، كما أن المخطوطات المكتوبة بالحبر السائل بعد كل هذه السنوات قد ضاعت ملامح الحروف والكلمات فيها. أما المشكلة الأكبر التي واجهتني فهي عزو الفقرات إلى مصادرها فأغلب فقرات الرسالة كانت منقولة بخط اليد من أعداد متفرقة من مجلة منبر الشرق دون ذكر أرقام الأعداد، ومن مذكرات الشيخ علي الغاياتي، ومن حوارات أجراها والدي مع أفراد من أسرة الشيخ، ومن مراسلات بين والدي وبعض تلاميذ الشيخ.

حاولت قدر المستطاع عزو الفقرات لمصادرها، كما استعنت ببعض المصادر الحديثة القليلة التي كتبت عن الشيخ واستطعت الحصول عليها، وبذلت مجهودًا كبيرًا في تنسيق الشعر الذي حفلت به الرسالة، وأضفت أجزاء رأيتها مكملة للموضوع لإثرائه. وأخيرًا هذا جهد المقل، وأسأل الله تعالى أن يعينني على إخراج الكتاب بالصورة المثلى.

د. أمل خيري أمين - القاهرة ٢٠١٩

مقدمة المؤلف

مع مشارف القرن العشرين طالب الغاياتي الأمة "أن تمجد أبناءها الذين قدموا حياتهم فداءً للوطن وحبًا في خلاصه من أيدي الظالمين، يجب عليها أن تترنم بذكراهم وتخلد تاريخهم بين الصحائف والقلوب ثم ترفع لهم تماثيل العظمة والجلال معلنة بذلك حبهم وإخلاصهم لبلادهم معلية قدرهم وخطرهم في العالمين".

ولعل الكثير من أبناء الجيل الحالي لا يعرفون شيئًا عن علي الغاياتي الشاعر الثائر والصحفي المجاهد، هذا المناضل الذي يؤلف بين حياته المناضلة وشعره الثائر نسب صادق، ويربط بين وطنيته المؤمنة ومقالاته اللاهبة أقوى الوشائج والدهر لا يجود بالمناضلين الأغيار.

علي الغاياتي: هذه الظاهرة الوطنية النبيلة الفريدة التي عرفتها مصر وعرفها الشرق: عقيدة راسخة أقوى من الجبال لا تعرف المهادنة أو المساومة، وإيمانًا ثابتًا كالطود لا يتزعزع ولا يأتيه الضعف من بين يديه ولا من خلفه، وقلبًا طاهرًا لا ينطوي إلا على أسمى المشاعر الإنسانية وأنقاها، ونفسًا طموحًا شماء اتسعت لتشمل أبناء الوطن وإخوة العقيدة، وقلبًا ثائرًا لا يعرف لينًا أو هوادة.

علي الغاياتي: الذي كانت أشعاره تعكس صمود ورسوخ أهرامات مصر وارتفاع وشموخ مآذنها وتجدد الحياة في واديها، استنهاضًا للهمم وإشادةً بمجدٍ تالد، وكانت قذىً في عيون المحتلين، وشواظًا على القصر، ولعنةً على الخائنين، فرددها الوجدان القومي، ورعتها قلوب المصريين ولهجت بها ألسنتهم.

علي الغاياتي: الذي يمثل النزعة الإسلامية القوية، كان صوتًا ربانيًا يدعو المصريين للتمسك بدينهم، ودعوة إلى التحرير، وصوت الوطنية الحقة دفعًا لنير الاحتلال، وإن حياته هي حياة مصر في أهم فترة من فترات تاريخها الحديث.

غادر وطنه متحملًا الحاجة والعسر بعيدًا عن الأوطان والخلان، وكان في إمكانه أن يكون صاحب مال وجاه، وترك دنياه فارغ اليد، بعد أن عاش حياته يقتات كالمتصوفة زهدًا وحرمانًا ولكنه ترك في الحالين ذكرى أبقى من المال والنشب، وآراءً أخلد من الحياة والحسب، كما يقول البارودي:

لا يخفض البؤس نفسا وهي عالية ولا يشيد بذكر الخامل النشب

لقد اعتنق الغاياتي المثل العليا، وهام بمبادئ الحرية والديمقراطية والوطنية، ولم يعش لنفسه فقط، بل عاش لوطنه ولجماهير الشعب، تغنى آلامها وهمومها بإحساس عميق وشعور صادق، لا مصانعةً وتملقًا لعواطفها ليكتسب شهرةً أو شعبيةً، وكان أشجع الجميع نضالًا وأعظمهم جرأة، حيث وضع روحه، ثم سن قلمه يلقي بها فوق صفحات الجرائد يتغنى للوطن ويهتف له.

وحق للغاياتي أن يكون شاعر الوطنية الأول؛ فديوانه "وطنيتي" كان بحق أول ديوان في شعر المقاومة وشعر الثورة، لكن دارسي الأدب أغفلوه وكأنما تعمدوا إغفاله. وحق له أن يكون شيخ الصحفيين: إذ قدم الصحافة في نصف قرن، وقرأ الناس مقالاته على صفحات اللواء والجوائب والعلم، ثم على صفحات منبره لأكثر من أربعين عامًا، وقد بلغ ما نشره من مقالات أكثر من الألف مقال، لو نخلت جميعًا ما وجدنا فيها سطرًا واحدًا فيه تزلف للظالمين أو خنوعٍ لسلطان، وما عثرنا في ثناياها على عبارة مبتذلة أو كلمة سفه. ولو صانَع في حياته لاكتسب شهرة واسعة، ولكنه أبى فقعد الحظ بذكره بعد موته، فلم ينشر الجزء الثاني من ديوانه ولم يعتن بدراسته أحد.

لماذا الغاياتي؟

تعود معرفتي للغاياتي وإعجابي به إلى سنوات التحصيل في الجامعة حيث كان يبرق اسمه بريقًا سريعًا كلما تصفحت كتب الأدب الحديث، لا سيما مواقف النضال، فلما انتهيت من المرحلة الجامعية أخذت موضوع رسالتي: الشعر الوطني الحديث في مصر، وبدأت قبل تسجيله أجمع كثيرًا من الشعر الوطني، وأدهشني أن الشعر الذي جمعته ثورةً وانفعالًا كان للغاياتي، وأدهشني أن كثيرًا من الشعراء الذين تجمع عليهم صفة الوطنية لا يستحقون هذه الصفة، لأن شعرهم الوطني شابته شوائب التملق.

ورحت أبحث عما كتب جيدًا لشعر ثائر، وعما كتب عن صاحبه المناضل، فلم أجد أكثر من سطور قليلة في بعض الصحف.

وعرضت الموضوع على أستاذي الدكتور عبد الحميد يونس أستاذ الأدب الشعبي بكلية الآداب جامعة القاهرة، ويبدو أنه هو الآخر كان يعد للكتابة عنه، فرحب بالفكرة، ووعد بالمساعدة وعرفني بعائلة الغاياتي.

وأثناء هذه الفترة عثرت بطريق المصادفة في سور الأزبكية بالقاهرة ووسط ركام من الكتب القديمة على ديوان صغير الحجم بعنوان "وطنيتي" لعلي الغاياتي مؤرخًا صدوره بعام ١٩١٠، وقرأت الديوان مرات ومرات، وازددت إعجابًا بالشعر وتعظيما للشاعر؛ فلأول مرة في العربية على ما أعرف يصدر ديوان تخصص كل قصائده عن الوطن تغنيًا بأمجاده، وإشادة ببطولاته، وإحياءً لمآثره، ودفعًا إلى الثورة، وتحريضًا على المقاومة.

وأخيرًا قررت اختيار حياة الغاياتي وشعره موضوعًا للبحث. وقد اتبعت المنهج التاريخي وهو ما يسمى "بالترجمة الذاتية" متتبعًا صحيفة نسبه وسيرته عامًا بعام، ورحلة إثر رحلة، وتأثره بالتيارات الاجتماعية والسياسية والثقافية وتأثيره فيها.

وقد كفاني الغاياتي نفسه البحث عن أشياء كثيرة مما كان يكتبه على صفحات جريدته، واستعنت كثيرًا بأقوال أفراد أسرته، وكثير من معارفه وأصدقائه، وبكل ما كتب عنه على ندرته. كما اتبعت المنهج الموضوعي في دراستي لشعره وكتاباته فلم أهتم كثيرًا بالنص، بل بالجوانب الفنية الشعرية والتعبيرية فيه، وكذلك الظروف التي أحاطت به، ورجعت إلى النصوص في مكانها الأول.

وحين اخترت حياة الغاياتي موضوعًا لهذا البحث، أخذت أجمع كل كلمة خطها، وكل مقال حبَّره، فجمعت ديوان "وطنيتي"، وأعداد جريدته "منبر الشرق" في عهديها السويسري والقاهري، وأشعاره المبثوثة في طيات جريدته وأوراقه.

وقد أطلعني أزواج بناته - وهم من خيرة رجال مصر ثقافةً وخلقًا - على مسودات وصحف، أوضحت لي السبيل، وكشفت لي الكثير مما كنت في حاجة إليه لتتم ملامح الصورة وتكمل عناصر البحث. وأشهد أني ما تصفحت صفحة من جريدته ولا قرأت بيتًا من أشعاره إلا وكان فؤادي يهتز لكل كلمة أقرأها له وكل نغمة ترددها نفسي.

وكذلك اطلعت على ما كتب عنه وهو قليل لعل أكثر من كتب عنه متحمسًا هو الدكتور محمد حسين في كتابه "الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر"؛ حيث أشار إلى شعره الوطني، واستشهد في أكثر من موضع بشعره، وكذلك الأستاذ عبد الرحمن الرافعي، غير أنه اكتفى بنشر بعض قصائده دون تعليق.

وليس همي في هذا البحث أن أزخرف وأجمل، كما لا أريد أن أكون مبالغًا كما فعل الرافعي في ترجمته لمصطفى كامل، أو كما كتب العقاد سيرة سعد زغلول، وإنما همي أن أجلو الحقيقة وأصورها بمعيار النقد المنصف.

وقد بدأت البحث باستعراض المناخ السياسي والبيئة الاجتماعية والحياة الثقافية للعصر الذي عاش فيه الغاياتي حتى تنير الطريق إلى فهم نفسية الشاعر وروحه الثائرة المتمردة لأنه بقدر ما أثرت فيه هذه الظروف جميعا بقدر ما أثر هو فيها؛ فقد كان يعيش عصره ويعي ما يدور فيه من صراعات ومحن وآلام فجاءت أعماله أصدق تعبير عن هذا العصر.

ثم ثنيت بحياته المليئة بصور التضحية والعصامية فعرضت لحياته في وطنه الصغير دمياط حيث معاهد دراسته ومدارج صباه ومسارح فتوته، وتابعت استدارة هلاله الذي لمع في سمائها، ثم حياته في القاهرة طالبًا للعلم

وكاتبًا ثائرًا وشاعرًا مبدعًا شارك في الحركة الوطنية، فانضم للحزب الوطني، فأغضب القصر وهاجم الاحتلال، وتغنى للوطن وأوقظ في المصريين مشاعر العزة والكرامة الوطنية.

وتابعته في مهجره بالآستانة بعد أن ضاق به دعاة الرجعية والهزيمة والمحتلون وضاق هو بشراستهم، ففر بعقيدته الوطنية وهمته ترمي به المرامي وهو يرمي بهم حيث التضحية وإنكار الذات، فواصل نضاله بقلمه الثائر وحروفه اللاهبة. ثم تابعته في جنيف، مشتعل الثورة متأجج الوطنية، كاتبًا ومحررًا ومراسلًا، حيث قضى هناك أكثر من ربع قرن هي أزهى سنوات عمره وأخصبها فيصدر منبر الشرق، عربية الجنس والعرق شرقية الملامح والسمات، لتنطلق منها صيحات البعث والثورة لا لمصر وحدها بل للشرق كله.

وشهد الله لم تغب مصر عن عيونه - وإن كانت مصر قد نسيته – كان يتسقط أخبار الوطن الحبيب فيأسى لما آل إليه من ضعف وتفكك، ويطرب فرحًا حين تجتمع كلمة الوطن في ثورة ١٩١٩، وتؤلمه انتكاسة الثورة وملهاة الأحزاب والصراع على السلطة، فيهاجم الملك فؤاد ويندد بالاحتلال على صفحات جريدته، فتمتد يد البطش والإرهاب لتمنع دخول الجريدة إلى مصر وتتوقف بضعة شهور، ولكن إصرار الرجل وصبره جعلاه يواصل السير والكفاح وعادت الجريدة للظهور أعنف هجومًا وأشد نقدًا.

ثم يعود الطائر إلى عشه بعد طول الاغتراب وكثرة الحنين فيجد الروض قد امتلأ غربانًا تنعق ولم يجد غصنًا يسمع من فوقه لأنه لا يجيد الصراخ والنعيق، ولم يضعفه اليأس فحرم نفسه وأسرته من العيش المريح وأصدر منبره بالعربية.

ولم تستطع سنوات الغربة الطويلة أن تنسيه مشاعر بني وطنه وآمالهم فكتب بحرارة المؤمن وبإيمان الثائر، كما لم تستطع سنوات الحرب أن توهن من عزيمته وظلت الجريدة تصدر بمعجزة، وصاحبها يعاني الشظف والحرمان وكلفه ذلك غاليًا في صحته وأسرته.

وإذا كانت النفوس كبارًا تعبت في مرادها الأجسام

وأخيرًا يسقط الرجل والقلم في يده وآخر عدد من جريدته متهيئ للصدور، وخصصت فصلًا للدراسة الفنية لشعر الغاياتي، وفصلًا آخر عرضت فيه لملامح شخصيته لتكمل الصورة عنه.

خيري أمين محمد - القاهرة ١٩٧٠

*****

البيئة العامة والبيئة الخاصة

تكمن عظمة الإنسان في أمرين أساسيين، أحدهما فطري وهو الاستعداد النفسي والخلقي، والثاني مكتسب من التربية والتعليم، والإنسان هو ابن الوراثة والبيئة والعصر جميعًا، كما أنه نتيجة حتمية لكل ما مر عليه وعلى آبائه من أحداث، يقول الدكتور أحمد أمين "لقد عمل في تكويني إلى حد كبير ما ورثته عن آبائي، والحياة الاقتصادية التي كانت تسود بيننا، والدين الذي كان يروى لنا، ونوع التربية الذي كان مرسومًا في ذهن أبويّ"[١].

وهذا يصدق تمامًا على شاعرنا الذي نترجم له؛ فقد ولد في الرابع والعشرين من شهر أكتوبر عام ١٨٨٤م، وهو العام السابق للعام الذي ولد فيه الدكتور أحمد أمين[٢].

وإذا كانت حياة الأعلام في أي عصر ترتبط بالأحداث الكبرى التي تدور على أيامهم، فإن تباين أقدارهم يختلف تبعًا للدور الذي يقوم به كل منهم في توجيه تلك الأحداث، والتأثير على سيرها بما يخدم المصلحة الوطنية والعزة القومية.

وُلد الغاياتي عقب الاحتلال الإنجليزي لمصر بعامين، وكان يتربع على دست الحكم الخديوي الذي هانت عليه كل مقدسات الوطن، فطعن الثورة العرابية من الخلف "وانحاز إلى الإنجليز وجعلهم حصنه الحريز"[٣]. وأخذت يد الاحتلال تحاول القضاء على بقايا الروح القومية والوطنية بالقمع والإرهاب حينًا، وبالاستعراضات العسكرية أحيانًا أخرى، وتطارد زعماء الثورة أكثر الأحيان "يتصيدونهم في الأصفاد ثم ساقوهم إلى السجون وموارد المنون"[٤]، حتى غدت تهمة (العرابية) تثير قلق الناس ومخاوفهم، حتى ليتصدى كثير من الكتاب لمحاولة نفيها عن زعماء وأدباء شاركوا في الثورة بحماس الثائر، وإيمان الوطني؛ فعلى سبيل المثال اعتذر محمد رشيد رضا عن الشيخ محمد عبده في كتابه الأستاذ الإمام، كما اعتذر أحمد سمير عن عبد الله النديم في مقدمة كتابه سلافة النديم، واعتذر ياقوت المرسي عن محمود سامي البارودي في كتابه مراثي الشعراء[٥].

كما استطاعت يد الاحتلال أن تبذر بذور اليأس في قلوب المصريين حتى شكّوا في قدراتهم، وأُسدلت أستار كثيفة على أعين الناس جميعًا حتى المفكرين والأدباء بعد أن كانت حبال الآمال القومية والوطنية متصلة بنهضة الفكر وتقدم الأدب قبل الاحتلال.

---

(١) أحمد أمين، حياتي، مكتبة الجماميز، القاهرة، ١٩٥٠، صفحة ١٠.

(٢) جريدة منبر الشرق، العدد ٧١٤.

(٣) الدكتور محمد أحمد خلف الله، عبد الله النديم ومذكراته السياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦، صفحة ٧.

(٤) المرجع السابق، صفحة ٨٥.

(٥) الدكتور علي الحديد، محمود سامي البارودي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، سلسلة أعلام العرب، ١٩٦٧.

أما موطنه فهو مدينة دمياط[1] تلك المدينة الخالدة ذات التاريخ العريق، والتي تقع على صدر البحر المتوسط، حيث تنتهي رحلة النيل الطويلة.

وُجدت دمياط قبل القاهرة، وكان لموقعها الهام على شط البحر، وضفاف النيل، وقرب بحيرة المنزلة، أكبر الأثر في بقائها المرفأ الرئيس لمصر لفترة طويلة، تصنع التاريخ وتُصدره فيما تصدر من الكتان والحرير والبردي والأثاث ونتاج البحر، وحمل المسلمون إليها رسالة الإيمان وكسوها بثوب من الروحانية الشفاف، بل إن هذا الموقع بذاته قد أطمع الغزاة؛ فكانت مسرحًا داميًا للحروب الصليبية التي تركت بصماتها واضحة في تلك المدينة، متمثلة في آثار: بحر الدم وتل العظم وميدان الشهداء، وكثير من الآثار التي ضيعها تخريب أمراء المماليك في ولاية الأشرف موسى في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي – خوفًا من عودة الإفرنج – ولم يتبق لنا من تلك الآثار سوى جامع الفتح وهو أقدم المساجد بعد الفسطاط.

وفي أواخر القرن التاسع عشر كان أبرز ما يقابل الوافد إلى المدينة ثلاث مآذن ممتدة إلى السماء، ترتفع فوق جوامع البحر والمعيني والمتبولي، وقد أُلحق بكل جامع مدرسة لتعليم القرآن ومبادئ الدين الإسلامي، ثم يواجه الداخل نخيل عزبة الخياطة وكأنها أحراس مجندة وضفتي النيل وفنطاس المياه بشارع محمد علي ومصانع الحرير.

وكان أهم ما يميز دمياط مبانيها القديمة وشوارعها الضيقة الملتوية، ولعلها بنيت على هذه الصورة لاتقاء هجمات المغيرين من الفرنجة، أما في الليل فكانت تبدو كمدينة البندقية " أنوار منعكسة في مياه النيل، وسفائن صغيرة أنيقة أجمل من الجندول مائة مرة تمخر عباب النهر"[2].

وكانت مغاني دمياط وبساتينها مسترداد الغاياتي ومراحه ومغداه. وقد انعكست طبيعة دمياط الساحرة على نفسه؛ فاكتسب من انبساط الأرض بساطة الخلق، ومن صفاء سمائها سماحة النفس، ومن صخب أمواجها ثورة القلب والوجدان، كما أكسبته البيئة الساحلية البسيطة هذه تعلقًا بالطبيعة والناس.

واتصاف أهل دمياط بالمثابرة على العمل والسعي الدؤوب انعكس على حياة الغاياتي ابن المدينة؛ فكان يقضي نهاره وشطرًا من الليل في إعداد الجريدة تحريرًا وتصحيحًا بل ربطًا وتجميعًا.

*****

(١) ذكرت في التوراة باسم (كفتور) وعرفت في العصر اليوناني باسم تامياتس وفي العصر القبطي تاميات.

(٢) منبر الشرق، العدد ١١٤ للأستاذ محمد لطفي جمعة.

نشأة الغاياتي

سعد الوالدان باستقبال ذلك المولود، الذي سيفرض نفسه على تاريخ مصر الحديثة شاعرًا ثوريًا وكاتبًا سياسيًا ومصلحًا اجتماعيًا وصحفيًا رائدًا.

والغاياتي هو عليّ بن أحمد بن محمد بن السيد محمد الغاياتي، ينتهي نسبه من جهة أبيه كما جاء في صحيفة نسبه إلى الحسن بن عليّ رضي الله عنهما. "والانتساب إلى القبائل العربية وإلى كبار الصحابة رضوان الله عليهم كان شائعًا في مسلمي مصر، إلى حد يصعب تصديقه ويعسر تحقيقه" [١].

وفي الوقت الذي كان فيه كثير من الناس يفعلون ذلك ليكتفوا بهذا النسب الزائف أو الثابت، كان الغاياتي – رغم ثبوت انتسابه لبيت النبوة – يعمل لينتسب إلى عمله ويتشرف بجهاده ونضاله.

وليس لتاريخ ميلاده وثيقة رسمية تثبته، لكننا نراه في العدد الثاني والسبعين من صحيفة منبر الشرق يحتفل بعيد ميلاده، ويذكر أنه في الرابع من محرم ١٣٠٢هـ/ الموافق الرابع والعشرين من أكتوبر ١٨٨٥م. ولعل في مولده في أكتوبر كان إيذانًا بأنه سيصبح مُعلمًا، فقد علَّم النشء في بداية حياته العملية، فلما استكمل عدته علَّم أبناء الوطن دروس الوطنية الحقة وعلمهم حقوقهم وحقوق الوطن عليهم.

كان الأبوان لا يدخران وسعًا في رعاية ابنهما عليّ وأخيه عبد الرحمن، ولم يكونا ليفرقا في المعاملة بين الأخوين، وكانا مثالًا للأبوة الحقة، فكان البيت هو المدرسة الأولى التي تعلم فيها أول دروس الحياة، بما يسيطر عليه من جو ديني وتكريم للعلم، وأبوة حانية، وبساطة الطابع المتمثلة في بساطة الأبوين وبساطة الأثاث.

كان الأب طيب القلب حازمًا يكثر من تلاوة القرآن صباحًا ومساء، ويصحو مع الفجر ليصلي ويتهجد ويذكر الله، ويكثر من ذكر الموت والحساب. فكان الابن لهذا يتهيبه ويجله ويحاول اقتداء مثاله.

وكانت أمه تكثر من تلاوة الأدعية والأوراد، وتؤدي الخمس لأوقاتها، وتشارك زوجها صلاته، فظلت هي النموذج المثالي للمرأة المسلمة والزوجة الصالحة عند الغاياتي، ولم يكن زواجه الثاني بعد أن جاوز العقد السادس من عمره إلا تحقيقًا لهذا المثل الأعلى.

(١) مصطفى عبد الرازق، محمد عبده سيرته، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٦، ص ١٣.

وفي شوارع دمياط الضيقة وأزقتها الملتوية، وبجوار ضفاف النيل وفوق قواربه، قضى الغاياتي طفولته المبكرة يشارك لداته لهوهم ومرحهم، يتعلم منهم مبادئ السلوك، ويتبادل معهم عواطف الحب والكره ويتأثر بألفاظهم مهذبة وغير مهذبة، ويتسمع لما يقصونه من أمثال وأزجال وخرافات، ويحكي لهم ما سمعه هو من حكايات ومواويل سمعها من بعض الملاحين أو شاعر الربابة في المقهى في أماسي الصيف وأسمار الشتاء.

فقلما تجد ملاحًا دمياطيًا لا ينشد المواويل، أو مقهى شعبيًا لا يتردد عليه شاعر الرباب ينشد قصص عنترة وأبي زيد والهلاليين، وقد امتلأ سمعه بما كان يردده هؤلاء النوتية، وبما كان يسمعه من أبيه وأمه من مناقب الأولياء وكرامات الصالحين ومعجزاتهم.

لم يأخذ عليّ في تعلمه – وكذلك أخوه – الطريق المدني بل أخذ الطريق الديني، فبكَّر أبوه إلى الكُتَّاب شأن الناس من طبقته ليتعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب. ثم اختلف إلى جامع المتبولي، وقد ارتدى قفطانًا وحزامًا. وكانت المدرسة المتبولية منذ القرن الخامس عشر تخرج العلماء الذين يؤذنون في التدريس، وقد تحولت فيما بعد إلى معهد نظامي. وكان نظام التدريس فيها أشبه بنظام التدريس في الأزهر.

وقرأ الغاياتي القرآن وحفظه على يد أستاذه الشيخ محمد محمود خفاجي ١٢٧٧م – ١٩٤٠م، الذي تلقى العلم وأخذ التصوف عن أستاذه القاوقجي الشاذلي، حيث اختصه بنفحات جعلته – كما يقول أحد تلاميذه "حجة في سائر العلوم الدينية وغيرها وبالأخص علوم الصوفية وأذن له في رواية الحديث الشريف وغيره"[١]، وكان يكثر من مطالعة كتاب الحكمة لابن عطاء الله السكندري، وديوان ابن الفارض وشرحهما، كما كان صاحب ذوق وبصر بالشعر واللغة وكانت داره ملتقى الأدباء والعلماء، ويدل على مكانته في نفس الغاياتي وتأثره به أن نعاه في صحيفته بعد مغادرته دمياط بأكثر من ثلاثين عامًا فنعى به الخلق الطيب والعلم الغزير.

ومنذ أن بدأ دراسته ظهر عنده ميل إلى التدين والعلم، وكان جادًا في دراسته وفي حياته بعيدًا عن كل ما يشين، متحلٍ بكل ما يزين، ولم يجرح شبابه وخلقه في موطن لهو، فانصرف عن كل لهو يسيم مرحلة الشباب، وكان يحرص على وقته أشد الحرص فيصحو مع السحر ليؤدي صلاة الفجر، ويقرأ القرآن وبعض الدروس الدينية والنحوية. وبلغ من حرصه على القيام مع الفجر أنه كان يربط في إحدى رجليه حبلًا طويلًا ويديله من النافذة، فإذا غلبه النوم أقبل زميل له فجذب طرف الحبل فيصحو الشيخ الصغير، ويظهر أن هذه عادة كثير من أهل دمياط؛

(١) محمد عبد المنعم خفاجي، بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي، المطبعة الفاروقية الحديثة، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٩٧.

فقد كان الماحي الشاعر بعد أن كف بصر والده يربط إبهامه بخيط طويل، ويمسك الوالد بالطرف الآخر، وبين آونة وأخرى يشد الخيط في رفق فيجيبه إن كان مستيقظًا[١].

ثم واصل تعليمه في مدرسة جامع البخر، فدرس الفقه والأصول والمنطق، ولم يكن يتقبل كل ما يسمع دون بحث أو تدقيق، وقد حضر الدرس الذي ألقاه الأستاذ الإمام محمد عبده[٢] في تفسير القرآن في صيف سنة ١٩٠٣م، حين كان يصطاف برأس البر، وأراد تقبيل يده فسحبها عنه بلطف بعد لثمها قليلًا[٣]. وكان موضوع الدرس تفسير سورة الضحى، وقال الأستاذ الإمام عن السائل في قوله تعالى "وأما السائل فلا تنهر" بأنه سائل العلم لا سائل المال، وأنه يرجح هذا وجود لف ونشر مرتب في الآيات؛ فالله سبحانه يقول "ألم يجدك يتيمًا فآوى، ووجدك ضالًا فهدى"، وقوله "ووجدك عائلًا فأغنى"، فقوله تعالى بعد ذلك "فأما اليتيم فلا تقهر" عائد على "ألم يجدك يتيمًا فآوى"، وقوله "وأما السائل فلا تنهر" عائد على "ووجدك ضالًا فهدى"، وقوله "وأما بنعمة ربك فحدث" عائد على "ووجدك عائلًا فأغنى".

وبعد الانصراف من الدرس ضم بعض الحاضرين مجلس تصدره الشيخ محمد الحناوي -وكان من علماء دمياط النابغين- وعلق على رأي الأستاذ الأمام في تفسيره للسائل بسائل العلم لا المال، بأنه لم يرد في القرآن الكريم كلمة – سائل – إلا على سائل المال، واتفق المجتمعون على الكتابة في ذلك إلى الأستاذ الإمام فجاء الرد مصوبًا رأي الشيخ الحناوي[٤].

ولم تكن لتفوت الغاياتي ندوة دينية أو أدبية إلا حضرها وشارك فيها مستمعًا منصتًا أو متكلمًا شاعرًا، وللأسف لم يسجل لنا بديوانه شيئًا من شعر الصبى ومطارحاته، وإن كان يبين في موضع آخر سبب ذلك. وكانت أكثر المجالس الدينية في جامع البحر فيما بين صلاة العصر والمغرب، أو المغرب والعشاء، حيث تثار مسائل الفقه والخلاف، ويتناول القرآن الكريم بالتفسير. وولّد ذلك في نفسه ولعًا عظيمًا بتلاوته وتجويده، وإدامة النظر فيه، وفهم آياته، مما ترك في نفسه وسلوكه وأسلوبه آثارًا ظلت باقية معه ملازمة له.

---

(١) محمد الماحي، ديوان الماحي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٤٥٢.

(٢) محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٢٤هـ.

(٣) منير الشرق، العدد ٥٠٥.

(٤) المنار.

أما الندوات الأدبية فكانت تعقد في الدور أو المتاجر، وقد أنشأ حمدي النشار، ومحمد فريد وجدي جمعية أدبية ضمت الشاعر باسيلي سرور، وعلي العزي، وعبد السلام خفاجي، وحسين الحمامصي، وكان الأخير تاجرًا سوريًا يتخذ الأدباء من متجره ندوة أدبية يتطارحون فيها الشعر[١].

وقد أنجبت دمياط كثيرًا من الشعراء قديمًا وحديثًا؛ ففي العصر الفاطمي ظهر ابن قادوس الدمياطي ١١٥٦م، وظهر بعد ذلك صدر الدين بن المرجل ١٣١٦م، وقد ترجم له ابن تغري بردي في نجومه، ثم محمد يوسف عبد القادر الدمياطي ١٦٠٥م، ويؤرخ الجبرتي للشاعر مصطفى أسعد الماحي الدمياطي ١٧٦٠م، وكان يعاصر الغاياتي الشعراء حسن الدرس، ومصطفى الماحي، والأسمر ١٩٥٦م، ومحمد منعم ١٩٢٣م، ومحمد البدري ١٩٥٥م، وعلي العزبي ١٩٤٢م، وحسن كامل الصرفي، وطاهر أبو فاشا.

وفي جامع البحر قال العريف لوالد الشيخ الفتى "أنه قد استنفذ كل العلم الذي في صدر سيدنا ما لا مجال معه لمستزيد"[٢]، وطلب الوالد من ابنه أن يشد الرحال إلى القاهرة ليواصل تعليمه بالأزهر الشريف، وودعه متمنيًا أن يراه قاضيًا شرعيًا أو عالمًا كبيرا. ووفد الشيخ الفتى إلى القاهرة كآلاف غيره من أبناء ريف مصر وصعيدها، ليتلقوا العلم في الأزهر. وكان "يطلب هذه الدراسة كثيرون ولا يصيبها إلا القليلون، فيكونون كالماء يبتدئ نهرًا كبيرًا ويمر أخيرًا في قناة"[٣].

ويظهر أن الغايتي قد برم بهذه الحياة الجديدة في صحن الأزهر، خصوصًا وقد علم أن عليه أن يقضي أكثر من عشرين عامًا، مستندًا إلى عامود من الرخام مصغيًا إلى الشيخ وهو يقرأ متنًا أو شرحًا أو حاشية أو تعليقًا، أما آماله التي تتصارع في قلبه ويضيق بها صدره فلن ترى النور ولن تخرج من محبسها، وانصرف كالنديم عن طلب العلم وترك أعمدة الأزهر وحلقاته وجفاف علومه.

---

(١) نقولا يوسف، تاريخ دمياط منذ أقدم العصور، الاتحاد القومي، القاهرة، ١٩٥٩، ٤٥١١.

(٢) المصور، تحقيق، ١٩-٩-١٩٥٢.

(٣) أحمد أمين، حياتي، مرجع سابق، ص ١٦.

ميلاد شاعر

بعد انصرافه عن الدراسة في الأزهر رغب في التعبير عما يجيش في صدره من وطنية، تختلج بها جوانحه، وتضطرب بها نفسه، وأخذ يدبج المقالات ويقرض الشعر ويبعث بذلك كله إلى مجلة أنيس الجليس، وجريدتي اللواء والبصير، وكانت الأخيرة تصدر بالإسكندرية، ويكتب فيها شبلي شميل وطانيوس عبده وتوفيق حبيب. وكانت "تنشر أخبار البورصة في الإسكندرية وهي مغمورة وليست مغرورة"[١]، وكانت الدنيا كلها لا تتسع لفرحته وهو يطالع مقاله أو قصيدته على صفحات الجرائد مذيلة بتوقيعه[٢].

وقد كان الشعر في هذه الفترة هو فن الأغلبية ذلك أن المقالة كانت في سبيل تكوينها بعد وقد أتاحت مخاطبة الجماهير من طريق الصحف للشعر فرصة الاتساع والانتشار، وكانت الصحف تنشر الشعر في صدر صفحاتها، ولذلك لم تكن القصيدة "عملًا أدبيًا يحتفي به الأدباء ورجال الفكر وحدهم، بل كان حدثًا قوميًا يشغل الأديب وغير الأديب، يتحدث عنه الناس في دواوين الحكومة، وعلى المقاهي وفي عربات الترام..."[٣].

ويعود الغاياتي إلى دمياط فيقابله أبوه بعاصفة من التوبيخ والتقريع، يتحملها مكرهًا، ويحاول البحث عن عمل حتى لا يطالعه وجه أبيه الغاضب، وامتهن التدريس، وعمل بمدينة السنبلاوين مدرسًا للغة العربية وذلك في عام ١٩٠٤م، ولكن لم يستمر فيه أكثر من شهر، ثم انتقل إلى المحلة الكبرى، وزاول التدريس بالمدرسة الأمريكية هناك. ولم يستمر فيه أيضًا أكثر من ثلاثة أشهر، عاد بعدها إلى دمياط، لأنه لم يطق البعد عن بلده المحبوب[٤].

ويظهر أن شوق الغاياتي إلى وطنه لم يكن يقل عن شوقه إلى الكتابة، فعاد يستكمل دراساته الأدبية، ويعمل بالتدريس أحيانًا؛ حيث يعلم الصبيان القرآن الكريم، ويبعث بمقالاته وأشعاره إلى الصحف القاهرية، وخاصة جريدة اللواء -لسان حال الحزب الوطني- ويظهر أن الغاياتي انقطع فترة عن مراسلة اللواء، فنعته الجريدة في عددها الصادر بتاريخ ١٠-٢-١٩٠٧م، فبادر الشيخ وبعث بقصيدة يُكذب فيها الخبر سماها – الموت الكاذب – يقول فيها:

فيـــا مـــن أشـــاع المـــوت عـــني فجـــأة ... لعمـــــرك إني نحـــــوه متلفـــــت
ولـــو كـــان نحـــبي في يـــدي لقضـــيته ... وغـــادرت عيشًـــا فيـــه أمـــري مشـــتت

(١) أحمد محفوظ، حياة حافظ إبراهيم، مؤسسة نصار للتوزيع والنشر، القاهرة، ١٩٣٢، ص ١٤.

(٢) أحمد أمين، حياتي، مرجع سابق، ص ١٧.

(٣) فتحي رضوان، عصور ورجال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧، ص ٢٧٧.

(٤) المصور، ١٩-٩-١٩٥٢.

وهي من أولى القصائد التي تطالعنا للغاياتي، وتشعر من خلال أبياتها أن أمواجًا كثيفة من الحيرة تعصف به شأنه شأن شباب مصر في هذه الفترة.

ولا يكاد يمر شهر وبعض شهر على هذه الحادثة، حتى يفد الأديب الشاعر إمام العبد إلى دمياط ومعه بعض الإخوان، فيسرع إليه الغاياتي عارضًا عليه كتاباته وأشعاره فيقنعه بترك دمياط. ويجمع الغاياتي حاجياته البسيطة، وبعض كتبه فيها مختار الصحاح قاصدًا القاهرة، فوصلها يوم الخميس ٤-٤-١٩٠٧م. ولأول وهلة شعر الغاياتي بوحشة كبيرة، لما رآه من حركة ونشاط وازدحام وارتفاع المباني وضجيج المواصلات.

وبالرغم مما عاناه الغاياتي غداة وصوله إلى العاصمة، نراه يندم على أعوامه الاثنين وعشرين التي قضاها في دمياط بعيدًا عن هذه الحياة الثائرة. ويعتذر عن هذه المقطوعات التي كان ينظمها في موضوعات "لا خير فيها للبلاد، ولا ذكر للأمة والوطن". وفي ذيل ديوانه يأتي بشيء من هذه المقطوعات، لتكون مثالًا رادعًا يرى فيه القارئ صورًا تقريبية تمثل طبائع أكثر الشعراء، وتقدر آمالهم في الحياة، وتكشف النقاب عما تسوله لهم أنفسهم وتوحيه إليهم شياطينهم. وفي ختام إحدى مقطوعاته بعنوان بين اللحظ والخال يقول:

إنمـــــــا أنـــــــت غـــــــرام حـــــــل مـــــــن قلـــــــبي صـــــــميمه
لـــــــيس لـــــــلأيام عنـــــــدي في ســـــــوى حبـــــــك قيمـــــــة

ويعلق بقوله "كذلك تكون الحياة رخيصة، والآمال صغيرة لدى بعض الشعراء، بينما الوطن يشكو ويألم، ولا يجد منهم ذاكرًا ولا متوجعًا". ونراه يعلق أيضًا على قصيدة أخرى بقوله في نهايتها:

فيـــــا حيـــــاتي فـــــديتك نفســـــي فهـــــل إلى المـــــوت مـــــن ســـــبيل

ويعلق بقوله "نعم إلى الموت خير سبيل إلى الوطنية"[١].

(١) ديوان وطنيتي، هامش ١٣٧.

الصحفي الناشئ

كان أكبر ما يشغل الغاياتي هو البحث عن عمل، بعد أن هيأ له مقامه بالقاهرة جوًا أدبيًا خالصًا، وكانت جريدة الجوائب المصرية جريدة أدبية سياسية، يصدرها خليل مطران، ويعاونه فيها شقيقه جورج، والأستاذ حسين المصري، وأبو بكر لطفي المنفلوطي. فقصدها الغاياتي وقابل شاعر القطرين، وعرض عليه خدماته كشاعر وأديب، فرد مطران أنهم في غنى عن الشاعر والأديب، ولكنهم في حاجة إلى مصحح.

وإذا كانت أمنية الغاياتي التي ظلت تراوده أن يكون صحفيًا، لاسيما في القاهرة وهو ما زال يتلقى العلم، حيث كان هذا الحلم يلوح له بالأدب والشعر والشهرة، إذا كان ذلك كله حقيقة لا جدال فيها، فلم يكن من السهل على الغاياتي أن يرفض مثل هذا العمل، فقبله ولكن على مضض. وكان عزاؤه أنه سيظل على صلة ما بالصحافة والأدب، فضلًا عن الجنيهات الأربعة التي سيتقاضاها.

وظل الغاياتي يعمل بالجريدة، وهو يقوم بعمله كمصحح. حتى كان يوم فاقتحم مكتب الجريدة لفيف من طلبة كلية فيكتوريا، وعلى رأسهم طالب اسمه أمير العطار، شاء القدر أن يكون فيما بعد أحد شاهدي عقد زواجه بجنيف، وكانوا قد جاءوا ليشكوا من سوء معاملة ناظر المدرسة الشيخ الهاشمي الذي يحتم عليهم دراسات معينة تبعدهم عن الوطنية، وتصادف أن الغاياتي كان الشخص الوحيد الموجود بالمكتب في ذلك اليوم، فاستمع إلى شكواهم ووعدهم خيرًا، وكتب مقالًا نشره في الجريدة تحت عنوان "دنلوب معهم"، مشيرًا إلى مستشار المعارف الإنجليزي.

وأثار المقال إعجاب القراء مما جعل مطران يشجعه على مواصلة الكتابة، فنشر عديدًا من المقالات عالج فيها موضوع – فتنة دمياط – منذ شهر مايو ١٩٠٧م؛ إذ دب خلاف بين علماء الدين فيها، أدى إلى فتنة دينية اشتعلت نارها بتدخل العوام، ورفع أمرها إلى مشيخة الأزهر والخديوي. وكاد يستفحل خطبها بتحريض العلماء ذوي الأفكار العتيقة البالية الجهلة والسفلة، على إيذاء مخالفيهم من المصلحين، وما زال الجهل والحمق يقودان حزب الضلال، حتى استدعت مشيخة الأزهر في دمياط العالم الذي جهر بالحق، وشنع على صناديق النذور والتوسل بأرباب القبور، ونفى قول القائلين بالحظوة للأولياء. وانعقد مجلس الإدارة لمحاكمته فكان الحكم من عمل الشيطان، وهو يقضي بمنع هذا العالم من التدريس، وبقطع مرتبه وجرايته سنة كاملة، يقدم شيخ علماء دمياط في آخرها شهادة للمشيخة بحسن سلوكه[١].

(١) - المرجع السابق.

وكان الغاياتي أول من كتب وانتصر للحق واستكتب غيره من الكتاب، وبعث إلى القراء يناصرونه، وكذلك ناصره العالم شبلي شميل، ولم يكتف رجال الدين بمطاردة الشيخ بل ووصفوه بالخروج على الشرائع، بعد أن ارتسمت في أعماقه صور الاستبداد والاستعمار. ويوضح لنا الغاياتي الدافع لخوض هذه المعركة، بأنه كان مدفوعًا "بدافعين شديدين: دافع ديني، ودافع قومي؛ إذ أنني عهدت ديني الإسلامي دين العقل والاعتدال والعدل والإصلاح...، وعهدت نفسي متفانية في الميل إلى قومي الدمياطيين، والحب لوطني العزيز دمياط "[1].

وتبدأ المعركة التي ظلت مشتعلة لعدة شهور. وينصرف الغاياتي إلى الوطن الأم يوجه اهتماماته ومشاعره، فيشهر قلمه في وجه الظلم، يوم كان الجبن يعقد الألسنة ويلجم الأفئدة ويلقي بنفسه في تيار السياسة، وكان يشقيه ما يراه على جسد الوطن الغالي من جراح أدمتها يد الاحتلال، ونكأتها أصابع التابعين والخاضعين، وعلى رأسهم خديوي مصر عباس الثاني، الذي اتخذ الغاياتي مسكنه غير بعيد عن قصره في حارة الشيخ سليم. وكانت الحارة شريطًا ضيقًا يفصل بين عالمين متناقضين، عالم القصر بتحفه ورياشه، وعالم الفقراء البسطاء بأكواخهم وبيوتهم المتواضعة، ومن نافذة حجرته الضيقة كان باستطاعته أن يطل على قصر عابدين شامخًا بأسواره محاطًا بالحراس والأجناد:

فيـــــــــه المقاصـــــــــير الـــــــــتي ... الـــــــــــــــواجهين المرمـــــــــــــــر
حيطانهـــــــا الـــــــذهب الصـــــــقيل ... وأرضـــــــــــــــهن العرعـــــــــــــــر[2]

وأغلب الظن أنه كان باستطاعته أن يسمع أصداء الموسيقى الصارخة في جنبات القصر، تأتيه عالية صاخبة وقد سكن الليل ونام الحي، وبينما كان الخديوي عباس الذي يقول فيه محمد البكري:

ملـــــــــــك بضـــــــــــوء جبينـــــــــــه ... تســـــــــــقى الـــــــــــبلاد وتمطـــــــــــر

أو

حســـــــام بـــــــه الإســـــــلام أضـــــــحى مقلـــــــدًا ... لـــــــه شـــــــيمة فيهـــــــا ثـــــــوى الفضـــــــل كلـــــــه

بينما كان حسام الإسلام هذا يحاول أن يبدد ظلمات الاحتلال بأنوار المراقص التي يقيمها في جنبات القصر، والتي افتتن شاعره شوقي في تصوير ما فيها من مبازل ورخص. بينما يحدث هذا، كان الغاياتي صاحب الاثنين وعشرين عامًا، يرقد غير بعيد على حشية بسطت فوق حصير، يؤرق عينيه ذلك الاحتلال الجاثم على صدر

(١) فتنة دمياط والشيخ علي الغاياتي، ط: الاثنين ٢ ذو الحجة ١٣٢٥ هـ، مطبعة الجوائب.

(٢) محمد توفيق البكري، صهاريج اللؤلؤ، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٠٦، ص ٨٩.

الوطن، ويدمي فؤاده رؤية الأمير يلقي السلم للإنجليز، مصافحًا ممثلهم في مصر إحكامًا لعروة الود والمصافاة، لقد كان حب مصر مكتمًا في قلبه وها هي معرفته بما يدبر للوطن تفتح هذا الحب، وها هو ذا فهمه لما يجري حوله يشق زهرات قلبه عن حب عميق للوطن، ولكل من يعمل للوطن.

وفي القاهرة حيث شدت كلمات مصطفى كامل اللاهبة، تثبت للغاياتي قوارمه وخوافيه، فحلق في سماوات الشعر الوطني، مسبحًا بجمال الوطن، آسيًا على حاله مرددًا مع صوت الوطنيين صيحات البعث، وبدت في أشعاره صيحات حماسة وهدير ثورة.

وقد بدأ اتصال الغاياتي بمصطفى كامل عقب خطبته الجامعة بمسرح زيزينيا بالإسكندرية مساء ٢٢-١٠-١٩٠٧م، والتي أرسى فيها مبادئ الحزب الوطني، وتغنى بحب مصر الخالدة. وما يكاد الغاياتي يقرأ كلمات الزعيم على صفحات اللواء، حتى تفجر الشعر على لسانه لأول مرة منذ قدومه القاهرة، وينشئ قصيدته التي يقول في مطلعها:

اصـــــــدع بقولـــــــك إذا أردت مقـــــــالًا فـــــالقوم جنـــــدك إن دعـــــوت رجـــــالًا

ويقدمها لزعيم الوطنية – وكانت هذه أول وآخر مرة يراه فيها – ويقول في ختام القصيدة:

ورجـــــوت أن أغـــــدو لحزبـــــك ناصـــــرًا يغتـــــال مـــــن خصـــــمائه الآجـــــالا

وكأنها طلب انضمام للحزب، وشهادة تزكية. وبعد أيام وفي ١٣ نوفمبر ١٩٠٧ن قُبل الغاياتي عضوًا في الحزب الوطني، وذلك بخطاب شكر أرسله له علي فهمي شقيق الزعيم، وقد لخص الغاياتي في هذه القصيدة عقيدته الوطنية، وإيمانه الوطني، وثورته المشتعلة. يقول مخاطبًا مصطفى كامل:

لم تـــــدر مصـــــر ســـــوى حمـــــاك تؤمـــــه فـــــترى بـــــه آلامهـــــا آمـــــالا

أقبـــــل علـــــى الـــــوطن العزيـــــز بصـــــارم لا تـــــدرك الأعـــــداء منـــــه نكـــــالا

وانشـــــر بـــــه فـــــوق الطـــــروس حميـــــة تحكـــــي حميـــــة صـــــنوه إن صـــــالا

واعمـــــل علـــــى الرشـــــد القـــــويم لأمـــــة يبغـــــي ســـــواك برشـــــدها إضـــــلالا

أما الضالعون فقد جبنت نفوسهم وأزل الحرص والمال أعناقهم:

باعـــــوا المـــــواطن بالمـــــآرب وانثنـــــوا في كـــــل قـــــول ينشـــــدون نـــــوالا

حســـبوا الحمـــى عرضـــا مـــن الأعـــراض أو غرضـــا مـــن الأغـــراض أســـوأ حـــالا

وكثيرًا ما يقضي الغاياتي ليله ساهرًا مؤرق الجفن دامع العين، يعاني من ثورة نفسه الجامحة، وقد أخذ الكرى بمعاقد الأجفان، فإن غرامه بوطنه لقوي، وإن هيامه به لشديد تسمعه يخاطب طيف الوطنية الذي زاره ليلًا:

مرحبًـــا بالزائـــر الســـاري إلى مضـــجع الحـــب يحيـــي المســـتهاما
ليـــت شـــعري هـــل رأى في مضـــجعي شـــبحا يشـــكو إلى الله الســـقاما
وهـــل الـــدمع الـــذي أغـــرقني كـــان عنـــد الطيـــف دمـــع أم ضـــراما
وهـــل الـــنجم الـــذي أرصـــده أبصـــر الزائـــر في عيـــني فهامـــا
كـــل شـــيء بات حـــولي مغرمـــا أينمـــا أبصـــرت ألفيـــت الغرامـــا

وسواء رحل الليل أم أقام فذلك لا يعنيه، فإنه لا يشكو هجر فاتنة، أما ما يعنيه فهو هذا الوطن الذي ديست كرامته ودنست قداساته وهذا الشعب الجائع العاري:

نبصـــر الفـــيض بمصـــر جـــاريا بيـــد أن القـــوم يشـــكون الأوامـــا
ظمـــأ قـــاض ونيـــل فـــائض ودمـــوع جـــارت الســـحب انســـجاما
وعـــداة ملكـــوا الأمـــر ولم يحفظـــوا للشـــعب في حـــق ذمامـــا
وولاة أقســـموا أن يســـجدوا كلمـــا رام العـــدا مـــنهم مرامـــا

وها هم يقضون ليلهم مع كبيرهم – على بعد خطوات – يسبحون في الأضواء، ويرفلون في حلل النعيم ويعبون الكؤوس ويجلجلون بالضحكات في أجواء معطرة فيصرخ مناجيًا ربه:

رب مـــاذا يصـــنع المصـــري إن جـــاوز الصـــبر مـــدى الصـــدر فقامـــا
طـــال يـــوم الظلـــم في مصـــر ولم نـــدر بعـــد اليـــوم للعـــدل مقامـــا

ويصيح في وجه المحتل البغيض، معلنًا إيمانه بالشعب العظيم الذي يخوض أخطار الموت لينال غاياته في الجلاء والدستور:

إنمـــا الشـــعب الـــذي يرجـــو العـــلا لـــيس يرضـــى مـــن أعاديـــه اهتضـــاما
كتـــب النصـــر لشـــعب ناهـــض في ســـبيل المجـــد لا يخشـــى الحمامـــا

لم يكن رجال الدين الذين خاصمهم الغاياتي ليسكتوا عنه، فقد قام بعضهم بإرسال عديد من الشكاوى إلى وزارة الحربية، متهمين إياه بأنه احترف الصحافة وترك العلم، وعليه فإن حقه في الإعفاء من التجنيد يسقط. وقضى الغاياتي اثني عشر يومًا من ١٨ إلى ٣٠ ديسمبر ١٩٠٧م بالعباسية تحت التحقيق في سجن القشلاق الأحمر، ثم أطلق سراحه بعد أن تبين أن والده شيخ كبير في حاجة إلى من يعوله، وبعد أن عرف سوء الإقامة في الجيش والمعاملة غير الكريمة للجنود، وقد نظم الغاياتي مدة إقامته هناك قصيدة طويلة، من اثنين وسبعين بيتًا، أثبت منها في ديوانه أربعة وخمسين بيتًا.

وقد نشر قصيدته هذه في كتيب صغير في ست عشرة صفحة جعل عنوانه "فتنة دمياط والشيخ علي الغاياتي"، وعرض فيه لتاريخ الفتنة وأطوارها باختصار، وأحال القارئ إلى كتاب سيصدره بعنوان "سيف الله الصارم" إذا أراد مزيدًا من الشرح والزيادة[١].

وباستعراض هذه القصيدة نتبين مدى عقيدة الغاياتي المتحررة وثورته على التقليد، وذوده عن روح الإسلام وجوهره، يقول في الأبيات الأولى من القصيدة:

ما ضرني أني لجأت إلى حمى ... هو ملجأ الأوطان يوم المفزع
إن كنت أدفع بالسيراع كريهة ... فالآن أدفع بالظبى والمدفع

ثم يدير محاورة بينه وبين شيخ علماء دمياط، الذي ينكر عليه معرفته بالدين لأنه لا يتكلم بما في الحواشي والمتون يقول على لسان الشيخ ساخرًا من الغاياتي:

أين المتون مع الشروح ومالها ... بين الهوامش والحواشي الشرّع
بالله دعني من مقالك أنه ... لم يأت إلا من أباطيل الدعي

والدَعِيّ الذي يشير إليه الشيخ، هو الأستاذ الإمام محمد عبده. وينبري الغاياتي للشيخ الحاقد يصوب إليه سهامًا حادة، ساخرًا منه كاشفًا النقاب عن قضية رشوة برأس البر كان الشيخ طرفًا فيها، وكان المحقق هو الأستاذ الإمام فيذكر الشيخ بأفضال الأستاذ الأمام عليه:

أنسيت رأس البر يا هذا وقد ... وافيته فيها بألف مشفع

(١) - علي الغاياتي، فتنة دمياط، صحيفة الجوائب المصرية، ط: الاثنين ٢ ذو الحجة ١٣٢٥ هـ، مطبعة الجوائب، هامش ص ٣.

وجثـــوت بـــين يديـــه لا تبـــدي ســـوى دمـــع الكئيـــب وأنـــة المتوجـــع

حـــتى عفـــا كرمـــا وأحســـن منـــة ولـــو ارتضـــى لنعـــاك للقـــوم النعـــي

ثم يزري ببعض العلماء (الجهلاء) الذين لا يفقهون من الدين إلا قشورًا، والإسلام إلا قبورًا تزار، وأولياء يتزلف بهم إلى الله، ولباسًا يرتدى:

يا ويـــل مـــن عبـــدوا القبـــور وأشـــركوا بالله بـــين توســـل وتضـــرع

وفي ختام القصيدة يمد يده مصافحًا للخصم والنصير فهم أهله وعشيرته:

يا أهـــل دميـــاط الكريمـــة إنـــني معكـــم وقلـــبي بيـــنكم في مربـــع

ويعود الغاياتي إلى دمياط لزيارة الأهل والأحباب، وما تمر أيام حتى يأتيه نعي الزعيم (مصطفى كامل) فيملأ الأسى قلبه، فيفيض لوعة وحزنًا، فينظم التأبين في المدينة، ويعلق الحداد. وفي حشد كبير في جامع البحر وبعد صلاة الجمعة (١٢ محرم١٣٢٦هـ/ ١٤-٢-١٩٠٨م) يلقي رثائه للفقيد ناعيًا للأمة أعز فقيد، معزيًا الجماهير الحزينة الواجمة ويفتتح قصيدته بقوله:

حـــامي الأوطـــان روعـــت الحمـــى حينمـــا أمســـيت عنـــه محجمًـــا

ويستعرض صورًا من كفاح الزعيم الذي بدد ظلمات اليأس وأحيا الأمل في نفوس المصريين:

أنـــت علمـــت الـــبلاد القـــول إن أبصـــر القائـــل حقًّـــا هضـــما

أنـــت أوجـــدت الشـــعور الحـــي في أمـــة النيـــل فأحييـــت أمـــما

وتزداد نفسه حيرة حين يحرم من السير وراء نعش الفقيد:

إنـــني أبكـــي بقلـــب آســـف قـــد أقـــام الوجـــد فيـــه مأتمـــا

ولـــو اســـتطعت كنـــت الأمـــس في مشـــهد مـــن التشـــيع منهـــل الـــدما

انظـــر الـــنعش وقـــد حفـــت بـــه فتيـــة العلـــم وخـــير العلمـــا

وقد ظلت جنازة الفقيد وذكراه ماثلين في ذاكرة الغاياتي، ونراه في وصيته يحرص على أن يكفن بالعَلَم كما كفن صاحبه.

ويعود الغاياتي إلى القاهرة والمآقي مبللة بالدمع، وجنبه يحمل قلبًا متوجعًا يزفر ألمًا على فقيد الوطن وزعيم الوطنية، وينبض إعزازا لخليفته محمد فريد الذي حمل المشعل من بعده:

يا رئـــــــيس الحـــــــزب حـــــــارب ... بالحجـــــــا أهـــــــل الذميمـــــــة
ولـــــــك الشـــــــعب نصـــــــير ... في الملمـــــــات الجســـــــيمة
ان آمـــــــالًا كبـــــــارًا ... فيـــــــك أضـــــــحت مســـــــتهيمة

وعندما عصفت الناحية المادية بجريدة الجوائب، استأجرها الأستاذ عطا حسني، وهو صهر العائلة الخديوية، وأشرف على سياستها سليمان فوزي، وظل الغاياتي يكتب في الجريدة ويصحح وينشر مقالًا تحت عنوان "الدستور أميرنا" يدل معناه على مغزاه في هذه الفترة. ولم تكد بعض نسخ من الجريدة توزع، حتى بادر صاحبها بمصادرتها، ورفع مقال الغاياتي منها حتى لا يتعرض لغضب القصر.

وعوقب الغاياتي لوطنيته وفصل من الجريدة، وأصبح بلا عمل، ولكنه كان ينشر بين الحين والحين مقالًا أو قصيدة في صحيفتي المؤيد والدستور. وبقراءة المقال الذي نشره في المؤيد عن الموالد نتبين نزعته الإصلاحية، ومعرفته بأدواء المجتمع؛ فهو يحمل على بدعة الموالد وما يدور فيها من مفاسد وشرور، حتى أصبحت "للمعاصي معهدًا وللمقاهي موردًا ... فهي أسواق الفجور وبؤر الشر"، ويعلق في ختام مقاله بعد قيامه بجولة في مولد سيدي إبراهيم الدسوقي "كنت أرى المقهى ينقسم إلى قسمين أو ثلاثة: قسم للحشيش، وهو مقدس في كل مكان مقهى، وقسم للخمر وهو في أكثرها، وقسم للباغيات فضلًا عن بيوتهن الخصوصية.. ورجال البوليس معهم من الزبائن"[1].

وتصادف أن علي فهمي كان يضع كتابًا عن شقيقه أطلق عليه "مصطفى كامل في أربعة وثلاثين ربيعًا" فاختار لتصحيحه محمد صادق عنبر، ومحمد إمام العبد، وعلي الغاياتي، وكانوا يعملون في غرفة بدار اللواء، ثم انتقلوا إلى العمل بجريدة اللواء وشارك الغاياتي بعد ذلك في اللواء.

وكان يعمل في الجريدة في تلك الفترة عبد العزيز جاويش، ومحمد فريد، وعبد الرحمن الرافعي، وأخوه أمين، وتوفيق العطار، وتوفيق فرغلي، ومحمد مصطفى جمعة، وإبراهيم رمزي وآخرين.. وفي غير هذا الجو الوطني لم

(١) - المؤيد، ١٩-٩-١٩٠٨.

يكن الغاياتي ليستطيع أن يتنفس أو ينشر قصائده الثائرة. وكان إذا فرغ من العمل في الجريدة يحضر اجتماعات نادي الحزب الوطني ونادي المدارس العليا، أو يتوجه إلى بولاق حيث مدرسة الشعب التي أنشأها الحزب الوطني ليتعلم الفرنسية، فإذا ما انتهى من درسه عرج على قهوة متاتيا، أو قهوة جراسيمو التي تجاورها، ويلتقي بأدباء دمياط على قهوة البورصة.

وكان كثيرًا ما يقضي شطرًا من الليل عند صديقه إبراهيم الورداني بصيدليته التي لا تبعد عن مسكن الغاياتي بأكثر من خطوات، يتذاكران شجون الوطن وشئونه بحماس الثائر وإخلاص المؤمن.

ونشر الغاياتي قصائده اللاهبة على صفحات اللواء مسجلًا أحداث الأمة، عاكسًا آمال الشعب، آسيًا على الوطن العزيز، منددًا بالاحتلال ومشيدًا بالوحدة بين عنصري الأمة، وما تمر ذكرى مصطفى كمل حتى يكتب قصيدة أو أكثر مذكرًا بمبادئ الفقيد وجهاده.

وحين يصبح من المقرر أن تصدر الوزارة البطرسية قانون المطبوعات بتقييد حرية الصحافة والنشر، يتصدى لمهاجمته والتنديد به، فإذا صدر هاجم الوزارة، وحمل على الخديوي وبشر الأمة بالنصر والفوز.

وكان الشيخ عبد العزيز جاويش أول من وقع تحت طائلة هذا القانون بسبب مقاله "ذكرى دنشواي"، الذي ندد فيه بقضائها وترحم على شهدائها، وحكم على الشيخ بالسجن، ثم قلده الشعب وسامًا وهنأه الغاياتي بقصيدة ثائرة.

ثم كان حادث قتل رئيس النظار بطرس غالي بيد صديقه إبراهيم الورداني، وسكتت ألسنة الشعراء وجفت أقلام الكتاب، ولكن الغاياتي راح يبني له صرحًا في المجد وتمثالًا من العظمة؛ فمجد عمله وأشاد بصلابته أمام المحققين. فلما صدر الحكم بإعدامه رثاه الغاياتي والألم يمزق قلبه، ألم الفراق وألم أن يحاكم مصري مصريًا.

ثم دب الخلاف بين ورثة مصطفى كامل على اللواء، مما أدى إلى تعيين حارس قضائي على تركته بحكم قاضي الأمور المستعجلة في المحكمة المختلطة بتاريخ ٢٧ فبراير ١٩١٠م، وأراد الحارس يوسف المويلحي أن يتدخل في شأن التحرير، فعارضه محمد فريد واستقال المحررون -ومنهم الغاياتي-، واستقال دكتور منصور رفعت من إدارته، وأصدر الحزب الوطني جريدة العلم لتكون لسان الحزب.

وصدر العدد الأول ٧ مارس ١٩١٠م تزينه قصيدة الغاياتي مخاطبًا محمد فريد:

وبعد صدور أحد عشر عددًا تعطله الحكومة، فيصدر الحزب صحفًا أخرى ويعود العلم بعد شهرين فيستقبله الغاياتي بقصيد أخرى ثانية.

ويحاول الاستعمار بمساندة الضالعين بعد أن يمد امتياز قناة السويس، فوقف الحزب الوطني ضد المشروع ووقف الغاياتي يخاطب النواب الوطنيين الذين يقومون بفحص المشروع مجيبًا ومنذرًا حتى سقط المشروع.

*****

محنة الديوان

أراد الغاياتي أن يجمع قصائده في ديوان أطلق عليه "وطنيتي"، حتى لا يترك كلماته اللاهبة تضيع وتطوى. ولم يكن يقصد وطنيته هو فهو لا يشيد بها ولا يذكرها، وإنما أراد بهذه التسمية أن يكون ديوانه مثالًا لوطنية المصري المحب لوطنه. وهو أول ديوان -على ما أعلمه- في الشعر العربي يتحدث عن الوطن تشبيبًا وتمجيدًا، وينحني إجلالا لكفاحه ونضاله لا لأمير أو وزير، ولم تستطع مئات الأنهر من المقالات في هذه الفترة أن تفعل ما فعله هذا الديوان الصغير الحجم، لقد أقام دنيا الاحتلال وأقعدها وخاصم القصر وأعوانه وهاجم التابعين "المعتدلين" وأوجع أصحاب فكرة مد امتياز قناة السويس، ونادى بالجلاء وهتف للدستور، وأقام تماثيل بطولة ومجد لباعث الوطنية مصطفى كامل، وخليفته محمد فريد، ومعلم الشعب الشيخ جاويش، وبطل الشعب إبراهيم الورداني.

ومما زاد الديوان أهمية تلكما المقدمتان اللتان كتبهما: محمد فريد وعبد العزيز جاويش، وهما زعيما الوطنية في تلك الفترة بلا منازع.

وكانت مقدمة محمد فريد تحت عنوان "تأثير الشعر في تربية الأمم"، تحدث فيها عن الشعر كمؤثر من أفضل المؤثرات في إيقاظ الأمم من سباتها، وبث روح الحياة فيها. واستدل على ذلك بأنشودة المرسليز التي كانت من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوروبا الذين تألبوا لإخماد روح الحرية في مبدأ ظهورها.

ونادى بضرورة وضع القصائد والأغاني الوطنية ليحفظها الصغار ويترنموا بها في أوقات فراغهم، ولينشدوها في ساعات لعبهم. ويقول إن نتيجة استبداد حكومة الفرد سواء في الغرب أو في الشرق كانت "إماتة الشعر الحماسي، وحمل الشعراء بالعطايا والمنح على وضع قصائد المدح البارد والإطراء الفارغ في الملوك والوزراء، وابتعادهم عن كل ما يربي النفوس ويغرس فيها حب الحرية والاستقلال".

ولذلك جعلت الأمم المغلوب على أمرها من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والأناشيد الحماسية لبث روح الوطنية. وفي مصر بدأت نهضة مباركة حيث ترك أغلب الشعراء نظم قصائد المديح للأمراء والحكام. "وقد لاحت وطنيتي في طليعة هذه النهضة الميمونة الرشيدة".

ويختم الزعيم كلمته بقوله مناشدًا الشعراء أن يتخذوا من الكلمة سلاحًا يشهرونه في وجه الظالمين بقوله "فعلى حضرات الشعراء أن يقلعوا عن عادة وضع قصائد المديح في أيام معلومة ومواسم معدودة، وأن يستعملوا هذه

المواهب الربانية العالية في خدمة الأمة وتربيتها، بدل أن يصرفوها في خدمة الأغنياء وتمليق الأمراء والتقرب من الوزراء، فالحكام زائلون والأمة باقية"[١].

وأثار فريد موضوع الأدب الشعبي موضحًا وظيفة الفن الاجتماعية "ومما يزيد من سروري أن شعراء الأرياف وضعوا عدة أناشيد وأغان في مسألة دنشواي وما نشأ عنها، وفي المرحوم مصطفى كامل باشا ومجهوداته الوطنية، وفي موضوع قناة السويس، ورفض الجمعية العمومية لمشروعها، وأخذوا ينشدونها في سمرهم وأفراحهم على آلاتهم الموسيقية البسيطة"

أما المقدمة التي وضعها جاويش فجعل عنوانها (الشعر والشاعر)، يقول في تعريف الشعر إذا شئت أن تعرف جيد الشعر فدع عنك تفاعيل البحور والتزام الحروف ومحسنات الألفاظ، واعتبر بما يتركه الشاعر في نفسك من الأثر، فإن أحسن الشعر ما يملك قلبك حتى تفرغ منه كما أن لمجمل الصور ما يملك بصرك حتى يغيب عنه.

أما نموذج الشاعر الحق فيتمثل في الغاياتي الشاعر فمن "شاء أن يرى نموذجا من الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعنى، وألف بين إحكام التأليف، وصدق العبارة، فليقرأ شيئا من (وطنيتي). ومن شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة والنفوس المتوقدة والعزائم الصادقة "فإنها من غراسها وجميل ثمارها"[٢].

وتأتي مقدمة الشاعر لديوانه لتكشف لنا عن ثوراته وإيمانه العميق والتزامه بقضايا بلده. وهو حين يتحدث عن تأثير الشعر في نهضة الشعوب وتحررها، ونراه ينعي على مصر فقرها في هذا النوع من الشعر وهذا الصنف من الشعراء.

ولم يهد الديوان إلى أمير أو وزير، ولعله أول ديوان- بعد ديوان محرم الذي أهداه إلى النيل قبل ذلك بعامين- "لعله أول ديوان يقدم هدية خالصة لوجه الوطن الكريم".

"أجل إن مصر لشديدة الحاجة إلى شعراء يبكون إذا بكت ويبسمون إذا ابتسمت وهم فيما بين ذلك ينفثون في النفوس من روحهم ويبثون في الأمة من شعورهم، حتى يشربوا القلوب حب البلاد ويستمطروا مدامع الوجد عليها والكلف بها..... هنالك تنهض الهمم وتتوقد العزائم وتعمل النفوس الحرة الأبية على كسر أغلال الظلم، وسحق أصفاد الاستبداد، هنالك تتربى في النشء روح الحمية الوطنية والغيرة القومية"[٣].

---

(١) مقدمة وطنيتي.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المرجع السابق.

ولكن أين هؤلاء الشعراء؟ لقد كثر عددهم وقل مددهم، إنه يريد شاعرا يفجر الثورة في النفوس ويلهب أحاسيس الشعب شاعرا – كما يقول الغاياتي وكأنه يبرز هويته "يقتحم الصعاب ويهزم الخطوب يحارب الآلام ويصافح الآمال يهز العرش إذا ما شاء ويدك الطود إذا ما أراد، يبني لقومه بسنان قلمه مجدا باقيا وينشر عنهم في الملأ ذكر عاطرا".

وقد أراد بقصائده تلك أن يبث في الأمة روح الثورة وأن يثير في الناس عاطفة الوطنية وأن يكون شعره "للحوادث راويا وللتاريخ واعيا وللعامة منبها وللخاصة مذكرا"، فهو لا ينسى الجماهير.

وفي ختام ما سماه الغاياتي – مقدمة – لديوانه نراه يفيض في الحديث عن المارسليز –همزة الوصل بين أدبنا وأدب الثورة في الغرب – وظروف تأليفه وإنشاده وآثاره العميقة في نفوس قواد لفرنسا، ثم يتبع ذلك بذكر أنشودتين وطنيتين لشاعر فرنسا الأكبر فيكتور هوجو (الأولى بعنوان فرنسا والثانية تحمل عنوان الوطن)، " ليكون ذلك نموذجًا يراه شعراؤنا فينسجون على منواله ويربون الأمة من أطفالها إلى كهولها على حب الوطن وتمجيد الوطنية بجميل أشعارهم وبديع أناشيدهم".

وإذن فما سماه الغاياتي –مقدمة- ليس في حقيقته سوى تمهيد لحديث طويل عميق عن الشعر الوطني ودوره في معركة التحرير – ويمكن بقليل من التجاوز أن نضع ما سميناه مقدمة مع نماذج الأدب الرمزي وهو ظاهرة واضحة في عصور الاستبداد.

فهو حين يتحدث عن المناخ السياسي الذي كانت تعيش فيه فرنسا قبل الثورة، لم يكن غائبا عن تفكيره حالة مصر السياسية والاجتماعية أواخر القرن التاسع عشر، بل إن الغاياتي تعمد إطالة شرحه لأسباب الثورة وعوامل نجاحها ليثير في نفوس المصريين الحمية ويبث فيهم روح الثورة.

فالأمة الفرنسية نهضت للتخلص من قبضة الحكم المملوكي الظالم الذي سامها الخسف والهوان وأثقل كاهلها بالضرائب والمغارم، وكانت مقاليد الحكم في يد ماري أنطوانيت عدوة الإصلاح. "وليتها وهي أجنبية غريبة عن العائلة المالكة كانت تحترم إرادة الشعب الذي يحترم إرادتها ويقي حكومتها بأمواله ورجاله من حادثات الليالي وطوارق الخطوب، الشعب الذي قامت على رقابه العروش فلولاه لما استقرت للحكومة قدم في الوجود.. بل لولا الشعب لثلت العروش وانتزعت التيجان عن الرؤوس وحل بالحكومة الويل والهوان".

"وكانت ماري أنطوانيت –رمز الحكم المستبد – ترى أنها مالكة الرقاب ومقدرة الأرزاق – كما يرى بعض الحكام في هذه العصور – فاستحقت غضب الشعب ويا ويل الحكومة من غضب الشعب، فحين قام الشعب قومته أنهى

حياتها بآلة الإعدام، وتألبت دول أوروبا على فرنسا وضربت جيوش النمسا على شواطئ نهر الراين قبالة ستراسبورج حيث يقيم حامية المدينة".

"وفي حفل أقامه عمدة المدينة تتم ولادة نشيد المارسليز على يد الشاعر الضابط روجيه دي ليل، وانتصرت فرنسا، وكان هذا النشيد خير باعث على الجهاد مشجع على مواقف القتال والانتصار ... فليت شعري أي شعب يسير فيه مثل هذا النشيد ويأخذ بفؤاده هذا التأثير وحب الحرية ثم لا يكون خير الشعوب وأرقاها؟".

ثم يأتي بترجمة بعض المقطوعات بعد إيراد النص الفرنسي. وفي ختام حديثه عن المارسليز وأثره في اتجاه الأمة نحو الثورة يقول بإيمان الثائر وعزم المجاهد[1]:

"إلا أنه مما لا ريب فيه أن الحكومة كلما انتهجت منهج الجور وسلكت سبيل العسف فتحت من حيث لا تدري للأمة أبواب الحرية الواسعة وهدتها طريق السعادة المنشودة والضغط لا محالة محدث الانفجار، فطوبى للأمة تقوضت في ديارها دعائم العدل ووقف حكامها لها بكل سبيل وقفة الذئاب أمام الشياه فنظرت ذات اليمين وذات الشمال مستجيرة مستعيذة فما رأت غير ظلم وظلام، يأخذ أموالها الحاكم المستبد بإحدى يديه ويسومها سوء العذاب باليد الأخرى، فهو يجيعها ليشبع ويفقرها ليغنى ويذلها ليعتز، ثم يسد في وجهها مناهل العلم لتنفسح أمامه مناهج الظلم حتى إذا ما رفعت رأسا أثقلته المظالم أو فتحت عينا أغمضتها رؤية الظالم أوشكت وبكت واسترحمت واستضعفت، كانت الطامة الكبرى عليها والويل الأعظم لها ولا يزال هذا حالها مع حكامها حتى تفيض الكأس ولا تجد النفس طاقة لها على ما احتملت ويرتفع صوت الآباء مرددًا قول أبي العلاء:

مـــــلَّ القلـــــم فكـــــم أعاشـــــر أمـــــة ... أمـــــرت بغـــــير صـــــلاحها أمراؤهـــــا

ظلمـــــوا الرعيـــــة واســـــتجازوا كيـــــدها ... فعـــــدوا مصـــــالحها وهـــــم أجراؤهـــــا

هنالك تشرق شمس الانتقام وتأخذ الشعب نشوة الانتصار وترى الناس سكارى وما هم بسكارى، ولكن يوم الظالمين عصيب، هنالك يغير الله حالا بعد حال وتستوي الأمة على عرشها تدير دفة الحكم بيدها وتسير القضاء العدل بإرادتها، هنالك ينادي منادي الحكومة الأهلية الدستورية العادلة بصوت مدو في أرجاء البلاد أن "لا ظلم اليوم لا ظلم اليوم". تلك عاقبة جور الحكومات وصبر الأمم وكذلك كان شأن فرنسا وإنها لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد".

(١) "كذلك كان أكثر الناس -ولا يزالون- يتمثلون بالثورة الفرنسية وبأقوال رجالها، لأنهم يجهلون أصابع اليهودية العالمية الخفية التي اشتركت فيها، بل التي حركتها وأنارتها".اتجاهات معاصرة، ص ١٨١.

ويختم الغاياتي مقدمته بحديث ثائر عن الحرية وكأنها دعوة للثورة واليقظة "إن الحرية ليست منحة ولا هبة من ملك أو أمير بل هي حق طبيعي للشعوب حتى دبت فيها روح الإباء والاستقلال أخذته بالقوة القاهرة من أيدي مغتصبه وقدمت في سبيله النفس ولنفيس". وكان لهذه المقدمة الثائرة وقع الصاعقة على رؤوس السلطة الشرعية وسلطات الاحتلال، كما كانت تعبيرًا أصيلًا عن إيمان الشباب الراسخ بأمته وبذله الغالي والنفيس من أجل رفع صوتها والمطالبة بحقوقها.

وطبع الغاياتي ديوانه في مطبعة أحد رعايا فرنسا، واسمه كوستالبولا، وتقع مطبعته بجوار مكتب البريد؛ ليستظل بظل الامتيازات الأجنبية، حماية لوليده الأول من بطش صنائع الإنجليز وعيون القلم السياسي.

وانتهى تحرير الديوان يوم الجمعة (٢٤ يونيه ١٩١٠م – ١٧ جمادى الآخرة ١٣٢٨هـ)، وكان يلازمه في الإعداد والطبع ابن موطنه الأستاذ حسين فتوح، وبلغ عدد النسخ التي تم طبعها ألف نسخة، وبدأ يعلن عن الديوان ويوزعه على المشتركين وبعض المكتبات والصحف، بل إنه حاول أن يبعث بصيحاته التي ارتفعت في الديوان خارج مصر؛ فأرسل إلى صديقه وزميله الأستاذ محمد لطفي جمعة مائة نسخة، وكان يدرس في قرية شاربونيير إحدى ضواحي مدينة ليون ليوزعها على الطلبة المصريين المقيمين هنالك، ولكن الرقابة حالت دون وصولها وصادرتها الحكومة.

وكان الغاياتي بدار المؤيد- حيث تطبع جريدة العلم – وجاء سليمان فوزي صاحب الكشكول، فأهداه نسخة من الديوان وصحبه إلى الدور الأعلى حيث الشيخ علي يوسف وأهدى إليه هو الآخر نسخة ثانية.

وكان الغاياتي والحزب الوطني يحملان على المؤيد، وكان علي يوسف حانقًا على جماعة الحزب الوطني والغاياتي على الخصوص، فانتهزها فرصة وكتب مقالًا حادًا بعد يومين من تسلمه الديوان أغرى فيه الحكومة بصاحب الديوان وكان بمثابة صحيفة الاتهام التي افتتحت بها القضية[1].

ويذكر في مقدمة مقاله أن الغاياتي قدم له نسخة من ديوانه "وطنيتي" قائلًا له "أقدمه إليك وإن يكن بلهجة حزب لا ترضيك لهجته"، وأنه قابله بحسن القول وعزم على تقريظه كما يستحق أديب مثله يحسن الشعر ويعمل كما يعتقد لإحياء الشعور الوطني.

(١) المؤيد – الاثنين ٤ يوليو ١٩١٠/ جمادى ثانية ١٣٢٧.

ويتابع علي يوسف مقاله وقد أعماه الحقد الشخصي "ففتحت الكتاب وأول ما وقع عليه نظري قول هذا الشاعر المجيد:

يا ليـــت شـــعري هـــل رأيـــت كمـــا أرى ... أن المؤيـــــد معهـــــد الهفـــــوات
فنشـــرت فيـــه مـــا نشـــرت وإنمـــا ... هـــي زلـــة مـــن أكـــبر الـــزلات

"فاستوقفني هذا السباب الموجه إلى المؤيد هنيهة، وقلت لعل حضرة الشيخ أراد أن يوجه لي هذا الكلام مشافهة بتقديم الكتاب....، ولكني رجعت وقلت لعل الزائر لم يقصد هذا وإنما قصد أن أول قراء المؤيد على شيء من آيات وطنية البينات، والبيت الثاني يشير فيه الغاياتي إلى حديث أحمد شوقي الذي نشره المؤيد عن تشككه في أهلية الأمة وكفاءتها لنيل الدستور".

ولم يكن صحيحا أن هذين البيتين هما أول ما وقع عليه نظر الشيخ، لقد تقدمت بين هذين البيتين ثلاث مقدمات تفيض حبًا للوطن واعتزازًا به، وسبقتهما أيضًا ثمان قصائد ومقطوعات كل بيت فيها ينحني للوطن إجلالًا وإكبارًا، ولكنها عين الشيخ علي يوسف الحاقدة والتي اشتراها القصر ليتجسس على الثوار والوطنيين، بعد أن كانت ترى كشاعرنا الاحتلال عبئًا ويجب التخلص منه وترى في القصر تقييدًا للشعب نحو الحرية.

وقد كان لعلي عبد الرازق مواقف مشابهة وسوابق مشهودة؛ فعبد الحليم حلمي المصري ينشر قصيدة في أهرام ١٩١٢/٦/١٢ يقول فيها – وكان بينه وبين شوقي جفاء – :

مـــــال للخصـــــيب يغـــــالي بابـــــن هانئـــــه ... مـــــا أعـــــرف المـــــين إلا في المحـــــاباة

انتهزت المؤيد الفرصة ونشرت في ٦/١٦ كلمة غمزت فيها الأهرام والشاعر، وصرحت بأن المقصود بالخصيب هو الخديوي، وابن هانئ شاعره شوقي، وأبلغت النيابة وأحيل إلى محكمة الجنايات واستعانت المحكمة برأي خبراء الأدب، فقالت اللجنة أن هذه القصيدة طعنة في الأمير ووصفه الشاعر بالحرص والبخل واكتفت النيابة بإنكار الشاعر.

راح علي يوسف بعد أن كتب صحيفة الاتهام وأسباب الدعوى يتابع قوله "فبعد الاستئذان من قانون المطبوعات وبعد الاستفادة من القوانين الجديدة، وبعد الإعلان بأنه لا اتفاق بين المؤيد والشيخ علي الغاياتي، تستعير قلمه وشعره وفكره ساعة من الزمان راح ينتقي الأبيات الأكثر جرأة ويستلفت إليها أنظار النيابة العمومية، وأنه لا يعفيه من تجريح أصحاب المقامات العالية فيورد أعنف ما قاله الغاياتي عن الخديوي:

أعبـــــاس هـــــذا آخـــــر العهـــــد بيننـــــا ... فـــــلا تخـــــش منـــــا بعـــــد ذاك عتـــــابا
أيرضـــــيك فينـــــا أن نكـــــون أذلـــــة ... ننـــــال إذا رمنـــــا الحيـــــاة عقـــــابا
وأرضـــــيت أعـــــداء الـــــبلاد وأهلهـــــا ... وأصـــــليتنا بعـــــد الوفـــــاق عـــــذابا
رويـــــدك يا عبـــــاس لا تبلـــــغ المـــــدى ... ولا تســـــتمع للظـــــالمين خطـــــابا

ثم مهاجمته للوزارة:

ألا أمطـــــر الله الـــــوزارة نقمـــــة ... ولا بلغـــــت ممـــــا تـــــروم مرامـــــا
تحـــــاول أن تقضـــــي علينـــــا بإثمهـــــا ... ولكـــــن ســـــتلقى دون ذلـــــك آثامـــــا

وأورد ما علق عليه الغاياتي على قانون المطبوعات الجديد:

لـــــئن قيـــــدوا مـــــني الـــــيراع وأوثقـــــوا ... لســـــاني فقلـــــبي كمـــــا شـــــئت ينطـــــق
فـــــلا يأمنـــــوا تلـــــك القلـــــوب فإنهـــــا ... دمـــــاء أراهـــــا أوشـــــكت تتـــــدفق

وصدر المؤيد وفيه مقال علي يوسف، وقرأ الشاعر الشاب المقال وكان معه زميله وصديقه الأستاذ حسين بك فتوح فاستعار، قلمه وكان مملوءا بالمداد الأحمر وكتب إلى الشيخ علي يوسف ردًا هائجًا أيضًا فعده هذا فيما بعد تهديدًا دمويًا لأنه مكتوبًا بالمداد الأحمر إيماءً إلى الدم[1].

لقد كان الغاياتي أول من هاجم قانون المطبوعات، وكان أول من هاجم القوانين الجديدة أيضًا، وإذن فمن الطبيعي في نظر الحكومة أن يكون الغاياتي أول من يحاكم بمقتضاها. ولم يكن في الديوان شيء يقع تحت طائلة قانون العقوبات، كما أن أكثر قصائد الديوان سبق نشرها في الصحف، ولكنها غضبة المحتلين وصنائعهم تريد أن تعصف بالحزب الوطني قائده ومفكره وشاعره.

ويصور الغاياتي الدافع الذي دفع الحكومة إلى ذلك بقوله:

إذا كنـــــت (بالتـــــأليف) أصـــــبحت جانيـــــا ... وســـــجني عامـــــا فيـــــه للحـــــر قـــــامع
فمـــــا كـــــان (تقـــــريظ) الكتـــــاب جنايـــــة ... ولكـــــن أعـــــداء الـــــبلاد تخـــــادع
لقـــــد حســـــبوها فرصـــــة فتربصـــــوا ... عســـــى أن تـــــروع الشـــــعب تلـــــك الزعـــــازع

(١) منير الشرق،٧ وما بعده

ويصور الغاياتي فصول التمثيلية –القضائية- التي ستحدث لديوانه بعد أن صرعت جيش الظالمين وكشفت الأقنعة عن التابعين:

فهبـــوا وصـــاحوا صـــيحة بعـــد صـــيحة ... وقـــالوا بـــلاء لا محالـــة واقـــع
فســـيروا إلى (القـــانون) واحتكمـــوا بـــه ... ففيـــه لظلـــم الأبـــرياء مواقـــع
علـــى أننـــا نجـــري القضـــاء بحكمنـــا ... فيمضـــي بمـــا شـــاء الهـــوى وهـــو خاضـــع
وأن قضـــاة النيـــل أصـــبح أمـــرهم ... إلينـــا وكـــل (للوكالـــة) راكـــع

وبدأ رجال الحكومة البحث في الديوان وصاحبه، وبدأ البوليس يتحرى عن المطبعة والمكاتب المودع فيها الديوان، وأحس الغاياتي أن الحكومة لن تتركه، وشعر جاويش أن الديوان في طريقه إلى المصادرة، وأن الغاياتي في طريقه إلى الاعتقال، فطلب من الغاياتي السفر إلى فرنسا لكي ينضم إلى البعثة الأزهرية بين الذين أوفدهم الحزب الوطني لاستكمال ثقافتهم العالية، وتعلل الغاياتي بأن حصيلته من اللغة الفرنسية ضئيلة للغاية ولا تسمح له بالإقامة هناك.

فعرض عليه جاويش أن يتوجه إلى تركيا ليتولى رئاسة تحرير الجريدة العربية –لدار الخلافة- وكان صاحبها من طرابلس الغرب ويدعى عبد الوهاب عبد الصمد، وكان كثيرًا ما يتردد على دار اللواء، وأمر جاويش مدير إدارة الجريدة إسماعيل بك حافظ بصرف مرتب شهرين له، وعهد الغاياتي إلى زميله في تحرير (العلم) أحمد رفعت أن يحصل على تذاكر السفر من إحدى البواخر الرومانية التي تقلع من الإسكندرية، وكانت تغادر الميناء يوم الجمعة.

وقبل موعد السفر بثلاثة أيام أي في يوم الثلاثاء ٧/٥ توجه إلى دار صديقه حسين فتوح، الذي يروى عنه تفاصيل هذه الرحلة، وأخبر الشيخ صديقه بعزمه على السفر إلى دمياط لتوديع والديه وأخيه ومعارفه على أن يعود إلى القاهرة يوم الخميس، ليشخص منها إلى الإسكندرية صباح الجمعة حيث يركب الباخرة، ورجاه أن يذهب معه لشراء حزام وطربوش للعمامة وشيلان، ورغم أن صديقه أفهمه أنه لا يستطيع ارتداء هذه الملابس في الآستانة بسبب كثرة المطر والبرد، إلا أن الغاياتي أصر على ارتدائها ولو لأول مرة في قدومه إلى الآستانة. واشتريا ما أراد ولما كانت هذه الأشياء تحتاج إلى إعداد خاص من (حبك وفتل وكي) تعهد صديقه أن يتسلمها قبل عودته من السفر.

وفي طريقهما للعودة وعند تقاطع شارع محمد علي بميدان العتبة قابلهما أحد سعاة العلم، وأخبرهما أن البوليس داهم منذ دقائق إدارة الجريدة وفتش مكتب الشيخ جاويش، وأخذ من الشيخ نفسه مظروفًا كان معتادًا حمله دائمًا، ثم فتش مكتب الغاياتي وانصرف وهو يسأله عنه وعن مكان سكنه، واقترح حسين فتوح على صديقه العدول عن السفر إلى دمياط وأن يسافر فورًا إلى الإسكندرية، فتعلل الغاياتي بقلة النقود وشوقه إلى توديع ذويه

وموطنه العزيز، لكن حسين فتوح يقنعه أن الجنيهات العشر التي حصل عليها من الجريدة تكفي لوصوله إلى الآستانة، وأنه سيوافيه بما يريد حالمًا يصل إليها.

وتوجها إلى المنزل وجمعا بعض الملابس وبعض الكتب حتى (مختار الصحاح)، والغاياتي يجمع كل شيء وصديقه يستحثه على الإسراع خوفا من مداهمة البوليس، وأحضر صديقه عربة دون أن يخبر السائق بالاتجاه، وما كاد يصل إلى البيت حتى التقى بعربة أخرى تبين فيها مأمور قسم عابدين وبجانب الحوذي كان يركب شيخ الحارة، فترك عربته تواصل سيرها ولم يمنع هذا المأمور من النظر فيها، ثم دون رقم المنزل وتابع سيره. وأوقف حسين فتوح عربته في شارع جانبي وترك الحوذي في انتظاره، وطلب من الغاياتي أن يسبقه إلى العربة.

وفي فناء الدار كانت صاحبة الدار جالسة فأخبرها كما أوصاه صديقه بأنه مسافر إلى دمياط، ورجاها أن تلاحظ مسكنه لحين عودته، وبعد ربع ساعة لحقه حسين فتوح حاملًا حقيبة وصرة، ووصلت العربة إلى المحطة، وصرف تذكرة مقابلة أخذها الغاياتي –مبالغة في الحيطة-، وتوجه للقطار، بينما ذهب حسين فتوح ليصرف تذكرة سفر، فيلتقي بالشيخ إبراهيم الدباغ الشاعر فيعود ليطلب من الغاياتي كتمان خبر سفره، وإذا سأله فليخبره بأنه يودعه هو ثم يلتقي الدباغ بالغاياتي ويرافقه إلى القطار، حتى إذا أطل من نافذته غادر الدباغ الرصيف، وأقبل حسين فتوح ولمح بداخل العربة ضابطًا تركيًا، فأومأ إلى الغاياتي أن يجلس بجانبه عله يستفيد منه بعض المعلومات عن السفر، خاصة وأنه لا يحمل جواز سفر.

وتحرك القطار ولوح الغاياتي لصديقه وابن بلده مودعا... والتفت الغاياتي إلى مرافقه الضابط التركي، ولم يكن كلاهما يعرف لغة الآخر تمامًا واستطاع الغاياتي أن يشرح لمرافقه -وكان يدعى أحمد جمال الدين- سبب فراره إلى تركيا وبكلمات متعثرة وانفعالات شتى ظهرت على وجهه بل واستعان بيده في محاولة إفهامه، فسر له باختصار قصة وطنيتي وأن ذلك لم يرض الإنجليز ولا الحكومة.

وفجأة صمت الغاياتي وطافت على شفتيه ظلال ابتسامة، لقد كان مرافقه في واد آخر فلم يعلق على كلامه، وإنما راح يسرد عليه ما لاقاه في رحلة الصيد بالسودان وأن معه بعض النسانيس التي جلبها من هناك، ولكنه فهم على كل حال أن مرافقه المصري يقصد دار السعادة مثله، فأشار عليه أن يرافقه في جميع مراحل السفر.

وتشاغل الغاياتي حينًا عن مرافقه وأطل من نافذة القطار، وأخذ يملأ عينيه بمناظر الريف المصري الذي سيحرم منه ويملأ رئتيه بهواء مصر، وساءل نفسه ترى كم سيطول الغياب وهل بعد الغياب إياب، وينطلق فكره المهموم فيفكر في أمه التي تنتظر عودته، وأبيه الذي ينتظر أوبته، وأخيه الأصغر عبد الرحمن الذي يدرس في جامع

المتبولي ذلك الجامع العتيد الذي تلقى فيه الغاياتي أوائل علومه ودراسته وحفظ فيه القرآن وجوَّده وسجد في كل زاوية منه وركن.

ومع دقات عجلات القطار الرتيبة يفيق الغاياتي لحظات ليحادث رفيقه بكلمات متعثرة ثم يدير وجهه مخفيًا دمعة ظلت تتأرجح في عينيه لحظات، هل هو مهاجر حقًا؟، هل سيغادر القاهرة التي ظل يحلم بها طوال سني دراسته؟، بل هل يغادر مصر العزيزة التي غنى لها وأنشد وانحنى وسجد في ربوعها لله، هل سيحرم حقًا من إطلاق مشاعره الفياضة بحب مصر على صفحات الجرائد نثرًا ثائرًا وشعرًا أكثر ثورة؟، وبينما كان يجلس مطلًا من نافذة القطار كان رجال البوليس يجدون في البحث عنه وقد توجهوا إلى مسكنه فحطموا الباب وفتشوا في أوراقه ومتاعه البسيط الذي خلفه وراءه، ويصور الغاياتي هذا المشهد في قصيدته (هجرتي بعد وطنيتي):

ولما أرادوني وأقبل جيشهم ... إلى الدار يغتال الخطى ويتابع
رأى الدار لا تدري إلى أين وجهها ... تولى ولا تدري متى هو راجع
وقد صمتت والوجد في صفحاتها ... يسطر ما تملي عليه المضاجع
مضاجع كانت للكرى في عشية ... وللسهد في ليل جفته المطالع
فماذا رأى العادون في داري التي ... أحن إليها كلما لاح لامع؟
لقد أبصروا الأقلام والكتب بينها ... فياليتها إذ أبصروا مدافع
إذن كانت الأرواح عند لقائها ... تغادر هامات لها البغي دافع

وتطأ قدم الغاياتي أرض الإسكندرية لأول مرة، ويصر مرافقه على أن ينزلا بفندق يواجه قسم بوليس اللبان لأن صاحبه مسلم، وأخفى الغاياتي ارتباكه ومخاوفه ثم نزل معه إلى المقهى بأسفل الفندق. وفي اليوم التالي طلب مرافقه منه أن يصحبه إلى المحافظة ليسأل عن شاب تركي فر من أبيه، وكان قد أودعه السجن لحين عودته من رحلته في السودان، فاعتذر الغاياتي برفق، وخرج مرافقه بمفرده وتبعه الغاياتي في محاولة منه للتعرف على المدينة ومعالمها. ولكنه ما كاد يخطو بضع خطوات حتى لمح مأمور الضبط ورئيس الجواسيس جورج فيليبدس، وقد أتى من القاهرة للبحث عنه.

وكاد قلب الغاياتي ينخلع ومرت فتاة ترتدي الملابس الإفرنجية أمامه فانتهزها فرصة وأسرع السير ودخل في أول محل للحلاقة، حيث قص شعره وقصر شاربه كخطوة أولى في عملية التنكر التي سيقوم بها، خاصة وقد شعر بعيون رجال البوليس تبحث عنه وبأيديهم صورته. ولم تكن قصة تنكر عبد الله النديم لتغيب عن بال الغاياتي. وذكره ذلك التنكر الذي أتاح لخطيب الثورة العرابية أن يفر من قبضة الحكومة تسع سنوات كاملات وهو يعيش

تحت سمعها وبصرها. واشترى نظارة سوداء ومظلة سوداء وطربوشًا احمر وملابس إفرنجية وارتدى فوقها جبة رمادية بعد أن أصلحها.

وحين عاد مرافقه التركي بصحبة الفتى الهارب دهش وسأل الغاياتي "ما هذا شيخ أفندي؟" ولم يقل الغاياتي أن ذلك استخفاء من البوليس بل تعلل بأن هذا اللباس أخف وأدعى إلى النشاط في السفر.

وحان وقت الرحيل فسار على يمين مرافقه الذي بدا أكثر منه طولًا وضخامة، وكانت الجنود تحييه باحترام، كما كانت عيون البوليس تبحث عن الغاياتي أو تبحث على الأصح عن عمامته التي تبدو واضحة في الصور التي يحملونها. وقد صور في قصيدته (هجرتي بعد وطنيتي) هذه المشاهد وهو يتحدث عن رجال الحكومة الذين كانوا يجدون في البحث عنه:

ورب رئـــيس مـــن رؤســـهمو مضـــى ... معـــي في ســـبيل وهـــو بالأمـــر صـــادع
ودانيتـــه حـــتى وطـــأت خيالـــه ... ولكنـــه عـــني بـــذكرى قـــانع
فخلفـــت ذكـــرى في يديـــه وجزتـــه ... وبـــدلت عـــن زيـــي بـــزي يضـــارع

وعلى بعد خطوات من الميناء أعاد الغاياتي تذكير مرافقه بأنه لا يحمل جواز سفر وأن اسمه محمود أفندي صالح، فلما وقف أمام الموظف المختص حادثه بالتركية وأشار الموظف إلى الغاياتي الذي تصبب جبينه عرقًا وارتباكًا، فأجاب الضابط التركي بلا تردد أن اسمه محمود أفندي صالح. وكادت تفلت من الغاياتي ابتسامة عريضة رغم الموقف العصيب الذي يمر به، واحتفظ الغاياتي باسمه الجديد إلى آخر الرحلة.

وحين استقر الغاياتي على ظهر الباخرة "عثمانية" الإنجليزية التابعة لشركة البوستة الخديوية، حاول أن يتوارى بعيدًا عن الأنظار حتى يبتعد عن الشاطئ، لكن رفيقه أبى إلا أن يمتع الطرف بمناظر الثغر. وألقى الغاياتي نظرة أخيرة على الإسكندرية فغلبه الأسى والبكاء. وأطلقت الباخرة صفارتها عالية وبدأت تترك الميناء في تمام الخامسة والنصف من مساء الأربعاء ٦ يوليو ١٩١٠م، وارتفعت عشرات الأذرع على رصيف الميناء مودعة لتعود تمسح دمعة فراق. واستند الغاياتي الذي لم يأت أحد ليودعه على حاجز الباخرة ورفع يده يودع وطنه العزيز الذي هاجر من أجله فرارًا بعقيدته الوطنية الخالصة وأنشد:

وعنـــد فـــراق الثغـــر أســـبلت دمعـــة ... ورب فـــــراق أنكرتـــــه المـــــدامع
لـــئن كـــان غـــيري قـــد عصـــته دموعـــه ... فـــإن عصـــى الـــدمع عنـــدي طـــائع

وظل يرنو إلى الأفق وينقله بين الأرض والسماء مفكرا في أمه التي وهبته الحياة وأمه الكبرى مصر، وفي أبيه الذي حرم رؤيته، وفي أخيه، وفي النيل الذي غنى له وهام به. وكلما ابتعدت الباخرة وغابت المعالم رويدا رويدا ردد قول الشريف الرضي:

وتلفتـــــت عيـــــني فمـــــذ خفيـــــت عنهـــــا الطلـــــول تلفـــــت القلـــــب

وغادر الغاياتي مصر التي مازج حبها روحه، وإن بقى فؤاده متعلقًا بها. وسارت الباخرة باسم الله مجريها ومرساها، وكانت هذه المرة الأولى التي يركب فيها الغاياتي ظهر الخضم بالرغم من نشأته الساحلية. ومرت الباخرة ببيزا ثم أزمير. ثم تابعت رحلتها فمرت بمدللي فجناق قلعة (مضيق الدردنيل)، حتى وصلت الآستانة في الساعة الثانية ظهر الاثنين ١١ يوليو. وقبيل مغادرة الباخرة عاد الغاياتي يذكر صاحبه أنه لا يحمل جواز سفر فرافقه وأنزله بفندق الإسكندرية، ولعله وجد في اسمه ما يدخل بعض العزاء إلى نفسه.

وتركه مرافقه ولم تنقطع زيارته له بعد ذلك إذ كان يزوره بجريدة دار الخلافة، كما زاره الغاياتي مع بعض الطلبة المصريين، والطريف أن الغاياتي في زيارة الضابط الأولى له حاول أن يذكره بأن اسمه علي الغاياتي كما هو مكتوب في رأس الجريدة، فهز الضابط رأسه موافقًا ولكن عند انصرافه حياه قائلا "سلام عليكم محمود أفندي صالح". وقد حرص الغاياتي على تسجيل صورته بملابسه التنكرية، ثم لبس لباس الشيوخ جاعلًا عمامته بالطربوش العزيزي أسوة بشيوخ الترك.

*****

في الآستانة

وصل الغاياتي دار السعادة وهو يردد مخاطبًا إياها:

إنا كرهنـــــــا العـــــــيش في أوطاننـــــــا ومضـــــى بنـــــا وجـــــد إليـــــك مســـــير

وليس أشد إيلامًا للنفس من النزوح عن الأوطان، وليس أمضى من الفرار بالعقيدة، والمصريون كما يقول الإمام حسن البنا "لا يعرفون معنى المهاجرة من دار إلى دار ولا يمكن أن يتصوروا ذلك ما دام في أرضهم نبات ينبت، فإذا امحلت أرضهم فضلوا الموت فيها على المهاجرة منها"[١]. ذلك أن اتصالنا المستمر بالأرض "ولد في نفوسنا ألفة شديدة وعميقة لها فنحن نبغض الهجرة أشد البغض"[٢].

لكن الغاياتي خرج من مصر مهاجرًا غير آسف على مصر الحبيبة بربوعها وأرضها ونيلها وناسها، لقد قال الغايات في مقدمة ديوانه "فلئن حييت لأنصرن مبادئ الحزب الوطني نصرا ولأطلعن من دياجي الخطوب من حياتي فجرا"[٣]، ومن قال أني شمعة فليحترق، لقد اختار الطريق الصعب الوعر، وحسب الإنسان أن يتصور شابًا أزهريًا معممًا لم يبلغ بعد الخامسة والعشرين يهاجر إلى أرض غريبة اللغة والدين والعادات دون مال أو جاه أو سند.

وقد تحامل عليه البعض فاتهموه بالجبن والانهزامية، ولم يكن الغاياتي جبانًا أو انهزاميًا فما كان سجنه عامًا ليجعله ينهار، لقد ظل سبعة وعشرين عامًا بعيدًا عن الوطن منفيًا لم تستحل فيها قامته برغم ما لاقاه، بل ظل رمحًا مشرعًا في وجه الاحتلال وأعداء البلاد. كما أن التعريف بمصر وقضيتها في الخارج كان عملًا وطنيًا شرع له مصطفى كامل وبدأه الغاياتي ثم جاويش وفريد.

ولو طبقنا هذا المفهوم الخاطئ المعنى للهجرة على بطل كالنديم لكانت أشد وأعظم؛ إذ أنه قضى سني اختفائه في الظلام بعيدًا عن الأنظار، أما الغاياتي فراح يعمل على إعلاء شأن مصر في قلب القلعة الأوروبية الاستعمارية. ولم تكن هجرته لهذا فرارًا من أرض المعركة أو هروبًا من الميدان ناجيًا بنفسه، وإنما كانت هجرته انتقالًا من بلد جثم فيه الاستعمار إلى وطن يجد فيه لقلمه متسعًا ولثورته متنفسًا.

ويصور لنا الغاياتي أسباب الهجرة ودوافعها يرد بذلك على الذين ألصقوا به تهمة الهروب ووسموه بالجبن:

---

(١) محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ٣٦٦/٢.

(٢) نعمات أحمد فؤاد، أدب المازني، مكتبة الخانجي بمصر ومطبعة دار الهنا، القاهرة، ١٩٥٤، ص ١٦.

(٣) وطنيتي.

وما (هجرتي) من مصر هجرة هاجر ... لها أو جبان روعته الروائع
ولكنها والشعب يشهد هجرة ... لها أثر بين المحامد شائع
فتحت بها حصنا فمن شاء أمه ... وبات به يرمي العدا وهو بارع
وما كنت بدعا في الرجال وإنما ... أسير إلى منهاجهم وأسارع
فكم هب من بين الشعوب مهاجر ... له همة تردي الردى إذ تصارع
وإن رسول الله والهه حسبه ... بحسبي من بين الورى وهو شارع
على أن لي يوما قصيرا أصونه ... ليوم طويل شيبته الوقائع
وإن دان غيري للسجون فإنني ... لها العصي والجهاد شرائع
ولا أرتضي في مصر سجن مجاهد ... إذا لم يكن فيه لمصر منافع
ولو أن سجني لقومي حاجة ... لما روعتني في رجاه القطائع
ولكنه سجن على غير حاجة ... وبين الغد المأمول واليوم قاطع

ولم تكن هجرته هجرة مادية فقط بل كانت أيضًا هجرة معنوية من التردد إلى الثبات ومن الضعف إلى القوة، فبدا قلمه أكثر صلابة وأشد مضاء وظهرت كلماته أكثر ثورة وأشد لهيبًا.

وغداة وصول الغاياتي إلى الآستانة قابله مراسل المقطم إبراهيم سليمان النجار الذي أخبره أن الحكومة هائجة بسبب اختفائه وأن رجالها يبحثون عنه من دمياط إلى مرسيليا.

وشدوا رحال البحث عني وأرسلوا ... عيونهم في كل وجه تطالع
ففي ثغر دمياط رعى الله أرضها ... بكل طريق منهم قام قاطع
وفي كل ثغر وفي كل بلدة ... عيون وأسماع عليّ تنازع

وأبرق المراسل إلى جريدته بالخبر فنشرته وأذاعته، وازدادت الحكومة حنقًا وغضبًا، واطمأن المحبون والأصدقاء، وارتفع اسم الغاياتي في صفوف الوطنيين، وارتفع ثمن النسخة من الديوان من خمسة قروش حتى بلغت جنيهًا. بل إن قراءتها وإعادتها لصاحبها كانت تكلف القارئ نصف الجنيه.

ومنذ اليوم الأول الذي وطأت فيه قدم الغاياتي أرض تركيا تولى رئاسة تحرير جريدة "دار الخلافة الأسبوعية"، وكان يوقع بالحروف الأولى من اسمه "الشيخ ع.غ". ثم لم يلبث أن نشر الاسم بحروفه كلها.

وزادت الهجرة قلم الغاياتي ثورة وحدة زودًا عن الوطن القابع تحت حراب الإنجليز والمقرور في قبضة القصر، وكان أخطر ما كتبه قصيدة بعنوان "مصر ودار السعادة" ملأت الصفحة الأولى من الجريدة بتاريخ ٩ رمضان ١٣٢٨هـ ومطلعها:

دار السعادة هل أتاك مخبر ... يشكو إليك شقاء مصر ويخبر
النيل من حمر المدافع فائض ... والوجد في أحشائه يستعر

ويحمل فيها على الذين باعوا الوطن ويسخر من الخديوي الذي أصبح "يخشى لقاء النازلات ويحذر" ثم يصيح في وجه المصريين داعيًا إلى ثورة السيف والدم:

يا أهل مصر قفوا وصيحوا صيحة ... دوّى لها جو البلاد الأغبر
واقضوا بحق السيف حقا ناله ... من مصر ذاك الطامع المستعمر
إن امتشاق السيف أبلغ حجة ... من صولة القلم الضعيف وأقدر
والشعب ليس بمدرك آماله ... ما لم يصل ذاك الحسام الأحمر
إن الدماء إذا غلت أسعارها ... في أمة هبط البلاء الأكبر

وبعد أسبوعين من نشر القصيدة تصدر الحكومة المصرية أمرًا بمنع دخول جريدة دار الخلافة إلى مصر، وأخذ الغاياتي يكتب بحروف من نار ونور نثرًا وشعرًا مدافعًا عن الحرية مؤيدًا للأحرار، ومطالبًا بحق الفرد والجماعة من الطغاة والظالمين، داعيًا إلى ديمقراطية الحكم هازئًا بالحكام المستبدين. ففي مقال له بدار الخلافة بتاريخ ٢٦-٩-١٩١٠م تحت عنوان "الأمير المسلم في الإسلام":

".... وإنني لا أعجب من شيء عجبي من حثالة الأمراء المطلقين في الإسلام، الذين لا يزالون يشاركون البهائم في أدوار حياتها وليس لهم حظ في الوجود غير الاختلاف إلى المطعم حينًا وإلى المرحاض حينًا آخر".

وظلت مصر هي شغله الشاغل كما كانت هناك يشهر قلمه من أجلها:

ومن غدت الأقلام في كفه ظبى ... فمن جنده تغدو القنا والقواطع
يريد الأعادي من يراعي مودة ... وما رده إلا الجفا والتقاطع

ويذكر صديقه الورداني...

فمن لي بسيف لا تفل شياته ... ومن لي (بإبراهيم) وهو يضارع

وكثيرًا ما قضى الغاياتي ليله ساهرًا حانيًا على قلمه كما كان في مصر فيذكر مسكنه المتواضع في القاهرة وأشياءه وكتبه ومضجعه:

مضـــــاجع كانـــــت للكـــــرى في عشـــــية وللســـــهد في ليـــــل جفتـــــه المطـــــالع
وكـــــم كنـــــت أفضـــــي للظـــــلام بلـــــوعتي وأوقـــــظ فيـــــه الشـــــعر والحـــــي هـــــاجع
وأذكـــــر في بـــــيض الصـــــحائف أمـــــتي وأحنـــــو علـــــى مصـــــر ودمعـــــي هـــــامع

ويهزه الشوق إلى مصر والنيل والأهرام ودمياط وتفر دموعه من عينيه:

ومـــــن كـــــان ذا هـــــم وشـــــوق وغربـــــة أقـــــام حليـــــف الوجـــــد والطـــــرف دامـــــع

ولم يقصر الغاياتي قلمه عن الدفاع عن مصر وحدها، بل دافع عن الإسلام ودعا إلى إنهاضه من عثرته:

أدركـــــوا الإســـــلام في دولتـــــه هتـــــك العـــــادون مـــــن حرمتـــــه

وينحي باللائمة على المسلمين أنفسهم:

ولعمـــــري نحـــــن أســـــباب الـــــردى فلنـــــذق مـــــا مـــــر مـــــن صـــــدمته

وكان يأمل أن تتحد كلمة المسلمين وأن تهب الشعوب العربية والإسلامية إلى مناصرة الشعوب المستضعفة، ويتطلع إلى خطوة جريئة تخطوها تركيا لتخليص مصر من قبضة الإنجليز.

وقد وردت إلى الغاياتي أنباء قضية وطنيتي حيث عقدت بمحكمة الجنايات جلسة في ٩ أغسطس ١٩١٠م، وكان يرأس المحكمة محمد مجدي وعضوية علي ذو الفقار والمسيو سودان. وكان في كرسي النيابة محمد توفيق نسيم، وكان عبد الخالق ثروت نائبًا عامًا. وصدر الحكم بحبس الغاياتي سنة مع التشغيل، وبحبس جاويش ثلاثة أشهر، وحبس كل من الشيخ القزويني (الموزع) وإلياس دياب (صاحب مكتبة التأليف) شهرين مع إيقاف التنفيذ.

أما محمد فريد فقد تأخرت محاكمته لحين عودته من أوروبا، وكان فريد قد سافر ليشارك في مؤتمر بروكسل، ووصل الآستانة في ١٧ نوفمبر ١٩١٠م، وأقام بها ثلاثة أسابيع قابل خلالها الغاياتي. وكانت أولى المقابلات في قهوة (توقتليان) وكان يصحب فريدًا (عزت شكري)، ودار الحديث عن القضية. وعرض الغاياتي على فريد أن يعود لمصر

إذا كان في عودته فائدة له فأبى، وأضاف عزت شكري أن عودة الغاياتي لا تخلص فريدًا من المحاكمة وإنما تزيد عدد المسجونين واحدًا[1].

وكان الغاياتي في هذه الفترة ينظم قصيدته "هجرتي بعد وطنيتي" التي بلغت ٨١ بيتًا فأسمعه إياها، ولم يكن قد ذكر فيها اسمه حرصًا عيه قبل نظر القضية، فلم يبال فريد بذلك وأشار عليه بذكره فيها، وقد نشرت هذه القصيدة في مجلة "صراط مستقيم" التركية يقول في ختامها:

ولست أرى سجن الكرام مهانة ... ولكنه للمجد والحمد جامع
فإن سجنوا (عبد العزيز) فإنه ... له بين حبات القلوب مرابع
فما لهو والغيظ يفري قلوبهم ... (جنيت) فزاموه بما أنا واضع
ورامو (فريدا) مثله وترقبوا ... لقد وفى هذا القاء مصارع
إذا كنت بالتأليف أصبحت جانيا ... وسجني عاما فيه للحر قامع
فما كان (تقريظ) الكتاب جناية ... ولكن أعداء البلاد تخادع
لقد حسبوها فرصة فتربصوا ... عسى أن تروع الشعب تلك الزعازع
وما الشعب إلا صارم جاد صقله ... وكل سيجني منه ما هو زارع

وصدر الحكم على فريد يوم ٢٣ يناير١٩١١م بحبسه ستة أشهر مكافأة له على رفعه صوت مصر في أوروبا، وقد حاول أحد محامي الحزب التفكير في وسيلة لتخليص فريد من القصاص فأتوا بتبريرات كثيرة، منها هذا التبرير الذي يذكره الرافعي في كتابه عن محمد فريد "من الثابت أن الزعيم كان قد كتب مقدمته دون أن يطلع على الكتاب، وقبل أن يتم الأستاذ الغاياتي وضعه وسلمها إليه في فبراير ١٩١٠م، أي قبل إعداد الكتاب للطبع، ثم سافر إلى أوروبا في مايو وظهر الكتاب في يونيو"[2].

وكان مثل هذا القول تبريرًا فحسب ذلك؛ أن فريدًا كان يعلم محتويات الديوان، فالقصائد التي ضمها الغاياتي إلى ديوانه اطلع عليها محمد فريد حيث كانت تنشر في اللواء ثم العلم، هذا بالإضافة إلى أن هذه المقدمة كانت في الشعر الوطني كسلاح من أسلحة المقاومة.

(١) منبر الشرق، عدد ٧٠٤.

(٢) عبد الرحمن الرافعي، شعراء الوطنية: تراجمهم، وشعرهم الوطني، والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، د.ت، ص ٢٥.

ولم يمكث الغاياتي بفندق الإسكندرية كثيرًا، بل سرعان ما انتقل إلى منزل الطلبة المصريين في حيدر باشا على البسفور عند أسرة أرمينية. وتوطدت بينه وبين الطلبة أواصر الصداقة والإخاء. ويذكر لنا الغاياتي أنه تظاهر معهم أمام موكب السلطان محمد الخامس بعد صلاة الجمعة، فتهلل وجه السلطان لهتافهم بالعربية.

وكان الغاياتي يقضي أوقات فراغه على مقهى اسمه (كافيه مسرّت)، وقد قابل كثيرين من رجالات العرب والإسلام أمثال عزيز المصري وعبد الحميد الزهراوي ومحمد رشيد رضا والدكتور محمود عزمي. وقد أعجب الغاياتي كثيرًا بمساجد الآستانة وضواحيها ونظافة أهلها وأدبهم الجم.

بعد صدور الحكم على الغاياتي بدأ في بعض الجهات الخديوية والإنجليزية اهتمام خاص بأمر الغاياتي، لم يستبعد معه أن تطالب يومًا الحكومة العثمانية بتسليمه. وقد قام الأستاذ عبد الوهاب عبد الصمد صاحب الجريدة بسؤال وزير الداخلية طلعت بك في ذلك، فأجاب بأنه ليس هناك طلب رسمي، ولكن لو حدث ذلك فسنعطيه مهلة لتقرير أمره والسفر إلى مكان آخر.

وبدأ الغاياتي الإعداد للرحيل فدرس اللغة الفرنسية على شاب يهودي، بالإضافة إلى بعض الدروس التي كان قد تلقاها في المدرسة الإعدادية التي أنشأها الحزب الوطني، كما كان يتمرن على قراءة اللافتات وأسماء المحال العامة المكتوبة باللغة الفرنسية، وينصت لبعض الكلمات الفرنسية التي يرددها رواد مقهى (كافيه مسرّت).

وقد اختار الغاياتي جنيف بسويسرا مهجرًا له، ويذكر في تعليل اختياره لها أنها قريبة من مدينة لوزان التي تخرج فيها صديقه الورداني.

غادر الغاياتي محطة (السركجي) على قطار الشرق في مساء الثلاثاء ٢٧ ذي القعدة ١٢٢٨هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٩١٠م، فوصل إلى فيينا عاصمة النمسا بعد يومين، وبقي بها يومًا وليلة. ثم واصل السفر مارًا ببلغاريا والصرب وبودابست وأخيرًا زيورخ، حيث استقل منها القطار إلى جنيف. وقد استبدل القبعة بالعمامة بعد مغادرته بلغراد ولبس بعض الملابس الإفرنجية بطريقة تبعث على الضحك، وقد صحبه في هذه الرحلة طالب مصري اسمه سيد لطفي لم يقم في سويسرا طويلًا وعاد إلى مصر.

*****

في جنيف

وكان في استقبال الغاياتي لدى وصوله بمحطة جنيف مساء السبت ٣ ديسمبر ١٩١٠ الدكتور خليل مدكور الذي كان أخيرًا مدرسًا للغة الفرنسية بالأزهر وكان وقتها يدرس بسويسرا، وقضى الغاياتي ليلته الأولى في جنيف في غرفة أحد البنسيونات المتواضعة بشارع جورج نافو، وفي اليوم التالي انتقل إلى بنسيون آخر أكثر تواضعًا تملكه عجوز عرجاء شمطاء تتقاضى تسعين فرنكًا في الشهر، وقبِل النزول فيه بعد أن لم يجد محلًا يرضى بأقل من هذا المبلغ، وكانت هذه العجوز كأكثر النساء أمثالها كثيرة الكلام كثيرة الاهتمام بشئون الناس قليلة العناية بعملائها وأكثرهم من الطلاب الأجانب الذين وفدوا من روسيا وبولندا، ولذا ارتفعت أصواتهم بالشكوى من قلة الطعام ورداءته وبرودة الغرف.

وقد أراد بعد وصوله جنيف بأيام أن يسجل صورته بملابس الشيوخ، وكان الجو شديد البرودة فلبس ملابسه ولف حول عنقه شالًا وأثناء الطريق كان الصبية يتصايحون ويشيرون إليه بأيديهم كلما مر جماعة منهم فيحييهم مبتسمًا دون أن يدري سبب صياحهم، وقد علم فيما بعد أن هذا اليوم هو أحد أعياد جنيف ويطلق عليه عيد التسلق، وفيه تقام حفلات التنكر، وقد ظن الصبية أن ملابسه تنكرية لا حقيقية.

وقد مرت على الغاياتي أيام شديدة السوء قبل استقراره كاد يستعد فيها للعودة إلى مصر ودخول السجن؛ فقد ضاقت أمامه سبل العيش وكان البرد شديدًا، ولم تكن العجوز صاحبة الدار لتدفئ الغرف في أكثر الأحيان. وكان إذا اشتكى لها البرد ردت عليه بقولها عليك بدخول الفرش والنوم لتدفأ. ثم اضطر إلى مغادرة هذا الفندق لينام في بيت آخر، ويتناول الطعام في البنسيون الذي قضى فيه ليلته الأولى.

وكان أهم ما يشغل بال الغاياتي حينذاك هو الاستقرار، ولا يكون ذلك إلا إذا تيسرت سبل العيش، واستطاع بجهد أن يحصل على ما يسد الرمق، فبدأ في إعطاء دروس في اللغة العربية بمدرسة برلتس بإذن من إدارة المعارف بمقاطعة جنيف. وكانت المدرسة تتقاضى ثمانية فرنكات على الساعة الواحدة تأخذ منها اثنين وتدفع الباقي للغاياتي، ولم يجد أثرًا للطلبة المصريين الذين حدثه عنهم محمد فريد أثناء التقائه به في الآستانة. ثم ألقى دروسا في معهد لانس بضواحي جنيف وهو المعهد الذي درس فيه الخديوي عباس حلمي من قبل. وكان تلاميذه في هذا المعهد ستة: ثلاثة من مراكش من عائلة محمد المقري رئيس وزراء مراكش الأسبق، والثلاثة الآخرون من مصر هم: نجلا الخديوي عباس (عبد المنعم وعبد القادر)، ونجل الأستاذ أحمد شفيق باشا.

وكان يبلغ مجموع ما يحصل عليه من هذا المعهد نحو مائتي فرنك، وكان الحزب الوطني قد بدأ يرسل له مبلغ ثلاثة جنيهات شهريًا مقابل مراسلته لجريدة العلم. ولكن ذلك لم يدم أكثر من شهرين فقد حدث تغير فجائي؛ ذلك

أن محاميًا من رجال الحزب رأى أن خير وسيلة لتخليص فريد من القصاص هي أن يزعم أن وطنيتي وصاحبه دسيسة من صاحب المؤيد للإيقاع بالحزب ورئيسه وشيخه.

ولم يجد هذا الرأي صدى كبيرًا بين العارفين بالحقائق وإن وجد بعض الآذان الصاغية، مما دعا الغاياتي إلى الرد عليهم في الصحف المصرية وإشارته إلى عرضه على محمد فريد أن يعود معه إلى مصر ورفض الأخير ذلك. وقطع المرتب البسيط عن الغاياتي وبدأت العلاقات بين الغاياتي ورجال الحزب الوطني تفتر فيما عدا بعض المحبين أمثال عبد الرحمن الرافعي وأخيه أمين.

كانت أكبر أماني الغاياتي حين وصل إلى جنيف أن يتقن الفرنسية ليتسنى له الالتحاق بالجامعة والكتابة في الصحف لمواصلة رسالته التي هاجر من أجلها، وقد سبق أن ذكرنا أنه ألم بعض الإلمام بالفرنسية في المدرسة الإعدادية التي أنشأها الحزب الوطني في بولاق، ثم ألم بها إلمامًا قليلًا حين درس على شاب يهودي بالآستانة. فلما وصل جنيف بدأ يواصل دراسته فيها على معلمة في سن التقاعد، ثم على معلمة جامعية شابة. ولما كان في أول عهده بجنيف وكان يعوزه المال فقد فضل متابعة دروسه عن طريق المحادثة سيرًا على الأقدام مع إحدى الآنسات، حيث يتحادثان فيما يقع عليه البصر في الطريق وفيما يعن لهما من موضوعات.

فلما ألم الغاياتي باللغة تقدم بطلب للالتحاق بالجامعة على اعتبار أنه من طلاب العلم في جامع البحر بدمياط -وهو معهد تابع للأزهر- والأزهر من أعرق الجامعات المعترف بها، وتم تسجيل اسمه في كلية العلوم الاجتماعية يوم الخميس ١٩ محرم ١٣٢٩هـ/ ١٩يناير ١٩١١م.

واختلف الغاياتي إلى المحاضرات رغم انشغاله بمطالب الحياة، وتوطدت صلته بكثير من الطلاب والأساتذة، ولعل أبرزهم وأكثرهم تأثيرًا في نفسه العالم الفرنسي إدوارد مونتيه الذي عرف بدراساته الإسلامية المنصفة. وقد استمر الغاياتي في الجامعة ثلاث سنين أتم فيها البرنامج المقرر وزاد عليه ولكنه لم يتقدم لأي امتحان لأنه لم يستطع القيام بالالتزامات المالية، حيث كان قد تزوج وأنجب، بالإضافة إلى اشتعال نيران الحرب العالمية الأولى مما أدى إلى سفر معظم الطلاب إلى ديارهم. فاتجه إلى الصحافة والعمل الصحفي وقد بدأ الغاياتي –وبمعنى أدق واصل- عمله الصحفي في جنيف في الصحافة المحلية، حيث بدأ بترجمة بعض الأنباء من العربية ثم يكتب بعض المقالات في شئون الشرق والإسلام.

وكان يكتب في أهم صحف جنيف اليومية والأسبوعية مثل (تربيون دي جنيف) و(جرنال دي جنيف)، وفي أهم الصحف اليومية (لاسويس) كتب الغاياتي كثيرًا من مقالاته، كما كان الغاياتي أيضا مراسلًا لأهم صحف مصر، فراسل العلم ثم المؤيد ثم الأهرام يزودها جميعًا بأهم الأنباء ويكتب بعض المقالات في شؤون المجتمع الإسلامي.

ولم تلبث الحرب العالمية أن اندلع لهيبها، وطوال فترة الحرب العالمية الأولى كانت مقالات الغاياتي تجد صدرًا رحبًا من جميع الصحف، إذ كان هواه السياسي مع الحلفاء حيث تأثر بالجو الذي يحيط به. وكان يعتقد أن سياستهم هي السياسة الحرة التي يجب أن تنتصر ليجني من وراء انتصارها العالم الإسلامي وفي مقدمته مصر أعظم الثمرات[1]. ولهذا هاجم سياسة الألمان والترك وهاجم الخديوي عباس الثاني –داعيتهم الأول-، ولما أعلنت الحماية على مصر صرح في جريدة تربيون دي جنيف وكان يحرر فيها "بأن ذلك ربما يؤدي بنا كمصريين إلى توحيد الجهود والمحاربة في ميدان واحد ضد عدو واحد، إذ أننا بدل الاتجاه في جهادنا أحيانا نحو السراي أو نحو دار العميد البريطاني أو نحو الوزارة المصرية بتنا بعد إعلان الحماية وتحديد المسئولية لا نرى أمامنا إلا جهة واحدة تحشد قوانا جميعا لمطالبتها ومؤاخذتها وقتالها".

وقد صدقت نظرته هذه حين قامت ثورة ١٩١٩ ضد الإنجليز وحدهم، أما أمله في عدالة الحلفاء فقد خاب إذ أخلف هؤلاء وعودهم؛ فما إن وضعت الحرب أوزارها حتى تنكر الحلفاء لمطالب الشرق والعرب في الحرية والاستقلال، فتصدى الغاياتي للهجوم عليهم والتنديد بسياستهم الاستعمارية.

فبدأ يهاجم الحلفاء مدافعًا عن مصر بحقها المشروع في الاستقلال، وزاد اشتعال الثورة المصرية ١٩١٩م مقالات الغاياتي حماسًا ولهيبًا، وحينئذ بدأت الصحف السويسرية تضيق بمقالاته شيئًا فشيئًا حتى توقفت كتاباته فيها فيما عدا صحيفة تربيون دي جنيف. عند ذاك فكر الغاياتي في إصدار صحيفة يجد على صفحاتها متنفسًا لأفكاره ومنبرا لشرح قضايا الشرق والدفاع عن حقوق مصر.

في هذه الغضون وتحديدًا في عام ١٩١٥م بعد أن سقط قانون الحكم الذي صدر ضده في مصر، بمرور خمس سنوات، أراد الغاياتي زيارة مصر شوقًا وحنينًا وقضاء لبعض الشؤون الصحفية في مصر. وجاء رد الحكومة المصرية بالموافقة، وقبل الرحيل بيومين يكتب قصيدته الرائعة والتي جعل عنوانها "عودتي بعد هجرتي" ويقول في مطلعها متغزلًا:

قســـــــــما بقـــــــــدك يا فتـــــــــاة ... وإنـــــــــه لقســـــــــم أبـــــــــر
مـــــــا الغصـــــــن داعبـــــــه النســـــــي ... فمـــــــاس مبتســـــــم الزهـــــــر

ثم حديث طويل عن الصبابة وما فعلت به ثم استعطاف للسلطان حسين.

(١) منير الشرق ٧١٢.

استقل الغاياتي ظهر السفينة (سدني) من مرسيليا، ووصل الإسكندرية يوم الخميس ٢٢ يوليو، وقوبل بدهشة حتى من الموظفين الذين أسر بعضهم إليه أنه جاء في وقت غير مناسب.

وكان الغاياتي يجهل ما هناك ولم يعلق أهمية على ذلك، ونزل بفندق (بونار)، وكانت تديره سيدة فرنسية، ثم قابل أحمد زكى سكرتير مجلس النظار في بيته، وأطلعه على قصيدته، فأثنى عليها، ونصحه بالتوجه فورًا إلى السراي برأس التين لتقديمها إلى رئيس الديوان السلطاني محمود شكري باشا، واستقل على الفور عربة حنطور قاصدًا السراي، ورحب رئيس الديوان بالشاعر المهاجر، وطلب منه الحضور في اليوم التالي.

ثم زار الغاياتي الأستاذ عبد القادر حمزة في جريدة (الأهالى)، وأطلعه على القصيدة، ثم زار مكتب الأهرام، وفى المساء السيدة صفية السادات حرم المرحوم علي يوسف، وفي اليوم التالي قابل الغاياتي رئيس الوزراء حسين رشدي في مكتب رئيس الديوان، وكان حاضرًا أيضًا عدلي يكن باشا وإبراهيم فتحي باشا وسعيد ذو الفقار باشا، وبدأ حسين رشدي حديثه بطريقة مريبة من أنه تلقى معلومات من جنيف بأنه حضر إلى مصر في مأمورية للخديوي السابق، فأبدى الغاياتي ضيقه ورفض تناول القهوة، ثم ذكَّر رئيس الوزراء بقضية (وطنيتي)، وما تنشره الصحف السويسرية له من مقالات ضد الترك والجرمان والخديوي، وخرج الغاياتي حانقًا، وفي اليوم التالي قابل المستر (ستورز) السكرتير الشرقي لدار المندوب البريطاني طالبًا السماح له بالكتابة عن الحرب في منطقة القناة فوعده خيرًا.

وظل الغاياتي في الإسكندرية أسبوعًا مُراقَبًا من رجال البوليس، ثم استصحبه أحدهم إلى المحافظة، حيث قابل المستر (انجرام) رئيس البوليس الذي طلب منه التوجه إلى القاهرة لمقابلة رئيس الوزراء، ورافقه مخبر إيطالي سلمه إلى دار المحافظة، حيث قابل هناك الحكمدار (هارفي باشا)، ثم جاءت مكالمة رئيس الوزراء يطالب باحتجاز الغاياتي حتى صباح الغد، واستقبله رقيب السجن قائلًا إنك ستنام مع مولانا السلطان في غرفة واحدة، وكان شيخًا وقورًا ذا لحية بيضاء يقرأ في المصحف، فحياه الغاياتي وعلم منه أنه من سلاطين الهند، وأنه خُلع على إثر اضطرابات وقعت هناك وهو في معتقله هذا منذ ستة أشهر.

قضى الغاياتي ليله مسهدًا أرقًا، ولم تستطع العلب الأربع التي ملأت بالماء، ووضعت فيها قوائم السرير أن تنقذه من لسع البق؛ فقد كان البق يصعد إلى السقف ويرمي نفسه على السرير!

وفي الصباح غادر الغاياتي السلطان وحاشيته من البق والحراس، وقابل رئيس الوزراء حيث ردد اتهاماته له بأنه في مأمورية للخديوي عباس، فرد الغاياتي التهمة إلى حسين رشدي واتهمه بأنه هو الذي أشار على الخديوي بعدم العودة إلى مصر قبل إعلان الحماية، مع أنه أولى الناس بالمحافظة على حقوقه الشرعية.

فقال حسين رشدي في غضب: ومن يتهمني؟

أجاب الغاياتي: أكثر المصريين في الخارج، وإن اتهامهم لك أشد من اتهامك لي، وإذا كنت تكذبه فلماذا لا تقبل مني أن أكذب؟

ووقف رئيس الوزراء غاضبًا، وأمر بإرجاع الغاياتي إلى الإسكندرية، فرد الغاياتي إن لي أسرة بجنيف ليس لها عائل سواي، وإني أعتبرك مسئولًا أمام الله عما يصيبها، فأجاب رئيس الوزراء ساخرًا أن لها الخديوي والألمان، فلم يتمالك الغاياتي نفسه وصاح ثائرًا: " يا باشا إن عندكم محاكم عسكرية فحاكموني أمامها" فأجاب: "ليس هناك وقت لإقامة العدل في هذه الظروف"[1].

وعاد الغاياتي مع مخبر نوبي يلبس قفطانًا إلى الإسكندرية، وفى دار المحافظة أخذ الضابط الإنجليزي يتصل بجميع أقسام المدينة سائلًا عن مكان يقيم فيه الشاعر المغضوب عليه، وأجاب قسم محرم بالقبول، ووضع هناك في غرفه أرضية تطل على حديقة صغيرة، وبها سرير من الخشب ينام عليه، بينما زملاؤه من المعتقلين ينامون على الأرض، وعرف فيهم الغاياتي زميله الصحفي عبد الحليم الغمراوى الذي عاونه في توزيع وطنيتي، وكان البوليس يسترق السمع، فلما أصبح الصبح اختفى زميله، وقضى الغاياتي في معتقله هذا تسعة أيام لا يغادر غرفته إلا إلى دورة المياه والوضوء، ولما طال انتظاره بعث إلى رئيس الديوان بأبيات يستهلها بقوله:

يا رئـــــيس الديـــــوان قـــــد بعثتـــــني	لمعاليـــــــك باعثـــــــات الرجـــــــاء
جئـــــت أشـــــكو الزمـــــان شـــــكوى أديـــــب	نســـــــيته المنـــــــون في الأحيـــــــاء

كما أرسل كلمة إلى السكرتير الشرفي لدار المندوب البريطاني، يذكره بوعوده، وبعد تسعة أيام قضاها الغاياتي في معتقله، دُعي إلى المحافظة، وأنبأه المستر انجرام بقرار ترحيله إلى جنيف، وجيء له بأمتعته من الفندق، وأعطي جواز سفر مصري مجانًا، وقد كتب عليه "مطرود بأمر الحكومة المصرية"[2].

وصحبه اثنان من رجال المحافظة حيث سفينة ايطالية اسمها – بيزانيو – وكانت متجهة إلى مسينة، وكانت السفينة صغيرة جدًا، فتقاذفتها الأمواج، وكادت تودي بركابها في أعماق البحر مرات، وتحالف الخوف من البحر، مع الخوف من الغواصات النمساوية في بحر إيجة والغواصات الألمانية بالقرب من مالطة على بث الرعب في قلوب

(١) منير الشرق ٧١٧.

(٢) منير الشرق ٧١٧.

الركاب، ووصلت الباخرة أخيرًا إلى مسينة، ثم سافر منها إلى روما تحت المراقبة السرية، ثم استقل القطار إلى جنيف فوصلها يوم الاثنين ١٩١٥/٨/١٦.

وعاد الغاياتي إلى جنيف ناقمًا ثائرًا، حيث كلفته الرحلة أكثر من ٧٠٠ فرنك سويسري، بالإضافة إلى ضياع شهر كامل من ٧/١٥ إلى ١٩١٥/٨/١٦، ولقد خفف من نقمته أنه نجا من هذا الشرك الذي كان من الممكن أن يؤدى إلى اعتقاله طوال مدة الحرب.

وأرسل الغاياتي إلى رئيس الوزراء محتجًا ومؤنبًا، فأبلغه عن طريق مندوبه في جنيف الدكتور بارودي مدير البعثة التعليمية المصرية "قل للغاياتى إن صدري معرض للرصاص وهو لا يخشى الأقلام، وأننا كنا أمام أمرين إما أن نعتقله إلى آخر الحرب، وإما أن نعيده إلى جنيف وقد استعملنا أخف الضررين".

ومن الغريب أن رئيس الوزراء أرسل إليه بعد ذلك بعام يبرئه مما نسب إليه زورًا، وأذن له بالحضور إلى مصر، فأجاب الغاياتي "لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين".

ومما يذكر أن رشدي باشا في أخريات أيامه أراد أن يكفر عما مضى، فناصر منبر الشرق وأيده وجمع له بعض الاشتراكات، وقد أطلق الغاياتي على رحلته القصيرة إلى مصر اسم "ألف ليلة وليلة"؛ لما صادفه فيها من أعاجيب، ونشرها بجريدة "تريبون دى جنيف" بعد عودته، ثم أعاد نشرها في منبره، ابتداءً من العدد ٣٨ بتاريخ ٢٥ فبراير ١٩٣١، ثم أعاد نشرها للمرة الثالثة في منبر الشرق العربي ابتداء من العدد ٧١٤ بتاريخ ١٩٥٢/١٠/١٤.

ولعل أكثر ما ألم الغاياتي في رحلته أنه لم يوفق لرؤية والديه، وقد حضرت والدته إلى الإسكندرية ولكنها لم تتمكن من رؤيته، وقد توفيت بعد ذلك بعامين، ثم لحق بها أبوه بعد عامين أخرين.

وتأذن الحرب العالمية بالانتهاء، وتعلن الهدنة بين المتحاربين في ١١ نوفمبر ١٩١٨ بانتصار الحلفاء الذين وقف الغاياتي إلى جانبهم دفاعًا عن مبادئهم، وترويجًا لأفكارهم، وطمعًا في منح بلاده استقلالها، وحين تألف الوفد المصري برئاسة سعد زغلول، استقبل الغاياتي هذه الأنباء بعمق الشكر لله، ولكن السلطات الإنجليزية تلقى القبض على سعد وصحبه وتدفع بهم إلى مالطة، فيقاطع المصريون لجنة ملنر، ويتعانق الصليب والهلال في وحدة وطنية رائعة، وفى ثورة عارمة، ويطلق سراح سعد وصحبه فيقصدون باريس للدفاع عن القضية المصرية.

ويرسل الغاياتي برقية تأييد لسعد، ولكن الخلاف يدب بين سعد وعدلي، ويظهر حزب جديد هو حزب "الأحرار الدستوريين"، ثم تمخضت هذه الاضطرابات السياسية عن تصريح ٢٨ فبراير بنقاطه الأربع، ويكون الغاياتي قد أصدر منبره منذ شهر، وقد صدر العدد الأول في ٥ فبراير ١٩٢٢ بالفرنسية والعربية، وليتسنى له الدفاع عن قضايا

الوطن والشرق الإسلامي، وما يمر حادث من أحداث الوطن حتى يتناوله بالتحليل والتعليق، فينتقد التصريح ويهاجم السراي والإنجليز، وكانت السلطات الإنجليزية قد ألقت القبض على سعد منذ شهر ونفته، فينشر نداء أم المصريين إلى المصريين وإلى الأمة بالصمود والثبات والتماسك.

وإذا كانت الصحف المصرية مكممة الأفواه، فقد راح على صفحات جريدته يكشف حقيقة الأوضاع الداخلية في مصر، ويكذِّب مزاعم انجلترا في منحها الاستقلال لمصر، فلا حرية واستقلال بالمعنى الصحيح في مصر، وإنما هي كلمات قد حلت محل الكلمات ... أجل هناك وزارة مصرية بيد رئيسها الداخلية والخارجية، وهناك ملك اتخذ له لقب الجلالة لقبًا، حتى تكون مظاهر الاستقلال كاملة أمام العالم، ولكن كل ذلك عند العارف المتأمل من الظواهر الخلابة الخداعة؛ فثروت باشا صنيعه اللورد اللنبي، وهو حاكم بأمره في البلاد، ولو كان الملك الحاضر خادمًا لمصر سائرًا معها في سبيل الجهاد الوطني لا صنيعة لإنجلترا ولا لمن والها لكانت الحال غير الحال.

وإلى جانب المنبر اتخذ الغاياتي من محافل الماسونية منبرًا حرًا للدفاع عن قضايا مصر والعروبة والإسلام بكل صراحة وكل حرية مع وجود بعض الأعضاء من اليهود، وكان الغاياتي هناك صلة الوصل بين المسلم والمسلم، العربي والعربي، الشرقي والشرقي يعمل مع الجميع وللجميع لا تقيده قيود الحزبية ولا تحده حدود الديانة أو الجنسية.

ويتولى سعد زغلول الوزارة المصرية ويصبح في إمكان الشاعر الغريب أن يزور وطنه ويصل للمرة الثانية، فيقضى شهرين في ربوعها آملًا أن يوسع نطاق جريدته التي يريد أن يجعلها بالعربية إلى جانب الفرنسية، وإذ كان قد غادر مصر لأول مرة يوم ٦ يونيه سنة ١٩١٠، فقد وصلها يوم ٧ يوليه ١٩٢٤ أي بعد أربعة عشر عامًا تمامًا، وكأنه تعمد هذا اليوم تعمدًا مقصودًا وحين وطئت قدمه أرض مصر كان يردد قول شوقي حين عاد من منفاه.

ويا وطـــــــني لقيتـــــــك بعـــــــد بأس كـــــأني قـــــد لقيـــــت بـــــك الشـــــبابا

خيل إليه أن غيبته الطويلة لم تكن إلا يومًا واحدًا بقطع النظر عن الشهور والسنين الطويلة، وذلك أنه لم يلمح في حالة البلاد الأخلاقية والاجتماعية أدنى تطور ذي شأن، فقط تطورت الأمة سياسيًا بفضل الدستور والزعيم سعد.

ويقابل الغاياتي كثيرًا من الزعماء والبسطاء، وحين يعود إلى جنيف يكتب في منبره أنه بعد أن خالط جميع طبقات الأمة يستطيع أن يؤكد أن الشعب بأسره يطالب باستقلاله التام، "وأن الغرض الأسمى الذي يسعى الكل إليه هو أن تكون مصر للمصريين".

كما يستنكر محاوله الاعتداء على سعد، ويغيب الموت سعدًا فيتوقف عن إصدار المنبر أكثر من أربعة أشهر حدادًا وأسى، ثم يخرج المنبر وعلى صفحته الأولى افتتاحية الغاياتي يرثى فيها سعدًا، ثم يتوجه إلى الأمة المصرية "لننس الدموع ونفكر في الوطن، فالوطن فوق الأشخاص وفوق الخلافات". وحدث ما توقعه الغاياتي وحذر منه، فأوقف الدستور ١٩٢٨، ونشر صورة لدار البرلمان وكتب تحت الصورة ساخرًا "بيت للإيجار".

وفى أغسطس ١٩٣١ يقوم الغاياتي بزيارة باريس بمناسبة إقامة معرض باريس العالمي، ويصاحبه في هذه الرحلة توفيق وهبة مراسل "المقطم"، وكانت هذه أول مرة يزور فيها باريس بالرغم من أنه رثاها حين داهمها فيضان نهر السين ١٩٠٩، ويتحدث في رحلته هذه عن أخلاق الباريسيين، وأن فيها خلافًا للمشهور دماثة ورقة، ويبدى إعجابه بالمرأة الباريسية فهي أنيقة للغاية، بسيطة للغاية، وقضى معظم وقته في مطعم (حاجي خليفة)، ليتسنى له الاستماع إلى الموسيقى العربية، ثم يتحدث عن زياراته لبعض كبار الشخصيات الأفغانية والعربية وخاصة تلميذه محمد المقري الوزير المغربي. وفى ختام حديثه عن رحلته يوجه نداء إلى فرنسا بمنح الشعوب العربية حريتها واستقلالها.

وجذبه الشوق إلى ربوع النيل، فشد الرحال تصاحبه ابنته "جميلة" وكانت طالبة بكلية الآداب، وقد أمضيا شهر سبتمبر ١٩٣٣ هناك، زار خلاله دمياط والقاهرة، وتكتب جميلة عن إحساسها بزيارة موطن الأجداد لأول مرة وأنها لم تستطع التفاهم مع فلاحات دمياط إلا بالإشارة فقط فلم تكن تحسن العربية بعد.

وكانت في مقالاتها هذه مصرية الوطن مصرية الشعور، لكنها فرنسية اللغة فرنسية التصوير والتفكير، أما الغاياتي الذي هجر الشعر منذ سنوات فلم يطاوعه شيطانه قبل رحيله إلى مصر، فلما أقام بها وملأ عينيه بربوعها وعاد إلى جينيف قال وهو يرى بعين الخيال بهاء الوادي وجلاله الخالد:

مصـــــر هـــــذا فتـــــاك وافـــــاك شـــــيخا ... كـــــاد لـــــولا الهـــــوى يـــــدب دبيبـــــا
بعـــــث الوجـــــد فيـــــه ســـــاعة مـــــرآ ... ك شـــــبابًا ونشـــــوة ولهيبًـــــا
وكـــــأن الحيـــــاة قـــــد وثبـــــت عشـــــر ... يـــــن عامـــــا إلى الـــــوراء وثـــــوبا
وكـــــأن الســـــنين بعـــــد نـــــواة ... كـــــن وهمًـــــا وإن تـــــركن المشـــــيبا
وفـــــتى مصـــــر ســـــالمته الليـــــالي ... والليـــــالي كانـــــت عليـــــه حـــــروبا
كيـــــف يقـــــوى بعـــــد اللقـــــاء علـــــى ... الهجـــــر ويغـــــدو بعـــــد الهنـــــاء كئيبًـــــا
حـــــب مصـــــر أقصـــــاه عـــــن مصـــــر حـــــتى ... ظـــــن مـــــن طـــــول النـــــأى ألا يـــــؤوبا
هـــــا هـــــو اليـــــوم زائـــــرا حماهـــــا ... ومنـــــاه إلى الحمـــــى أن يثـــــوبا

وفى الأبيات الثلاثة الأخيرة تحس أن الغاياتي وقد أشرف على الخمسين لم يعد قادرًا على تحمل البعد عن الوطن والاغتراب عنه، ومنذ عودته هذه من أرض الوطن يفكر جديًا في العودة بعد أن كبرت بناته، وقاربن على سن الزواج، وكان يريد أن يزوجهن بمصريين وطنيين، ويريد لأولاده أن يتمصروا ويتطبعوا بتقاليد مصر، ثم يصبح كل ما يتمناه أن يدفن في ثرى الوطن الغالي[1]، لكنه لا يستطيع أن يعود ومصر لم تستقل بعد. إنه سيظل يكافح ويناضل ويرفع اسم مصر حتى تنال استقلالها.

*****

(١) منبر عربي ٧٧، بتاريخ ١٩٣٧/٧/٢٩.

العودة للوطن

في أخريات عام ١٩٣٥ وصدور الطلبة المصريين تتعرض لرصاص الإنجليز يسقط الطالب عبد الحكيم الجراحي على كوبري الجامعة، فينشر الغاياتي رسالة الجراحي إلى تشرشل. ومع بداية عام ١٩٣٦ يحضر إلى جنيف أحمد حسين صاحب مصر الفتاة، حيث يحضر مؤتمر (مونترو) لإلغاء الامتيازات الأجنبية ويقدم طلب مصر للانضمام إلى عضوية الأمم المتحدة في الثلاثين من يناير، فيتلقاه الغاياتي بالترحيب ويسهل له مهمته ويساعده في تنقيح الطلب، ويفتح له صفحات المجلات السويسرية والمنبر والرأي العام العالمي، ويعقد له وللوفد عدة مؤتمرات صحفية، وأخيرًا تصبح مصر عضوًا في عصبة الأمم، وتصبح دوله مستقلة، ويحمل الغاياتي عصاه ويرحل مع أسرته إلى أرض الوطن في ١٩٣٧/٦/٢٨ مودعًا جينيف وطنه الثاني، شاكرًا لأهلها كرم الضيافة، وكان قد ترك في مصر كبرى بناته مدرسة للغة الفرنسية وقد تزوجت، وعاد الطائر إلى عشه والغريب إلى وطنه بقدر فراق تهزه إليه الأشواق .

وألقـــت عصـــاها واســـتقر بهـــا النـــوى كمـــــا قرعينـــــا بالإياب المســـــافر

وكتب في جريدة الجهاد:

" إني لمغتبط حقًا إذ عدت إلى وطني المصري لأقيم به نهائيا أقضى ما بقى من العمر إن كان في العمر بقية – تحت سمائه الزاهرة وأرضه متى وافت المنية – في تربته الطاهرة – بعد أن هاجرت في سبيله سبعة وعشرين عامًا خلت، وتحملت هذا الاغتراب الطويل بصبر وجلد وابتسام وتفاؤل من أول يوم إلى آخر يوم".

وكان النحاس باشا الذي رأس وفد مصر في مؤتمر مونترو قد وعد الغاياتي بمنصب سفير مصر في جينيف بصفة رسمية بعد أن ظل سفيرها الشعبي طوال سبعة وعشرين عاما، ولكن النحاس اشترط عليه انضمامه للوفد، فأبى الغاياتي، ويصر على الرفض في إباء، وتبخرت الوعود تلك التي خدع بها حينًا من الدهر.

ثم يطلب التصريح بإصدار المنبر فيُسأل: على أي لون سياسي ستصدر الجريدة عليه، فيجيب: أنا مصري – مصري فقط – فيماطلونه، ويكتب في جريدة الجهاد، ثم يكتب في السياسة ابتداء من شهر أبريل سنة ١٩٣٨، وكان يديرها الصحفي الكبير عبد القادر حمزة، ولكن الجريدة تتوقف عن الصدور، فيتوجه إلى رئيس الوزراء محمد محمود يطلب التصريح بإصدار جريدة المنبر، وكان الرجل كريمًا معه مقدرًا نضاله وجهاده، وصدر العدد الأول من المنبر – في ثوبه العربي يوم الجمعة ٦ ربيع أول ١٣٥٧ – ٦ مايو ١٩٣٨ في ثمان صفحات.

وجعل شعار الجريدة هذين البيتين اللذين بعث بهما ضمن قصيدة إلى مصر حين كان يقيم في جينيف ١٩٢٥.

باســـم الكنانـــة واســـم شـــعب ناهـــض لا باســـم أحـــزاب ولا زعمـــاء
كـــل يـــزول وينقضـــي أمـــا الحمـــى فوديعـــة الآباء للأبنـــاء

وكتب مذهبه على صدر الصحيفة "أنه جريدة مصرية مستقلة، فهو إذن سيكون بعيدا كل البعد عن الحزبية والأحزاب، وستكون مصر الخالدة هنا كما كانت هناك شغله الشاغل[1]."

وظلت الجريدة تصدر طوال ثمانية عشر عامًا، وكانت قد سلخت ستة عشر عامًا من عمرها في جينيف، وكانت المنبر تصدر كل أسبوع تخرج على الناس بافتتاحية الشيخ الثائر، مطالبًا بالدستور، داعيًا إلى جهاد المحتلين، كاشفًا المتعاونين مع الاستعمار والمرتمين في أحضان القصر، مهاجمًا ساكن القصر، ناعيًا على الأمة تفرقها وتحزبها، وعلى الزعماء تشبثهم بكراسي الحكم وإهمالهم مطالب جماهير الشعب الفقيرة في المدينة والقرية، مخصصًا "أنهرًا عديدة" من جريدته لرفع أصوات العمال وبسط قضاياهم حتى اتهمته حكومة النقراشي بالترويج للشيوعية، وأنه يتلقى إعانات من الشيوعيين.

والغريب أن الحكومة قد اتهمته قبل ذلك بأيام بأنه ملكي أكثر من الملك نفسه، حين تصدى للدفاع عن الشهيد حسن البنا زعيم الإخوان المسلمين، واستجوب نتيجة لذلك أمام مدير الأمن العام. وطارد رجال البوليس باعة المنبر.

وفى فترة الحرب العالمية الثانية بلغت أزمة الورق أشدها، وبلغت معها أزمة المنبر أشدها أيضًا، ويحاول تجار الوطنية ضمه إلى أحزابهم، لكنه يرفض للمرة الألف، ويحضر إليه مندوب من القصر الملكي يعرض عليه إعانات مالية فيصر على الرفض.

وكانت جريدته تعانى من أزمة الورق والتوزيع، والسوق السوداء متغلغلة في كل ميدان، وقبضة الاحتلال محكمة، وجاءه السكرتير الشرفي لسفارة انجلترا، ودار حوار يكشف عن عقيدة الغاياتي الصادقة وعن شرف النفس المصرية ونزاهتها يرويه شاهدان ثقتان[2].

وقد أثر هذا الحوار في كل منهما أعمق تأثير، وكان ذلك في عام ١٩٤٤ بمنزل الغاياتي المطل على ميدان الخديوي إسماعيل[3].

---

(١) منبر الشرق ١١.

(٢) هما الدكتور مختار الوكيل والدكتور محمد البهي.

(٣) ميدان التحرير حاليًا.

وقد بدأ مندوب السفارة حديثه، بأن ذكر الغاياتي بفضله حين تجاهل رؤيته في ميناء الإسكندرية أثناء فراره من مصر سنة ١٩١٠، فرد الغاياتي بثقة المؤمن: إن هذه كانت إرادة الله، ثم عرض السكرتير ما جاء من أجله فنوّه بسوء حال جريدة المنبر وصعوبة حصولها على الورق، وأن في إمكان السفارة تقديم الورق والإعلانات، وبذلك يستطيع الغاياتي تعويض ما لاقاه من شظف وحرمان أكثر من ربع قرن في دار الغربة، فقاطعه الغاياتي متسائلًا عما هو مطلوب منه بلا مواربة، فيرد السكرتير: فقط مجرد التنويه بأي عمل تقوم به السلطات الإنجليزية، وأن يخفف من لهجة العداء والتشهير، فأجاب الغاياتي: هذا ليس في حاجة إلى مساومات، فلتعلن انجلترا أنها ستجلو عن مصر غدًا، وأنا أرفع صوتي عاليًا بالإشادة بعدالتها وبنبلها، ثم يشير السكرتير إلى موقف أبى الفتوح صاحب جريدة "المصري"، وما تتمتع به جريدته من رواج، فلم يغمز الغاياتي زميله الصحفي، وإنما رد على السكرتير "لكم دينكم ولى ديني"، وعلى كل فمن الأفضل أن تكون هناك صحافة معارضة لكم حتى لا يقال أن الحرية مكممة.

ويعود السكرتير يعرّض بما يعانيه الغاياتي من ضيق وحرمان وأن السلطات الإنجليزية يمكنها أن تغدق عليه الأموال، فيرد الغاياتي: مبتسمًا: وما فائدة المال؟ إنه سيجر على المتاعب، ثم ما حاجتي للمال؟ للمسكن؟ ها أنا أسكن في شقة مريحة تطل على النيل وحديقة، وقام وأخذ السكرتير من يده وأدخله الشرفة وأراه شجرة الياسمين التي غرسها بيده والأزهار التي يتعهدها بنفسه، ثم الحمام الزاجل الذي يقوم بتربيته، ثم تأتى مشكلة المواصلات: فلتعلم أنى أحيانًا أركب سيارات الأجرة وكثيرًا ما أركب الترام والسيارات العامة ولا بأس من السير على قدمي حيث خلقتا لذلك، أما الطعام فليس هناك أحب إلى نفسي من الأطعمة المصرية وكلها في متناول الجميع، ولا تنسى أنني أحيانا أتناول أفخر الطعام، فأنا قانع والحمد لله ولا ينقصني شيء، وأنهي الحديث بأنه من الأفضل أن نبقى خصومًا شرفاء – ويعلق الدكتور مختار الوكيل:

بأنه كان في إمكان الغاياتي نشر هذا الحديث لينتزع إعجاب الوطنيين، ولكنه كان يكافح في صمت، وكان في إمكانه أن يقبل ما عرض عليه خاصة بعد أن عانى الكثير من المتاعب المالية وأن أحدًا لن يعرف بحقيقة هذه الصفقة، لكنه صمم على أن يكون أو لا يكون، أن يكون في جهاد القصر طاهر اليد مصون الكرامة خير ألف مرة من أن يكون في قمة المجتمع ملوث اليدين مثلوم الشرف.

وحين تنتهي الحرب بويلاتها وأزماتها يتوجه الغاياتي لزيارة بيت الله في أواخر عام ١٩٤٦ وأوائل عام ١٩٤٧، وطوال الفترة القصيرة التي قضاها في الحجاز مؤديًا شعائر الحج لم يكف قلمه عن النقد وإصلاح المفاسد، فهاجم المسؤولين عن إدارة الكعبة مطالبًا بتدويلها والعمل على تطهيرها ونظافتها، وقامت قيامة المملكة السعودية وبذلت الوعود إغراءً للشيخ، ولكنه أبى واستمر ينشر على المسلمين حقيقة ما صادفه ولاقاه هناك.

وتبدأ حرب فلسطين فيشارك بقلمه في الدفاع عن عروبتها داعيًا إلى نصرتها آسيًا على شيخوخته التي منعته من حمل السلاح، فإذا كانت النكسة نعى على العرب اختلافهم وتقصيرهم، واتهم الجامعة العربية وأمينها عبد الرحمن عزام بعدم الجدية.

وقد كشفت هزيمة العرب في فلسطين السر عن فساد الأوضاع الداخلية في البلاد العربية وخاصة مصر، فراح بمشرطه يكشف عن الداء في جسم الأمة العربية المتمثل في الحزبية البغيضة التي تجرى وراء المنافع وتكالب على مقاعد الحكم دون اعتبار لمصالح الشعب وجماهيره الكادحة.

وكان بذلك يمثل بجريدته حزب المعارضة، وكانت كتاباته إلى جانب كتابات الأحرار في مصر إرهاصًا بالثورة وتقويضًا لدعائم النظام الملكي الفاسد، فلما قامت الثورة الكبرى في الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢، وقف قلمه للدفاع عن مبادئها والإشادة بإنجازاتها وبارك خطواتها وحيا انتصاراتها وتوالت إنجازات الثورة، هذه الإنجازات التي ظل الغاياتي يشهر قلمه مطالبًا بها والتي بذل لها سعادته وراحته ومن أجلها تحمل الغربة أكثر من ربع قرن، فألغيت الألقاب والرتب، ثم صدر قانون الإصلاح الزراعي، تطبيقًا صحيحًا لمبدأ العدالة الاجتماعية التي بح صوته من المطالبة بها، وتحقق حلمه الأكبر بإعلان الجمهورية ذلك الحكم الذي كان ينادى به على صفحات الجرائد المصرية والتركية والسويسرية منذ أواخر العقد الأول من القرن العشرين.

وكان ليوم الجلاء عنده منزله لا تعادلها، فخرج في الشرفة يتابع مواكب الجماهير، ويرفع بيده علم مصر مقبلًا إياه ماسحًا دموع فرحة بللت لحيته، وكان المرض بدأ يزحف إلى جسده الضعيف، حين أعلن الرئيس تأميم قناة السويس -تلك التي أفرد لها في ديوانه صفحات عديدة وخصص لها عشرات الأنهر في جريدته، ومما زاد فرحه بهذا التأميم أن الذي صاغ القرار وأشرف على إعداده أحد أزواج بناته وهو الدكتور مصطفى الحفناوي، وقد صدر العدد الأخير من الجريدة إشادة بخطوة التأميم بداية التحرر الاقتصادي والاجتماعي.

وإذا كان المرض استطاع أن يقيد جسم الغاياتي في فراشه في الأسابيع الأخيرة من حياته، فإنه تغلب على هذا المرض اللعين، وظل يقاوم ويقرأ وهو مريض ويكتب الجريدة وهو محموم ويصدر جريدته حتى اليوم الأخير من عمره بعد أن رأى ثمار جهاده وكفاحه تنضج الواحدة بعد الأخرى.

*****

الغاياتي الشاعر الوطني

جذور الشعر الوطني

الوطن في اللغة محل الإنسان مطلقًا ويقول الأستاذ الإمام محمد عبده "إن في الوطن من موجبات الحب والحرص والغيرة ثلاثة تشبه أن تكون حدودًا: الأول أنه السكن الذي فيه الغذاء والأهل والوفاء، والثاني: أنه مكان الحقوق والواجبات التي هي مدار الحياة السياسية وهما حسيان ظاهريان، والثالث: أنه موضع النسبة التي يعلو بها الإنسان ويعز أو يسفل ويذل وهو معنوي محضًا"[١].

يعرِّف ابن منظور في لسان العرب الوطن بأنه "المنزل الذي تقيم فيه وهو موطن الإنسان، ومحله يقال أوطن فلان أرض كذا وكذا اتخذها محلًا ومسكنًا يقيم فيه"، وقال الزبيدي: الوطن منزل الإقامة من الإنسان ومحله وجمعها أوطان[٢].

وحب الأوطان غريزة في النفس البشرية؛ فتحركت هذه الغريزة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قَالَ لَهُ وَرَقَةُ "يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ قَالَ نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا"[٣].

وجاء القرآن الكريم ليكرس غريزة حب الوطن فيضرب أشد الأمثلة ويهدد بني إسرائيل بالعقوبات التي تنتظرهم لما ارتكبوه من آثام بحق أنبيائهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ٦٦]. فقد ساوى الله سبحانه وتعالى قتل الإنسان لنفسه أو خروجه من وطنه.

ويقول في آية اخرى ليعطي أعظم الدوافع للقتال والنهوض ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦]. وعندما أجبر رسول الله صلوات الله عليه على الخروج والهجرة إلى المدينة وقف على مشارف مكة، وقد ألقى نظرة وداع على وطنه ووطن آبائه وأجداده فقال: [أما والله إني لأخرج وإني لأعلم أنك أحب البلاد إلى الله وأكرمها على الله ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت][٤].

وعَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْحَرَّانِيِّ الْقُرَشِيِّ، عَنْ بُدَيْحٍ قَالَ: "قَدِمَ أَصِيلٌ الْهُذَلِيُّ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ مَكَّةَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " يَا أَصِيلُ، كَيْفَ تَرَكْتَ مَكَّةَ؟ " قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَسَنَ

---

(١)محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ص ٢٠٢/٢٠١/٢.

(٢) د. ليلى محمد أسليم، "حب الوطن في ضوء السنة النبوية"، مجلة جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات، العدد الرابع، يناير ٢٠١٣.

(٣) صحيح البخاري – كتاب بدء الوحي – باب بدء الوحي – ج١- ح٣- ص٥.

(٤) الدر المنثور - السيوطي ج١/ص٣٠٠.

أَبْطُحُهَا وَانْتَشَرَ سِلْمُهَا، وَأَعْذَقَ ثِمَارُهَا، وَأَحْجَرَ إِذْخِرُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَيْهًا يَا أَصِيلُ، دَعِ الْقُلُوبَ تُقِرُّ قَرَارَهُ"[١].

يقول ابن عباس: "لو رضي الناس بأوطانهم رضاهم بأرزاقهم لما اشتكى أحد الرزق"، وهذا الحب للوطن حب مطلق وانجذاب لا شعوري للأرض التي مس جلده ترابها حين ولادته وهي تذكره بملاعب الطفولة ونشأة الصبا فيقول أحدهم في ذلك: "وكنا ألفناها ولم تكن مألفًا وقد يؤلف الشيء الذي ليس بالحسن كما تؤلف الأرض التي لم يطب بها هواء ولا ماء ولكنها وطن"[٢].

وحب الوطن من الإيمان، والوطنية هي الكلمة الأولى في سفر الوجود، وشعر الوطنية في مقدمة أغراض الشعر.

يُعرف الأستاذ إبراهيم الإبياري حب الوطن بأنه: "ثابتًا لا يعرف التقلب، باقٍ لا يعرف الزوال تام لا يعرف النقصان، قدسي يستعصي على الجحود، نبيل يتأبى على الجحود"[٣]، ذلك أنه دخل النفوس مع الماء والهواء والطعام مخالطًا اللحم والعظم والدم وأحسته الحواس كلها مع ما تحس فنشأت به الحواس كلها[٤]، وبرغم جذب الأرض وجفافها وشح السماء وبخلها لم يتنكر العربي الأول، له بل هام به وتام وأحس وجوده في تلك الخيام المنصوبة بما تضم من ناس وبما يحيط بها من مدن قائمة وأثار حائلة، شاعرًا أن أرضه مقسو عليها معه فيأسى لها ويرعى لها أيامه بها، وهو إذا اضطر للرحيل عنها لغزو أو سفر حمل معه من ترابها ما يستنشقه عند نزلة أو زكام أو صداع ويطرحه في الماء إذا شرب[٥].

ولابـــــد في أســـــفارنا مـــــن قبيصـــــة مـــــن الـــــتراب نســـــقاها لحـــــب الموالـــــد

وحين جاء الإسلام وامتدت الفتوحات واستقرت الأرض تحت أقدامه زاد ارتباطه به "وإذا الوطن مرسوم بعد أن كان غير مرسوم وإذا هو شيء بعينه بعد أن كان شيئًا بمعناه"[٦]، وفى الجاهلية كان للعرب في الحماسة ديوان، وكان شاعر القبيلة يثير بأشعاره القبيلة كلها، وكانت القبيلة تثير أمة بأجمعها فكان شاعرهم يقول:

ومـــا أنا إلا مـــن غزيـــة إن غـــزت غـــزوت وإن تقعـــــــد غزيـــــــة أقعـــــــد

---

(١) مثير الغرام الساكن إلى أشرف الأماكن لابن الجوزي.

(٢) علي يوسف المتروك، "كلام حول الوطن والمواطنة"، القبس، ٥ يناير ٢٠٠٦.

(٣) إبراهيم الإبياري، الوطن في الأدب العربي، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٢، ص١٠.

(٤) المرجع السابق.

(٥) المرجع السابق.

(٦) أبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعيّ، كتاب الدارات للأصمعي، دراسة وتحقيق يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٩.

وهو يطلق أشعاره فخرًا واعتزاز بانتصارات قومه وتسجيلا لأيامهم ووصفًا لمرابعهم ومنازلهم.

حتى إذا بزغ فجر الإسلام وأضاء وجدانهم وحملهم على ترك الجزيرة نشرًا للدين الجديد، تفجر على ألسنة شعراء الفتوح شعر هو في جملته تعبير مكثف عن حب الوطن، حنينًا للوطن الذي شهد مدرج الطفولة، ووفاء لمنازل المحبوب وشوقًا لمسرح الفتوة مناضلًا وساعيًا.

وظهر أكثر في شعر الأندلسيين حنينًا لمرابع الآباء ومغارس النخل وديار الأحبة، ثم اتسع الوطن وامتد ظله، فتمثل حب الوطن في تلك الأشعار التي تتغنى بالوطن العام والوطن الخاص، ثم في شعر الفخر والملاحاة بين العرب والعجم، لا سيما حين امتدت معارك الشعوبية، ويمكن أن نعتبر كتاب (البيان والتبيين) للجاحظ أدبًا وطنيًا قصد به الدفاع عن العرب وتمجيدهم ورد التهم التي يرميها بهم خصومهم.

كما تمثل حب الوطن في تلك الكتب التي أطلق عليها (معجم البلدان)، وتلك التي تؤرخ للمدن مثلما يكتب ابن شاكر عن وصفه دمشق والخطيب البغدادي عن بغداد، وألفت كتب كثيرة في فضائل الشام والقدس والمسجد الأقصى، حتى إذا سقط الجدار وعاثت الطيور والوُحُش في الحقل ووقع الوطن في أيدي الغزاة وضعفت الأمة العربية، اتسم الشعر الوطني بالبكاء وارتفع فيه أنين الشكوى وظهر نوع جديد من الشعر الوطني تمثل في رثاء المدن لا سيما بغداد ودمشق حين اجتاحتهما فلول التتار، ثم مدن الأندلس حين بدأت تسقط الواحدة إثر الأخرى، فتذوب معها القلوب حسرة والنفوس حزنًا، ولم يكن هذا الحزن سلبية أو يأسًا وإنما هو تصوير لمحنة أليمة وعرضًا لفاجعة مريرة: إثاره للحمى وبعثًا للعزائم.

وبقيادة صلاح الدين للعرب يظهر أدب جديد للمقاومة، ويعتبر كتاب الإمام الحافظ زكى الدين (الترغيب والترهيب) بما اشتمل عليه من إجابات تحث على الجهاد وتدعو إلى المقاومة والاستبسال وتنفر من الفرار يعتبر من الأدب الوطني لهذه الفترة.

وبذلك بعثت الحروب الصليبية في الشعر الوطني روحًا جديدًا تسجيلًا لانتصارات المسلمين وتحريضًا علي البذل والجهاد وهجاء للأعداء الغاصبين، وينتج عن ذلك شعر صادق اختلف عن الشعر المتكلف الذي ساد عصورًا طويلة سبقته.

وقبل ظهور صلاح الدين وبعد انهيار دولته لا سيما في عصور الظلام المملوكي والتركي ترك الشعر الفصيح الميدان، وأخلى الساحة للشعر الشعبي الذي تولى محاربة الظلم والإشادة بالبطولات العربية وتمجيد صفات

الفروسية التي جسدتها سيرتا بني هلال والظاهر بيبرس ونظم الشعراء الشعبيون المواويل والأزجال وصنعوا الأهازيج والأشعار الساخرة دفاعًا عن الوطن وذيادًا عن تقاليد ومقدساته.

ويقرن الأستاذ عبد الرحمن الرافعي ظهور الروح الوطنية في الشعر المصري بظهور الحركة الوطنية نفسها، لهذا فهو يعتبر رفاعة الطهطاوي أول رائد في هذا الميدان، أما الأستاذ العقاد فيرى أنها ظهرت بظهور الحركة العرابية "إذ دبت في نفوس المصريين أريحية الشعور الوطني وثقه العارف بحقه المنكر لما هو فيه من بخس وإهمال"[1]، على أنَّا نرى أن مدافع الحملة الفرنسية على مصر هي التي فجرت ينابيع الشعر الوطني وأطلقت ألسنة الشعراء تنديدًا (بكفرة) أوربا واستنهاضًا للهمم وبعثًا لشعور الأمة الوطني.

ونجد عند الشيخ حسن العطار إرهاصًا وتمهيدًا لشعر وطني صادق لا يلبث أن يتبلور قبيل الثورة العرابية، فهو يقول ساخرًا بالفرنسية حين كانت قواتهم تستعد لغزو الشام:

إن الفرنسيين قد ضاعت دراهمهم ... في مصر بين حمار وخمار
وعن قريب لهم في الشام مهلكة ... يضيع لهم فيها آجال وأعمار

وبعد جلاء القوات الفرنسية وقعت مصر في قبضة الحكم الفردي الاستبدادي وارتفعت الأصوات خافتة تندد بالحكم الظالم وتفخر بماضي مصر العريق وتثير الشعور القومي، وقد تمثل حب الوطن عند رفاعة الطهطاوي في تعريبه للمارسيليز، "فإن النفس لا تميل إلا إلى ما هو محبب إليها"[2]، ثم في تلك الأشعار التي كان يرددها أثناء طلبه للعلم في فرنسا ينشد قول الحافظ كمال الدين الإدفوى:

أحن إلى أرض الصعيد وأهله ... يزداد وجدي حين تبدو قبابها
وتذكرها في مهجة الليل مهجتي ... فتجرى دموعا إذ يزيد التهابها

فحب الوطن كما يقول رفاعة "من الإيمان ومن طبع الأحرار - إحراز الحنين إلى الأوطان ومولد الإنسان على الدوام محبوب ومنشؤه مألوف له مرغوب ولأرضك حرمة وطنها كما لوالدتك حق لبنها والكريم لا يجفو أرضًا بها قوابله لا ينسى دارًا بها قبائله"[3].

---

(١) عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٧، ص ١٢.

(٢) مقدمة وطنية مصرية/ ٣ بولاق ١٢٨٣.

(٣) من مقال للطهطاوي في الوقائع المصرية.

وهو الذي يقول:

يا فـــــــتى حـــــــب الـــــــوطن حليـــــــة كـــــــل فطـــــــن
محبـــــــة الأوطـــــــان مـــــــن شـــــــعب الإيمـــــــان
في أفخـــــــر الأديان آيـــــــة كـــــــل مؤمـــــــن

ويرتفع صوت تلميذه السيد صالح مجدي يهيب بأبناء مصر:

فاســـــتيقظوا لا أقـــــال الله عثـــــرتكم مـــــن غفلـــــة ألبســـــتكم ملـــــبس العـــــار

وحين شبت نيران الثورة العرابية نجد عبد الله النديم يقرب معاني الثورة إلى فئات الشعب ويقطر أفكار جمال الدين الأفغاني ويوصلها إلى الصانع والتاجر والفلاح متخذًا من الشعر والزجل أداة له تعبيرًا عن الثورة والمقاومة، وسيخلفه في هذا الاتجاه بيرم التونسي شاعر الشعب، فهاجم بشعره ومقاماته وأزجاله القصر والاحتلال وناضل عن جماهير الشعب عمالًا وفلاحين، ثم تسقط أعلام الثورة بفعل الخيانة وبمعاونة (فرسان القديس جورج الذهبية)، وتدنس أقدام الاحتلال ثرى الوطن، فيرتفع صوت مصطفى كامل مثيرًا الشعور القومي والأمجاد الوطنية، متغنيًا حب مصر وهيامه بها وعشقه لأمجادها.

وأثر أسلوبه الوجداني في الشعر الوطني وفى الأناشيد القومية منذ بداية القرن الحالي، وتمثل الشعر الوطني في تلك الفترة في ذلك الحنين الجارف من شعراء المهجر:

حيث تهفو قلوبهم وأرواحهم إلى الديار الأولى، وما غاب الوطن لحظة عن ضمائرهم فهو ماثل دائم الحضور يتغنون بأمجاده ويحنون لأرضه وجباله وسهوله وأرضه.

وقد كانت العواطف القومية التي يعبر عنها الكتاب والشعراء في تلك الفترة تتمثل في أربعة اتجاهات:

الاتجاه الأول: وهو الولاء للعثمانية، ولم يتخلف في هذا الاتجاه واحد من الشعراء.

والاتجاه الثاني: أدب إثارة النزعة العربية ويتضح في كتابات إبراهيم اليازجى ورزق حسون وسليم سركيس والكواكبي.

أما الاتجاه الثالث: فهو أدب الانتقاد للأسرة الحميدية مع المحافظة على الولاء للعثمانية، وقد تمثل ذلك بوضوح في أثار الزهاوى والرصافى وولى الدين يكن وأديب إسحاق.

وأخيرًا الاتجاه الرابع: وهو الدعوة للغة العربية خاصة عند حافظ والرافعي والرصافى ومحمد الهاشمي.

*****

الغاياتي شاعرًا ملتزمًا

وطنية الغاياتي:

كان الغاياتي واحدًا من أبرز رعيل المجاهدين الأول في بداية القرن العشرين، بل إنه كان أمة وحده في وطنيته، تلك الوطنية التي كنت تختلع بها نفسه وتضطرب بها جوانحه، وهو وطني بفطرته وحسن سريرته، ففطرة الإنسان معجونة بحب الوطن، وعقيدته الوطنية هي أساس شخصيته ومحور علاقاته، وما أحب الغاياتي ولا أبغض، ولا وادع ولا حارب ولا أمن، إلا من أجل عقيدته الوطنية، فطرة المؤمن الحق لا يحب إلا في الله ولا يبغض إلا في الله، وقد امتزجت الوطنية بروحه وتمشت في كتاباته وراح ينسج من عواطفه تجاه الوطن حله سداها الحب ولحمتها الوفاء، مهيبًا بالأمة أن تتمسك بحريتها وكرامتها وأن تنفر من الذل وتعرض عن الخضوع وأن تنهض لاستعادة أمجادها الغابرة. وكان الشباب يحفظ أشعاره الوطنية ويرددها، فتزكى في نفوسهم روح الوفاء للوطن وتتمشى في عروقهم دماء العزة والكرامة.

وقد بدأ حب الوطن يظهر عند الغاياتي منذ أوائل شبابه، حيث اختار التعليم مهنة ورسالة، مؤمنًا بأن العلم حق للجميع كالشمس والهواء وأنه يزيد وطنية الإنسان خصوبة ويهيئها للبذل والعطاء، ثم وسع ميدان رسالته فبدأ بنشر أحاسيسه الوطنية على صفحات الجرائد حتى يصل إلى أسماع الجماهير، ثم احترف الصحافة فاتخذ الكلمة سلاحًا يشهره نثرًا ثائرًا ويرسله قصائد مشتعلة وحاول المستعمرون الضالعون إسكات شفاهه واعقام لسانه وإماتة حيويته، فقرر الهجرة.

وكانت وطنيته هي الباعث على فراره ليظل البوق الذي يرهب الاستعمار، فاقتحم على الغرب حصنه، وردّ سهام المعتدين إلى نحورهم، فاتخذ من صفحات الجرائد السويسرية ميدانًا يجول فيه ويصول، ويشن الغارة تلو الغارة عليهم وعلى أذنابهم، ثم ينشئ جريدته العربية الإسلامية حين ضاق به الاستعماريون وبرموا ولم يهدأ حتى بعد أن امتد به العمر وعاد إلى الوطن ورأى كيف تهان كرامه الوطن وتداس حقوق الشعب، فظل يصدر جريدته صارخا مع كل عدد:

باســـم الكنانـــة واســـم شـــعب ناهـــض ... لا باســـــم أحـــــزاب ولا زعمـــــاء
كـــل يـــزول وينقضـــي أمـــا الحمـــى ... فوديعـــــــة الآباء للأبنـــــــاء

وظل ينفق حياته نفسًا في نفس حتى لم تعد يده قادرة على حمل القلم، فإذا كان مصطفى كامل هو باعث الوطنية المصرية في مفتتح القرن العشرين، وكان محمد فريد قديسها، فإن على الغاياتي هو شاعرها الأكبر وشهيدها الصب.

كان الغاياتي يصدر في شعره عن إيمان بحب الوطن، وكان الموضوع الوحيد الذي انتظم شعره كله هو الوطن فخرًا واعتزازًا وانتهاضًا، فلم يمدح ملكًا أو أميرًا، ولم يهج لئيمًا، ولم يفخر بشعره ونسبه، ولم يتغزل في هند أو دعد، وإنما كان مدحه لقاده الشعب وأبطاله، وكانت سهام هجائه مصوبة لصدور أعداء البلاد: مستعمرين وخونة وكان فخره بموطن الآباء والأجداد عظيمان وغزله في مصر لهفًا رقيقًا.

وإلى جانب نزعته الوطنية والقوية هذه كانت هناك نزعة إنسانية يصدر عنها في شعره، فهو يرثي باريس حين يدهمها الفيضان، وهو يرثى دنجرا الشاب الهندي الذي أعدم لقتله إنجليزيا، وفى أوائل هذا القرن كان الشعر مازال يرسف في أفضل البديع والمدح والزائف والمبالغة المتكلفة، ثم طلع الغاياتي على الناس بأشعاره الثائرة الملتهبة، والتي تفيض نضالًا وجهادًا وانطلقت في صدور المستعمرين تؤرق مضاجعهم وأصبح للكلمة خطرها بعد أن صارت سلاحًا.

ومـــن غـــدت الأقـــلام في كفـــه ظـــبى فمـــن جنـــده تغـــدو القنـــا والقواطـــع

وحاول المستعمرون شراء قلمه بالإغراء والإرهاب ولكنه لم ينثن:

أنبتتـــــه مصـــــر ويرويـــــه نيلهـــــا ويصـــبح في كـــف ابنهـــا وهـــو يافـــع
وتـــــدعوه يـــــوم النـــــازلات فينثـــــني وينـــذرها داعـــي الـــردى وهـــو سامـــع
إذن كـــــل أولـــــى بالـــــيراع وربـــــه صـــــواعق مـــــن رب الســـــماء تســـــارع

ولم يكن الغاياتي شاعرًا ممتازًا كشوقي يحلق في سماء الخيال، ولكنه كان وطنيًا من الطراز الأول، كان شوقي ينتج أخصب شعر عرفته العربية صياغة وموسيقى: شعرًا للشعر والفن، وكان الغاياتي يؤلف أشعارًا عادية الصياغة بسيطة التركيب لكنها ملتهبة المشاعر صادقة الانفعال جياشة العاطفة شعرًا للوطن، ومن هنا انتهى شوقي رائدًا وعملاقًا في الشعر والفن، وانتهى الغاياتي رائدًا من رواد الحرية والوطنية.

ويفكر أستاذ جامعي أن يؤلف عن وطنيه شوقي لينصفه، ولكنه يعدل عن ذلك ليؤرخ للاتجاهات الوطنية في الشعر المصري جملة، ويكتب أستاذ آخر كتابًا ضخمًا عن وطنية شوقي، أما الغاياتي فلم يكتب

عن وطنيته أحد. كان شوقي وطنيا ولكنه لم يبلغ وطنية الغاياتي لقد "كان يلتوي ما التوت سياسة الأمير يتحفظ في شعره يتحفظ في حديثه العادي فكيف به إذا مات الأستاذ الإمام أو قاسم أمين أو مصطفى كامل أو كيف به إذا جزع الشعب لدنشواي وكيف به إذا طالب الشعب بالدستور وهو شاعر الأمير فخير له أن يسكت فإذا لم يكن بد من القول فحق أن يحتاط"[1]. ولم يكن نفي الإنجليز لشوقي بسبب وطنيته في المقام الأول بل كان نكاية منهم في الخديوي، بدليل أنهم تركوا له أن يختار منفاه، وإلا فلماذا لم ينف الإنجليز حافظًا أو محرمًا أو الكاشف وشعرهم يشتعل بالوطنية؟

أضف إلى هذا أن شوقيًا كان يخوض ميدان المقاومة بترف ونعومة وأرستقراطية، كيف وهو في منفاه كما كان في مصر، يعيش أمير يقطع البلاد طولًا وعرضًا ويسوح بين أطلال الحمراء وغرناطة ناعمًا متبرمًا غير راض، أما الغاياتي الذي صبر في عقيدته الوطنية نصف قرن وأكثر فلم يأخذ وضعه الطبيعي والممتاز بين شعراء الوطنية.

ظلمه الحزب أيام كان لسانه الذرب فحرم لقب المدافع عنه المعبر عن مبادئه وخلع اللقب على حافظ إبراهيم فجعله شاعر الوطنية ثم شاعر الحزب الوطني كما منح من قبل لشوقي مع أن شعر حافظ الوطني كان قليلًا لا يعدو خمس قصائد:

قصيدته الأولى في دنشواي ١٩٠٦ وإن ختمها بعتاب للإنجليز مقرون بالحذر، ثم قصيدته التي استقبل بها كرومر في أكتوبر ١٩٠٦ بعد حادث دنشواي، ويشكو الاحتلال بقصيدة ثالثه لا تتجاوز ثمانية أبيات ثم يودع كرومر آسفا مخاطبا قصر الدوبارة:

فيأيها الشيخ الجليل تحية ... ويأيها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعلة ... فقد لبثت أثاره فيك شُهدا

وأخيرًا يستقبل المعتمد البريطاني الجديد الدون غورست سنه ١٩٠٧ مرحبًا شاكيًا. بقصائد خمس خاصم حافظ الإنجليز خصامًا يتراوح بين العتاب والهجوم المقرون بالحذر. ذلك أول مرة حتى إذا أسند إليه منصب في دار الكتب أصابه "ما أصاب شوقي واضطر إلى أن يصانع ويدارى ويحسب للقول حسابًا ويكظم

(١) طه حسين، حافظ وشوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٨، ص ١٣٢.

نفسه على ما تكره ويترك شعبه من غير ترجمان"[1]، ولا يعود لمهاجمة الإنجليز إلا حين يحال إلى المعاش يوم أن أصبح الهجوم مباحًا ولا عقاب عليه فمصر مستقلة وأمرها بيد بنيها.

ومن أجل قصائده الخمس الخائرة ومن أجل مصانعته ومداراته خلع الحزب الوطني على حافظ لقب شاعر الوطنية وحرم منه صاحبه الأجدر به: الغاياتي.

ولم يكن ذلك موقفًا عاطفيًا من الحزب، ذلك أن عبد الرحمن الرافعي مؤرخ الحزب وبعد مرور عشرات السنين يكتب كتابًا عن شعراء الوطنية في مصر يخلع فيه على كل من محرم ونسيم والكاشف لقب شاعر الحزب الوطني، ويحرم منه الغاياتي الذي خصص كل ديوانه لمهاجمة خصوم البلاد وأشاع في أشعاره الحديث عن الحرية والاستقلال والجلاء، ولم يكن لأي من هؤلاء جميعًا دوام اشتعال الكلمات، لقد كتبوا جميعًا في شتى أغراض الشعر ولم يقصروه على الأغراض الوطنية، أما الغاياتي فعف شعره عن غزل عابث ولهو ماجن ومدح زائف وفخر كاذب، وقصره على الوطن وأهله وأرضه، وجعل مصر معشوقته الوحيدة فغنى جمالها وعظمة نيلها وأشاد بعراقه ماضيها وأهلها ودافع عن كرامتها وناضل مغتصبيها وكشف الضالعين مع الاحتلال المتنكرين للوطن الجاهدين لفضل مصر.

جمع الغاياتي أشعاره التي سبق نشرها في اللواء والعلم والدستور والمؤيد في ديوان أطلق عليه اسم "وطنيتي"، وكان الديوان على صغر حجمه ذا تأثير كبير في حياة الغاياتي وحياة الحركة الوطنية كلها، فلأول مره في العربية يصدر ديوان متخصص كل قصائده عن الوطن وعاطفة حب الوطن، ولعل أهميه الديوان ترجع إلى تلك الظروف التي أحاطت صدوره، فقد صدر وسيف الاستبداد مسلط على رقاب الوطنيين، وقانون المطبوعات متربص بهم، فلم يرهبه الاستبداد ولم يثنه السجن فأطلقها حمما تصعق وشواظا تحرق، وجعلها مرآة تنعكس على صفحتها حياة مصر السياسية في العشر سنوات الأوائل من القرن العشرين، ترى به معنى الصمود كأهراماتها وترجمة صادقة لآمال الوطن المفدى.

ولم يحدث أن أثار ديوان ضجة مثلما أثار ديوان وطنيتي؛ فقد أقام سلطات الاحتلال وأقعدها، فأصدرت حكمًا علي مؤلفه بالسجن، وعلى مقدمي الديوان وهما من أبرز الزعماء في تلك الفترة، بل ظل شبح الديوان يؤرق أعين المحتلين وبالرغم من مرور أكثر من ثلث قرن علي صدوره؛ ففي أثناء الحرب العالمية الثانية أوعزت سلطات الاحتلال بمصادرة الديوان، فقام القلم السياسي بإيفاد بعض ضباطه صباح السبت

(١) المرجع السابق، ص١٢٩.

١٩٤٣/٦/١٧ إلى المؤلف للبحث عن وطنيتي عنده، فلما لم يجدوها لديه أخذوا عليه تعهدًا كتابيًا بألا يطبعها أو يوزعها مادامت الحرب قائمة.

وقد كشف الغاياتي بديوانه القناع عن الخديوي الشاب الذي أحسن البعض الظن به، كما زادت أشعاره من حدة الغضب في نفوس المصريين ضد الاحتلال، هذا الغضب الذي ظل يتراكم حتى انفجر في ثورة عارمة بعد الحرب العالمية الأولى.

وفي تقديم الغاياتي لديوانه وهي أول مقدمة ملتزمة لديوان حديث -على ما أعرف- تراه يهديه إلى روح الزعيم مصطفى كامل، ويعتذر عن بعض الأشعار التي لا نفع فيها للبلاد ولا ذكر للأمة والوطن بأنه كان بعيدًا عن الحركة الوطنية قبل نزوحه إلى القاهرة، وكأن الشاعر عنده لا يكون شاعرًا -لاسيما وأقدام الاحتلال تدنس ثري الوطن- إلا إذا أنشد في الوطن وتغني به.

وكان الغاياتي بحق شاعرًا ملتزمًا، فقد كانت أشعاره ثورة في وجوه أصحاب الشعر المتكلف الذي ظل يحجل في سلاسل الحلية اللفظية والزينية والبديعية والمدح المتكلف، والذي ظل يدور في فلك الحكام والأمراء طوال عصور، وجعلها وقودًا يلهب النضال الوطني، واتصلت حياته بحياة الناس شاعرًا ثوريًا مؤمنا بالكلمة وحرية الكلمة.

"أجل إن مصر لشديدة الحاجة إلى شعراء يبكون إذا بكت ويبتسمون إذا ابتسمت وهم فيما بين ذلك ينفثون في النفوس من روحهم ويبثون في الأمم من شعورهم، حتى يشربوا القلوب حب البلاد ويستمطروا مدامع الوجد عليها والكلف بها. هنالك تنهض الهمم وتتوقد العزائم وتعمل النفوس الحرة الأبية على كسر أغلال الظلم وسحق أصفاد الاستبداد. هنالك تتربى في النشء روح الحمية الوطنية والغيرة القومية. فما هي إلا عشية أو ضحاها حتى يبلغ الشعب بقوة شعوره وإرادة شعرائه مستوى الشعوب الحرة الحية. ويدرك شأو الأمم الحرة .... إن الشعراء في كل أمة هم عنوان حياتها ومقياس رقيها ... فليت شعري أين شعراء مصر؟ لقد كثر عددهم وقل مددهم إنه ليوشك ألا يكون منهم عند ذكرى الوطن إلا سيف من يقف موقف المدافع المهاجم يقتحم الصعاب ويهزم الخطوب، يحارب الآلام ويصافح الآمال، يهز العرش إذا شاء ويدك الطود إذا ما أراد. يبنى لقومه بسنان قلمه مجدًا باقيًا وينشر عنهم في الملأ ذكرًا عاطرًا ... أليس من العار أن يقتتل أكثر شعرائنا على الشهوة اقتتالًا ثم ننظر فقلما ترى لهم في موقف الوطنية مجالًا أو مقالًا؟ أليس من الخجل

أن نقيم المظاهرات وننشئ الجمعيات ونسير في سبل الحرية والاستقلال حثيثًا ثم لا نعرف لنا نشيدًا وطنيًا؟"[1].

بل إن الغاياتي حين استكتب الزعيمين محمد فريد وعبد العزيز جاويش تقدمة لديوانه لا نراه يطلب منهما تقريظًا، وإنما يطلب منهما بيان ما للشعر من تأثير كسلاح في معركة التحرر. وكان الغاياتي بأشعاره إلى جانب ذلك ثورة على الشعراء أصحاب النفوس الضعيفة والإرادة المسلوبة، فلم يتقوقع داخل ذاته يلوث أوهامًا وأحلامًا ويجتر أحاسيس مبتذلة، بل راح يصوغ مشاعر الجماهير ويجسم أمالها ويستشرف مستقبلها وظل:

يشـــدو لـــدى ذكـــرى الـــبلاد بشـــعره وســـواه ينشـــد بالقصـــائد جاهـــا

"لهذا أراني فيما نظمت ناطقًا في أكثر المواضع بلسان الرأي العام ممثلًا شعور الأمة أقرب تمثيل، بيد أنى قد يدفعني شعوري الخاص في بعض المواقف إلى الجهر بما لا يجب الجهر به بعض الناس، وذلك لأنني لا أستطيع حكم عواطفي كثيرًا في مثل هذه الشئون المثيرة للوجد الكمين المعلنة للسر المكنون، وأرى مما لا طاقة للنفس على احتماله في هذه الحال إخماد الحقائق الظاهرة ومغالطة الحس ومكابرة الواقع والباس المسائل ثوب الرياء والنفاق"[2].

وقد كان الشعر عند الغاياتي وسيلة لا غاية اتخذه جوادًا يمضى به إلى عوالم جديدة مشرفًا على مستقبل الوطن وتخوم آماله، ولم يكن لهذا يفرغ لشعره لينقحه لقد جعله وقفًا على الوطن العزيز.

ألا في ســـبيل النيـــل مـــا أنا قائـــل وفى ذمـــه الأهـــرام مـــا أنا صـــانع

وحين ترك الوطن مهاجرًا هجر الشعر ولم يكن يعود إليه إلا إذا ألمَّ بالوطن حادث، أو أمضه الشوق إلى مصر فيتفجر عن لسانه سائلًا فورًا:

هـــو في أعمـــاق الجنـــان كمـــين إن دهـــى الخطـــب قـــام فيـــه خطيبًـــا

(١) مقدمة وطنيتي.

(٢) مقدمة وطنيتي.

ويسكت صوت الشعر في أعماقه أربعه أعوام، ثم نشبت الخلافات بين المصريين فيرسل بصيحاته إلى الأهرام لينشرها. وحين تفجرت ثورة ١٩١٩ يرسل بتحيته إلى زعيمها، فإذا انتكست الثورة وبدأت لعبة كراسي الحكم يكتب قصيدته – مصر على شفا جرف هاو- ويقول في مطلعها:

يا مصـــــر ويلـــــك مـــــن بنيـــــك وويلهـــــم خـــــــذلوك والعـــــــادون بالمرصـــــــاد

ويمضه الشوق ويعذبه الحنين إلى أرض الآباء والأجداد:

هـــــيج الـــــنفس ذكـــــر مصـــــر فبـــــا ت عصـــــــــى القـــــــريض ينـــــــتظم

فمصر هي همه فحسب حتى إنه لم يرثَ أبويه ولا أخاه ولا حتى ابنه الوحيد، فالوطن هو الوطن هو الأب والأم والأخ والابن.

وللغاياتى قصيدتان جاءتا نكتة في أشعاره الوطنية الأولى في تتويج فاروق ملكًا أثناء زيارته لمصر شتاء ١٩٣٧، والثانية في جلوسه ١٩٣٨، ولعل ما يعتذر به عن الغاياتي أنه كتبهما ولم تكن مخازي الملك قد ظهرت، كما أنها خلت من مبالغات شعراء هذه الفترة، ثم إن قصيدته الثانية ليست قصيدة بالمصطلح الفني؛ إذ أنها لا تعدو خمسة أبيات، بل إن الروح الثورية لم تفارق الغاياتي؛ ففي القصيدة الأولي يغمز الملك ويغمز أبيه حين يشير إلى ما يعانيه الشعب وما قاساه وإلى ضرورة العمل من أجل هذا الشعب:

ولى عهـــــــد وأتـــــــى عهـــــــد والشـــــعب يقـــــيم علـــــي نكـــــد
يشـــــــقى في الحاضـــــــر والماضـــــــي ويكـــــاد يـــــذوب مـــــن الكمـــــد
إن تســـــــعده تســـــــعد ملكـــــــا ونقمـــــــة علـــــــي غـــــير العهـــــد

هكذا كان الغاياتي مناضلًا ملتزمًا حتى الرمق الأخير ينشد علي صدر جريدته صائحًا مع كل عدد:

باســـم الكتابـــة واســـم شـــعب ناهـــض لا باســـــم أحـــــزاب ولا زعمـــــاء
كـــــل يـــــزول ويـــــنقص أمـــــا الحمـــــى فوديعـــــــــة الآباء للأبنـــــــــاء

*****

مسألة الأزهر

يتفاعل الغاياتي مع قضايا أبناء وطنه ويطالب بالعدل وتحقيق المطالب المشروعة، ففي إبان حركة الإصلاح بالأزهر الشريف في عهد الشيخ حسونة النواوي كانت حادثة الاعتداء على الطلاب الأزهريين؛ حيث اعتصم الأزهريون حتى تجاب مطالبهم العادلة التي كانوا وعدوا بالنظر فيها فعادوا إلى دروسهم، ثم رجعوا للاعتصام في العام التالي حتى تجاب هذه المطالب، وقد نال الأزهر والأزهريين من الإهانة والظلم ما دفع الغاياتي لكتابة قصيدته "مسألة الأزهر" ونشرها في اللواء يوم الجمعة ٢٩ محرم ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م.

يا حمـــــــاة الـــــــدين ويحكمـــــــو ... ودعـــــوا الـــــدين الـــــذي قـــــبرا
إن بيـــــــــــت الله محـــــــــــترم ... كيـــــــــف بات الآن محتقـــــــــرا

ثم يحمل على الجنود الذين أهانوا الأزهريين المعتصمين مؤتمرين بأمر ولاة الأمور:

ويثـــــــور الجنـــــــد بينهمـــــــو ... آمـــــــرا بالســـــــوء مـــــــؤتمرا
ضـــــاربًا مـــــن شـــــاء مقتفيـــــا ... بأذاه مـــــن بـــــه عثـــــرا
وولاة الأمـــــــــــر همهمـــــــــو ... أن يبيـــــــت العـــــــدل منتحـــــرا

وكان من نتيجة ما حدث أن استقال فضيلة الشيخ حسونة النواوي من مشيخة الأزهر حينما رأى من أحقية مطالب الأزهريين وإهمال ولاة الأمر لها بعد أن وعدهم هو بإجابتها، فيصف الغاياتي هذه الأزمة التي تركت الأزهر في اضطراب:

واســـــــتقال الشـــــــيخ فاضـــــــطربوا ... واغتـــــــدى الأزهـــــــر مضـــــــطربا

ثم يندد بخليل باشا حمادة الذي كان مديرًا للأوقاف وأقيل منها عقب ما ظهر من استبداده بالطلبة واستعماله القسوة المتناهية معهم وسخط الأمة بأسرها عليه فيقول:

خلـــــق الظلـــــم لهـــــم رجـــــلا ... حـــــارب العـــــدل ومـــــن عـــــدلا
عشـــــق الجلـــــد وعدتـــــه ... فغـــــدا الجلـــــد لـــــه عمـــــلا
ودعـــــا الجنـــــد لنصـــــرته ... كـــــي يـــــرى الأزهـــــر مقتـــــتلا
فاســـــتحلوا مســـــجدا حرمـــــا ... واســـــتجازوا الحـــــادث الجلـــــلا
وأذاقـــــوا الطـــــالبين أذى ... يعصـــــي أذنـــــت الأجـــــلا

ويطالب ولاة الأمر بالتعقل والتدخل لإدراك الأمور وإلا كان عاقبتهم الندم:

يا ولاة الأمـــــــــــــــر ويلكمـــــــــــــــو أدركـــــــوا الأمـــــــر الـــــــذي عظمـــــــا

فاعـــــــــــدلوا في القـــــــــــوم إنهمـــــــــــو يشـــــــــــتكون الضـــــــــــيم والألمـــــــــــا

واعملـــــــــــــــــوا لله صـــــــــــــــالحة وذروا العبـــــــــــــــاس محتكمـــــــــــــــا

واحـــــــــذروا يومـــــــــا تـــــــــرون بـــــــــه إن أبيـــــــــتم ذلـــــــــك النـــــــــدما

*****

الجامعة الإسلامية والجامعة المصرية

تمثل الشعر الوطني في مصر في أواخر القرن الماضي وأوائل القرن الحالي في اتجاهين أساسيين، هما: اتجاه الجامعة الإسلامية والخلافة التركية، ثم اتجاه الجامعة المصرية.

أما الاتجاه الأول وهو اتجاه الجامعة الإسلامية فقد كانت هذه النزعة هي النزعة السائدة وكانت هي البديل الطبيعي للفكرة القومية بمعناها الحديث، حيث لم تكن هناك مقومات حديثة تسندها ومعنى الجامعة الإسلامية "إنما هو شعور بالوحدة العامة والعروة الوثقى لا انفصام لها بين جميع المؤمنين في المعمور الإسلامي وهى قديمة في أصلها ومنشئها منذ عهد صاحب الرسالة"[١].

وقد كانت أهم الأسس التي تعتمد عليها دعوة الجامعة الإسلامية تتمثل في تلك المبادئ الإسلامية الداعية إلى الوحدة والمساواة والشورى والعدالة، إلى جانب عروبة النبي وعروبة القرآن، وهذا يوضح لنا استناد دعاة الإصلاح إلى الدين الإسلامي ومبادئه، على اعتبار أن تخلفنا كان نتيجة ابتعادنا عن روح الإسلام وأصوله العلمية.

فقد جمع هذا الاتجاه بين الأصول الإسلامية وبين التجديد، وانطلق من مصر في سبعينيات القرن التاسع عشر إلى كل أنحاء العالم الإسلامي وتميزت دعوته بالإصلاح الديني: من منطلق العقلانية الإسلامية التي توازن بين "الرأي" و"الأثر"، والمحافظة على الدولة العثمانية، باعتبارها الدولة الإسلامية الجامعة، وتجديد الصلات الحضارية مع الغرب واقتباس المناسب من حضارتها وعلومها، من واقع التمايز الثقافي والاستقلال الحضاري، وتحرير ثروات العالم الإسلامي من النهب الاستعماري والسيطرة الغربية[٢].

وقد بلغت الخصومة بين الشرق والغرب مبلغًا عظيمًا في تلك الفترة وهي خصومة بين الشرق الإسلامي والغرب المسيحي "فالروح الصليبية كما يقول جمال الدين لم تبرح كامنة في صدور النصارى كموت النار في الرماد، وروح التعصب لم تنفك حية معتلجة في قلوبهم حتى اليوم كما كانت في قلب بطرس الناسك من

(١) لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١، الجزء الأول، ص٦١.

(٢) الأزهر - موسوعة المفاهيم.

قبل"[1]. ويتضح هنا من البلاغ الذي نشرته الدول البلقانية حين أعلنت الحرب علي تركيا ١٩١٢ ولا يشك قارؤه كما يقول الأمير شكيب أرسلان "أنه بلاغ ملوك الصليبين في القرون الوسطي"[2].

وحين اشتدت روح العداء للغرب كان لابد من التطلع إلى دولة كبرى يحتمون بها من سيطرة أوربا الكافرة تكون هي الحامية لبيضة الإسلام. ومصطفى كامل يرى "أن بقاء الدولة العلية ضروري للجنس البشري، وأن في بقاء سلطانها سلامة أمم الغرب وأمم الشرق، وقد أحس الكثيرون من رجال السياسة والإعلام أن بقاء الدولة العلية أمر لازم للتوازن العام وأن زوالها لا قدر الله مجلبة للأخطار ومشعلة لنار يمتد لهيبها بالأرض شرقًا وغربًا، وشمالا وجنوبًا، وأن هدم هذه المملكة القائمة بأمر الإسلام يكون داعية لثورة عامة بين المسلمين وحرب دموية لا تعد بعدها الحروب الصليبية إلا معارك صبيانية، وأن الذين يدعون لخير النصرانية في الشرق يعلمون قبل كل إنسان أن تقسيم الدولة العلية أو حلها يكون الضربة القاضية على مسيحي الشرق عمومًا قبل مسلميه، فقد أجمع العقلاء البصيرون بعواقب الأمور على أن دولة آل عثمان لا تزول من الوجود إلا ودماء المسلمين تجري كالأنهار والبحار في كل واد"[3].

فقد رأى مصطفى كامل أن وواجب المسلمين أن يلتفوا أجمعين حول راية الخلافة الإسلامية المقدسة، وأن يفدوها بالأموال والأرواح ففيها حفظ كرامتهم وشرفهم، ومن أجل ذلك لم يثر العرب علي الحكم العثماني برغم استبداده وبطشه، وإن كان هذا الولاء المطلق سيضعفه تمادى تركيا في الضعف ووقوع أكثر أجزاء الوطن العربي تحت سيطرة الاستعمار الغربي، ثم مساوئ الحكم العثماني خاصة بعد انتشار الدعوة الطورانية، ومحاولة التتريك للشعوب العربية.

ومن هنا بدأت الدعوة القومية العربية تطفو علي سطح الفكر العربي وإن بدأت الدعوة خافتة وعلى استحياء؛ حيث لم تجد قبولًا أول الأمر، حتى لنجد أن من أسباب نكسة الثورة العرابية تعود إلى ذلك المنشور الذي أصدره الخليفة بإعلان عصيان عرابي.

وسار الاتجاهان جنبًا إلى جنب حيث لم يكن بينهما تعارض كبير، وارتفع صوت الكواكبي مناديًا بخلافة عربية لأنه (لا يفلح عرب ملوكها عجم) يكون مقرها الحجاز.

(١) محمود أبو رية، جمال الأفغاني، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٦، ص ٤٣/٤٢.

(٢) المرجع السابق، ص ٤٤.

(٣) مصطفى كامل، المسألة الشرقية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢، ص ١٥-١٦.

إزاء هذا الخطر الجديد – خطر القومية العربية يكتشف السلطان عبد الحميد السياسة الرشيدة التي تمكنه من الاحتفاظ بالإمبراطورية العثمانية المتداعية من الانهيار، "وذلك بالاتجاه إلى تقوية فكرة الجامعة الإسلامية ونشر شعاره المعروف (يا مسلمي العالم اتحدوا)"[1].

وقد وصف كرومر هذه الرابطة الإسلامية بصفة التعصب الديني، وإذن فموالاة تركيا ومدح الخليفة لم يكن في الحقيقة إلا موالاة لدولة الخلافة وتمسكًا بالخليفة الذي يلي أمرهم، ومن هنا لم يخل ديوان من دواوين الشعراء المعاصرين لهذه الفترة من شعر في مدح الخليفة وحروب السلطنة مناوأة منهم للإنجليز، وقد اتسمت أشعارهم جميعًا بالمبالغة في مدح الخليفة فشوقي يقول:

إيه عبد الحميد جل زمان ... أنت فيه خليفة وإمام
عالم لم يكن لينظم لولا ... أنك السلم وسطه والوئام

ويقول فيه محرم:

لولا حزامته وشدة بأسه ... ومضاؤه لتضعضع الإسلام

وينزله نسيم منزلة كبار الصحابة:

خليفة الله يا بن الغر من نجب ... لله درك يوم الروع من عضد
جاهدت في الملك تحميه وتحفظه ... جهاد طه مع الأنصار في أحد[2]

أما عبد المطلب فيرى في بقائه بقاء الإسلام وعزته:

لولا أمير المؤمنين يحوطها ... لرأيتها خبرا من الأخبار[3]

أما الغاياتي فلا يغلو في مدح الخليفة غلو هؤلاء جميعًا بل هو لا يمدحه إلا بعد إعلان الدستور، وكأنه لا يرى في الخليفة بغير دستور إلا حاكمًا مستبدًا، وإن كان ينظر إليه نظرة إجلال وإكبار كما يقول الغاياتي مخاطبًا عبد الحميد بعد إعلان الدستور ١٩٠٨:

(١) محمود أبو رية، مرجع سابق، ص ١٣٦ و١٣٧.

(٢) ديوان أحمد نسيم، ص ٩٤.

(٣) ديوان محمد عبد المطلب.

أمـــــير المـــــؤمنين مضـــــت قلـــــوب إليـــــك يحثهـــــا الحـــــب المكـــــين
تؤمـــــل أن تـــــراك لهـــــا معينـــــًا وأنـــــت لهـــــا علـــــي الـــــدهر المعـــــين

ولم يبخل الشعراء على الأتراك بنعتهم بأحسن نعوت المدح وخلعهم أقوى صفات التمجيد فحافظ إبراهيم يقول عنهم:

أســـود علـــي البوســـفور تحمـــى عرينهـــا وترعـــى نيـــام الشـــرق والغـــرب يرقـــب

ويرى محرم أنهم أحق بالخلافة:

مـــا للخلافـــة إلا الـــترك تحرســـها الله يحرســـهم في آل ياســـين

وكان الشعراء يعلقون أكبر الآمال على تركيا في تحرير مصر من الاستعمار الإنجليزي ويتطلعوا إلى الخليفة راجين فيه العون حينًا عاتبين أحيانًا، يقول شوقي مخاطبًا عبد الحميد:

فمصـــــر وأنـــــت بالحـــــب أدرى بـــــك يا حـــــامى الحمـــــى استعصـــــام

ويقول أيضًا:

فـــلا زلـــت كهـــف الـــدين والهـــادي الـــذي إلى الله بالزلفـــى لـــه نتقـــرب

ويعاتب حافظ العثمانيين:

يا آل عثمـــان مـــا هـــذا الجفـــاء لنـــا ونحـــن في الله إخـــوان وفي الكثـــب
تركتمـــونا لأقـــوام تخالفنـــا في الـــدين والفضـــل والأخـــلاق والأدب

ويخاطب الكاشف الخديوي:

إن اتصـــالك بالخليفـــة ضـــامن رد المغـــير مروعـــا مغلـــوبا

ويقول في ختام قصيدة عيد جلوس السلطان عبد الحميد سنة ١٩٠٣، بعد أن بدأها بالعتاب لانصراف الترك عن مناصرة مصر:

إني وإن كنت في سخط لمعترف بأنكم لو نصرتم مصر تنتصر

أما الغاياتي فيقول مخاطبًا الخليفة في عيد الدستور العثماني ١٩٠٨ شاكيًا مساوئ الاحتلال عاتبًا تقاعس الأتراك عن مناصرة مصر:

فيا أمل القلوب إليك مصر تشير وبين جنبيها حنين
تحن إليك يا رب المعالي وقد حلت بساحتها الشجون
رمتها الحادثات بشر قوم لهم في كل مظلمة شئون
قضت في عصرهم مصر ولولا رجاء فيك ما قرت عيون
فأعزز يا حمى الإسلام شعبا بعزك لا يذل ولا يهون

وحين تجبر يد البطش الغاياتي على الفرار والهجرة، يولى وجهه صوب دولة الخلافة، وينشر في ٩ رمضان ١٣٢٨ قصيدته – مصر ودار السعادة – بجريدة (دار الخلافة) التي كان يشرف علي إصدارها وهو يرى في عاصمة الخلافة الملجأ الأمين الذي نلوذ به:

دار السعادة هل أتاك مخبر يشكو لديك شقاء مصر وينشر؟
النيل من حمر المدافع فائض والوجد في أحشائه ينسعر
لهفي علي النيل الحزين وشعبه وفؤادي المضني به يتفطر

ويروح يدعو المصريين للثورة على أعداء البلاد جميعا استعمارًا وأذنابًا، ثم يشكو دولة الخلافة ما حاق بمصر من مظالم وما حل بها من استبداد ويستعديها علي الإنجليز:

دار السعادة إن مصر شقية والناس فيها قاصر ومقصر
مازال عادى القوم يرمى سهمه فينال من عز البلاء ويقهر
دار السعادة أنت رجائنا وقلوبنا في روض حبك تزهر
دار السعادة طال ليل شقائنا فمن نرى فجر الهناء ونبصر؟
إنا كرهنا العيش في أوطاننا والله بين الجاريين ميسر

وبينما كانت يد الغضب توشك أن تنال الخليفة ودولة الخلافة إذا بالدستور العثماني يصدر فيستقبله الشعراء بالترحيب مؤملين العز في كنفه والحرية في حماه يقول شوقي:

بشـــــرى البريـــــة قاصـــــيها ودانيهـــــا حـــــاط الخلافـــــة بالدســـــتور حاميهـــــا

ويقول الكاشف من قصيدة طويلة:

دار الخلافـــــة حاطـــــك البوســـــفور وأجـــــل قـــــدرك في الـــــورى الدســـــتور

ويرتفع صوت الغاياتي بقصيدته التي يقول في مطلعها:

أمـــــير المـــــؤمنين مضـــــت قلـــــوب إليـــــك يحثهـــــا الحـــــب المكـــــين[1]

وفيها يقول:

منحـــــت الدولـــــة الدســـــتور عـــــدلا فخابـــــت مـــــن أعاديهـــــا الظنـــــون

لكن الفرحة بالدستور لا تطول؛ إذ ينكث عبد الحميد ويقوم رجال الجيش بإسقاطه، وترتفع أصوات الشعراء بين مشفق وعابث شامت.

أما شوقي فيرى الخليفة في مصابه هذا أولى بباك أو عزيز، وإن كان هذا لم يمنعه من توجيه اللوم إليه في ختام القصيدة لتمسكه بحكمه الفردي واستبداده، أما حافظ فيلتمس للسلطان المخلوع العذر ولا يذكر له إلا حسناته لأن الكمال محال:

شمتـــــوا كلهـــــم ولـــــيس مـــــن الهمـــــ ـــــة أن يشـــــمت الـــــورى في طريـــــد

ولكن يعود بعد ثلاثة شهور فقط في الاحتفال بعيد الدستور فيشمت في السلطان ويهاجمه ويندد بمظالمه:

مضـــــى عهـــــد الاســـــتبداد وانـــــدك صـــــرحه وولـــــت أفاعيـــــه وماتـــــت عقاربـــــه

ويلتمس محرم للسلطان العذر فبرره بفساد الحكم في عهده ويحمل بطانته الفاسدة المسئولية:

أكـــــل مآتيـــــه ذنـــــوب؟ أكلـــــه عيـــــوب؟ ألا مـــــن منصـــــف إذ نحاســـــبه

(١) وطنيتي/٥٥.

ويعارض ولي الدين يكن، وقد كان معروفًا بعدائه للسلطان قصيدة شوقي التي يقول في مطلعها:

سـلْ يلدزا ذات القصور ... هل جاءها نبأ البدور؟

بقصيدته التي يبدؤوها بقوله:

هاجتك خالية القصور ... وشاجتك آفلة البدور

ويعدد مساوئ الحكم الحميدى ومطاردته للأحرار ويتشفى فيه:

من كان يستحلي الشرور ... يموت من تلك الشرور

أما الغاياتي الذي لم يذكر الخليفة في شعره إلا بعد إعلان الدستور، فكان من الطبيعي أن تراه شامتًا بالخليفة، مشيعًا إياه باللعنات؛ لأنه نكث بالدستور وعطله.

وفي تقديمه لقصيدته (عهد الآستانة) نراه يعطف علي الأحرار الدستوريين الذين خلصوا البلاد من هذه الطغمة الفاسدة، وبذلك "اندحر الرجعيون وأشياع التقهقر ونالهم الخزي والخذلان بخلع السلطان عبد الحميد الذي كان حاكما بأمره مطلق التصرف في أموال العباد وأرواحهم"، ويسخر من اختفاء السلطان في آخر غرفة من غرف الحريم وهو يرتجف فرقًا:

لم يدرك السلطان في قصره ... ما أدرك العسكر من أمره
ولم يهب من دهره سطوه ... حتى دهاه الخطب من دهره
حاربه الدهر على عزه ... وضاقت الأقدار عن نصره
وأبصر الموت محدقا ... من بره يسعى ومن بحره
ومدت الأيدى إلى العرش ... وأوشكت تمتد في نحره
وأدخل السجن ليقضى به ... آخر ما أبقاه من عزه
هان ما أكبر من عزه ... وذل ما أكثر من كبره
لله ما أوفى الجنود التي ... قضت علي الظلم في ظلمه
وقيدت عبد الحميد الذي ... كم جار بالإطلاق في قومه
ولم يتحل يوما يلاقى به ... جزاء ما قدمه في يومه
فليت شعري ما رأى عندما ... أسلمه الدهر إلى خصمه

وبات في قصـــــــــــر ســـــــــــلونيك لا ... يرجـــــو مـــــن القصـــــر ســـــوى ســـــلمه
وأيقـــــــــظ الله الأمـــــــــير الـــــــــذي ... قضـــــــى نشـــــــاط العمـــــــر في نومـــــــه
فبـــــــات ســـــــلطانا لـــــــه دولـــــــة ... ســـــــلطانها الدســـــــتور في حكمـــــــه

ويعلق الغاياتي على البيت الأخير بقوله:

"الملك في الحكومة الدستورية ليس له من الأمر سوى التوقيع على ما تريد الأمة، ويسير بإرادتها، فلا غرو إذا أصبح الأمر كله من الأمة وإليها، وكان الملك أشبه بممثلها في الدولة وواسطة لعقد نظامها".

ويكتب الغاياتي في قصيدته الطويلة (دار السعادة) حين يهاجر من مصر فرارًا من بطش المحتلين واستبداد الخديوي عباس الثاني الذي عقد عروة ود ومصافاة مع الإنجليز، وهو في القصيدة شامت بمصير عبد الحميد الذي أوصله طمعه واستبداده، وتنبأ للخديوي الشاب بمثل هذا المصير، لأنه أعاد مظالم عبد الحميد ومساوئ حكمه وكأن استبداد عبد الحميد أصبح مثالًا ونموذجًا:

يأهـــــل مصـــــر أصـــــابكم في مصـــــر مـــــا ... قـــــد كـــــان عـــــن دار الســـــعادة يـــــؤثر
عبـــــــد الحميـــــــد بعابـــــــدين كـــــــأنه ... في يلـــــــذر ينهـــــــى هـــــــواه ويأمـــــــر
مـــــــالي أراه في الكنانـــــــة مـــــــاثلا ... وأرى أمـــــــير النيـــــــل عنـــــــه يخـــــــبر؟
وأرى المحـــــــاكم بالمظـــــــالم أغريـــــــت ... وكأنهـــــــا باســـــــم الأمـــــــير تغـــــــرر

ويصرخ في وجوه المصريين أن يقتدوا بما يفعله إخوانهم من الأحرار الدستوريين:

يا غـــــــارة الشـــــــعب الأبي تقـــــــدمي ... فلأنـــــــت أولي بالعـــــــداة وأجـــــــدر

وقد كان الغاياتي في هذا مغبونًا كأغلب شعراء وأدباء عصره، الذين ندموا بعد ذلك أشد الندم على سقوط الخلافة وتوسموا في محاولات إصلاحها خيرًا، وما دروا أنها كانت محاولات للإسقاط وليس للإصلاح كما ادعوا.

ومن إسلاميات الغاياتي، قصيدته الطويلة التي سماها "فتنة دمياط"، والتي سخر فيها من بعض الشيوخ المتعصبين مدعى العلم، ودافع عن الإسلام دين الحرية والعقل. كما أن رثاءه للأستاذ الإمام والشيخ علي يوسف وحسن عاصم، هو تعبير مكثف عن نزعته الإسلامية وعاطفته الدينية الفياضة، يقول عن الشيخ محمد عبده مخاطبا أحد الشيوخ الذين أنكروا فضل الإمام:

ولـــــئن أقـــــام اليـــــوم في جناتـــــه فلأنـــــت ثاو بعـــــده بالبلقـــــع
والمـــــوت لـــــيس بهـــــادم آثار مـــــن أودى ولـــــيس لفضـــــله يضـــــيع
لا ســـــيما فضـــــل الإمـــــام لأنـــــه باق علـــــي الأيام غـــــير مزعـــــزع

أما الشيخ علي يوسف فإن موته يذكره بموت الإمام ومصطفى كامل:

راح الإمـــــام وولى مصـــــطفى ومضـــــى إلى ســـــبيلهما جمـــــع بهـــــا ســـــرا
وكـــــان بعـــــد همـــــة للنيـــــل تعزيـــــه لـــــو دام فيـــــه (علـــــي) يجـــــبر الكســـــرا
وكـــــان للـــــدين الـــــدنيا إذا نزلـــــت بهـــــا الخطـــــوب حســـــاما حـــــالف النصـــــرا

*****

الجامعة المصرية

بدأت الفكرة القومية الإقليمية في القرن التاسع عشر، ووصلت مصر والبلدان العربية أواخر القرن نفسه، وبدأت تنتشر أكثر في أوائل القرن العشرين.

وكانت الفكرة القومية تسير جنبًا إلى جنب مع فكرة الجامعة الإسلامية التي تحدثنا عنها في الفصل السابق، ويبدو أن الدعوة إلى الوطنية المصرية كانت "نتيجة تسلط العنصر التركي واستئثاره بكل خير وأنها كانت تستهدف إنشاء رابطة عاطفية بين المصري وأرضه تحفزه علي الاهتمام بأمره والعمل على رفعته"[1].

وحين نمت هذه العاطفة وتعمقت القلوب سرت في دماء الناس حمية الوفاء واشتعلت نفوسهم بالغضب علي الغاصبين، كما نرى في كثير من قصائد صالح مجدي، لا سيما في تلك المزوجات الخمس عشرة التي سماها الوطنيات – والتي ذيل بها ديوانه– من مثل قوله في الوطنية التاسعة:

بامتـــــــــداح الصـــــــــدر غنـــــــــوا فهـــــــــي للأوطـــــــــان حصـــــــــن
وهـــــــــو للإيمـــــــــان ركـــــــــن ولكـــــــــم في الخـــــــــوف أمـــــــــن

وإن كان يعاب عليه أنه ربط في ميادين الوقائع حب الوطن بشخص سعيد باشا، ولم يكن صالح مجدي منافقًا أو كاذبًا، لقد أهداها لسعيد باشا، وهو من جهة كان يعمل لمصلحة مصر، فهو أول من رعى الوطنية المصرية، وأول من مصَّر الجيش المصري منذ انهيار الإمبراطورية المصرية في أواخر العصر الفرعوني، وأتاح للمصريين فرص الترقي، وفرض التجنيد الإجباري على القادرين والفقراء.

يقول عرابي في مذكراته بعد استماعه لخطبة سعيد باشا بقصر المنيل والتي أشاد فيها بماض مصر (فلما انتهت الخطبة خرج المدعوون من الأمراء والقضاة غاضبين حانقين مدهوشين مما سمعوا، أما المصريين فخرجوا ووجوههم تتهلل فرحًا واستبشارًا، أما أنا فاعتبرت هذه الخطبة أول حجر أساس في نظام مصر للمصريين، وعلى هذا يكون المرحوم سعيد باشا هو واضع أساس هذه النهضة الوطنية الشريفة في قلوب الأمة المصرية الكريمة"[2].

(١) الدكتور محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الجزء الأول، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٤، ص ٧٥.

(٢) مذكرات عرابي.

ولقد كتب عرابي هذه الآراء بعد الثورة، ولعل في ذلك ما يدعو إلى ضعف الثقة في قيمتها عند بعض المؤرخين، كما هو الحال مثلًا في مذكرات نابليون التي كتبها في منفاه في سانت هيلانة، فلقد أخذها بعض المؤرخين على أنها دفاع من جانب نابليون عن أعماله بعد أن خلا إلى نفسه فنظر وتدبَّر[١].

وترتفع هذه النغمة في شعر البارودي، ثم تهب ريح الفشل علي الثورة العرابية وتمتلئ القلوب رهبة من السياسة وتطارد تهمة العرابية الناس جميعًا، بل وتطارد الأدباء والزعماء، فيفر البارودي ويتنكر محمد عبده، وإن ظل الصوت العرابي الوحيد صوت النديم مدويًا في الأسماع مجلجلًا في الآذان، حتى أفاقت الأمة من الغفوة وتنبهت من الغفلة وتمثلت قيادة الحركة الوطنية أوائل القرن العشرين في فريقين:

اعتمد أولهما على العاطفة، واستند الثاني إلى العقل. أما الفريق الأول فأبرز دعاته مصطفى كامل الزعيم، والغاياتي ومحرم الشاعران، وأما الفريق الثاني فأعضاؤه أعضاء حزب الأمة من الأعيان الذين اتخذوا العقل وسيلة لإقناع المصريين بمهادنة الاحتلال من حيث إن (المصلحة) تقتضى محاربة النزعة العثمانية، وقد أقاموا القضية الوطنية علي أساس المنافع وهو مركز المصلحة العامة للجماعة.

ولم يكن لأصحاب هذا الاتجاه العقلي، وأيضا أصحاب المقطم أنصار من الشعراء اللهم إلا الشاعر نسيم الذي أشاد بعدالة الإنجليز واللورد كروم، وهاجم الحزب الوطني لأنه يثير الأمة ضد الاحتلال، ذلك أن هذا النحو من السياسة –وهو الاعتماد في النضج السياسي على التعليم والتربية- "برنامج عقلي لا برنامج شعوري، وهو قلما ينجح في الدعوة السياسية؛ إنما ينجح فيها من يعتمد علي الشعور والتهاب العواطف"[٢].

واعتمد الفريق الأول على العاطفة يبث فيها في نفوس المصريين حب الوطن ويدفعهم إلى بذل الجهود لتحريره، ويقرن مصطفى كامل الوطنية بالدين ويراهما "توأمين متلازمين وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبًا صادقًا ويفديه بروحه وما تملك يداه"[٣].

وحديثه العاطفي عن الوطن واضح في خطبه وكتاباته وهو حديث "أشبه الأشياء بحديث العاشق عن معشوقته والذي يصور فيه هيامًا روحيًا صادقًا هو أقرب للأشياء التي شبهها بهيام المتصوفة"[٤] حتى ليطلق

(١) محمود الخفيف، أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٨، ص ٢٢.

(٢) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥، ص ٢٩٥.

(٣) الدكتور محمد حسين، مرجع سابق، ص ٨٢.

(٤) المرجع السابق، ص ٨٦.

عليه هيكل "شاعر الوطنية العظيم"[1]؛ حيث اعتمد على أسلوب جديد في الخطابة لم يكن مألوفا من قبل وهو الأسلوب الوجداني الذي امتازت به خطابات الثورة الفرنسية، هذا الأسلوب المعتمد على الجمل الضخمة التي تندفع بها المجاميع من غير رؤية عادة إلى الغاية التي يريدها الزعماء[2].

وقد كان الشعر الوطني في تلك الفترة أنواع ثلاثة: وطنية الأطلال والدين، وأصحابه يلوكون الماضي اعتزازًا بأمجاده وعجزًا عن مواجهة الحاضر هروبًا من تبعاته، ثم وطنية اليأس والانطواء والعزلة واجترار الأحزان، وقد اتجه أصحابه إلى الدهر يحملونه ما يقاسون وصوبوا سخطهم إلى الزمان العادي ويوقعون على قيثارة الشعر أنغامًا حزينة بكاء علي ظلم المستقبل وبرمًا بالحياة، وعلى أيدي الفريقين ظهرت من جديد المدائح، وكلاهما سلبي لا يقدم حلًا ولا يشارك الشعب آلامه، وأخيرًا وطنية المستقبل وهى بذر مصطفى كامل حمل لواءها الغاياتي ومحرم والكاشف.

أما الكاشف فنراه يصوغ بعض عبارات الزعيم شعرا من مثل قوله:

لـــو كنـــت في الخلـــد أو في غـــيره ملكـــا وددت لـــــو أنى في مصـــــر إنســـــان

أو قوله:

ومـــا معـــنى القنـــوط وأنـــت حـــي ومـــا معـــنى القنـــوط مـــع الحيـــاة

وأما محرم فيتغنى بحب مصر في كثير من قصائده يقول:

ألي في الهـــوى مـــالي وللائـــم العـــذر أمـــا يعلـــم اللـــوام أن الهـــوى مصـــر
فـــإن يســـألوا مـــا حـــب مصـــر فإنـــه دمـــي وفـــؤادي والجـــوانح والصـــدر

ويقول في قصيدته (مصر في تاجها الجديد):

بـــلاد حبتـــني أرضـــها وسماؤهـــا حيـــاتي وأجـــرى نيلهـــا في فمـــي الـــدرا

ومحرم كثير التغني بالنيل حتى ليهدي إليه ديوانه.

(١) محمد حسين هيكل، تراجم مصرية وغربية، دار ناشرون، الجيزة، ٢٠١٧.

(٢) المرجع السابق.

أما الغاياتي فديوانه (وطنيتي) يشهد علي حبه لمصر وهيامه بها، فهو صحيفة اتهام للمحتل والضالعين معه، ووقود مستمر لمعركة التحرير في مختلف أطوارها.

والمظاهر الوطنية المصرية عند الغاياتي تتمثل في تشبيبه بمصر، وحنينه إلى ربوعها، وإحيائه لمآثرها واحتفائه بنشيدها القومي وبتوفيقه بين عنصري الأمة من قبط ومسلمين، وكذلك في مهاجمته لأعداء البلاد: عملاء وخونة ومستعمرين، وإشادته بأبطال الوطنية وزعماء النضال، وهذا ما سنفصله في الصفحات التالية.

*****

حب مصر والتشبيب بها

مصر جنة الله في أرضه، والحضارة وليدتها والنيل مرضعها، وهى أمنا المقدسة وظئرنا ودارنا ومهدنا علي ضفافها نشأنا ودرجنا وحول مسابح نيلها عشنا وطعمنا، تصفو متونه صفاء سرائرنا، ويمتد مجراه امتداد آفاق مطامحنا. وقد كان الغاياتي مصري المولد والنشأة وكانت نفسه في جوهرها مصرية، ومن هنا كانت قطعة من النفس المصرية وداعة وبساطة ورقه وتسامحًا، ثم إباء وأنفه ونزوعًا للحرية وثورة على الظلم.

ويتجلى في شعر الغاياتي روح الحب الخالص لمصر والشجو الحزين على ما أصابها علي يد الاستعمار، وإنه ليستعذب الألم والشقاء في سبيل هذا الحب، كما أن الديوان يفيض بالحب لمصر وتقديس ربوعها ومغانيها وبالثورة علي المحتلين والضالعين، وهو لهذا لا يكتب إرضاء لنفسه أو لفنه بل يكتب ما يكتب من شعر من أجل الوطن: نيله وناسه:

ألا في سبيل الله ما أنا قائل ... وفي ذمة الأهرام ما أنا صانع

وأول ما يطالعنا في الديوان قصيدة "طيف الوطنية":

في سلام الليل حاربت المناما ... فسلاما أيها الطيف سلاما
مرحبا بالزائر الساري إلى ... مضجع الحب يحيي المستهاما
ليت شعري هل رأى في مضجعي ... شبحا يشكو إلى الله السقاما؟
وهل الدمع الذي أغرقني ... كان عند الطيف دمعا أم ضراما؟
وهل النجم الذي أرصده ... أبصر الزائر في عيني فهاما؟
كل شئ بات حولي مغرما ... أينما أبصرت ألفيت الغراما
لست أشكو الهجر من فاتنة ... تشتكى مثلى ولوعا وهياما
نحن صنوان قضينا حقبة ... في ربوع النيل تستند الغماما

ثم يطلقها حممًا في وجوه المحتلين:

إنما الشعب الذي يرجو العلا ... ليس يرضي من أعاديه اهتضاما
كتب النصر لشعب ناهض ... في سبيل المجد لا يخشى الحماما

وما يلفت النظر في هذه القصيدة كما يقول الدكتور محمد حسين "كثرة كلامه عن الشعب، وهي كلمة برزت في قاموس الشعر، واقترن ظهورها بظهور الحركة الوطنية الجديدة، فأصبح شعراؤنا يستعملونها في مقابل مرادفها القديم -الرعية-"[1].

وتأتى بعد هذه القصيدة مقطوعة جعل عنوانها "وطني يناجى ربه" يقول:

رب إن الـــــبلاد أرهقـــــها الظلـــــ ـــــم وحاقـــــت بأهلهـــــا البأســـــاء
رب إن الصـــــدور أحرجهـــــا الوجـــــ ـــــد وأودت بحلمهـــــا الأرزاء
فتـــــدارك بلطفـــــك النيـــــل حـــــتى لا تجـــــاري حيـــــاة مصـــــر دمـــــاء

ومن القصائد التي تفيض هوى بمصر قصيدة "آهة مصري ينوح علي مصر":

آه كـــــم أنـــــة وكـــــم حســـــرات آه كـــــم زفـــــرة وكـــــم عـــــبرات
طـــــال ليـــــل الـــــبلاد والشـــــعب ســـــار لا يـــــرى غـــــير هـــــذه الظلمـــــات
يشـــــتكى الشـــــعب والقضـــــاة خصـــــوم فلمـــــن يشـــــتكى خصـــــام القضـــــاة؟
بـــــين جـــــانبي مســـــهد مســـــتهام لـــــيس يشـــــكو هـــــو فـــــتى أو فتـــــاة
همـــــه مصـــــر خـــــير أرض أقلـــــت بعـــــد خـــــير الهـــــداة شـــــر البغـــــاة
طلـــــع الـــــنحس بالشـــــقاء عليهـــــا ودهاهـــــا الزمـــــان بالـــــويلات
قهرتهـــــا يـــــد الطغـــــاة وكانـــــت مصـــــر أولى بقطـــــع أيـــــدي الطغـــــاة
ليـــــت شـــــعري مـــــالي أنـــــوح علـــــي مصـــــ ـــــر بقلـــــب ومقلـــــة ودواة
وأرى الشـــــعب ناهضـــــا يتنـــــاجى بقلـــــوب كثـــــيرة الخفقـــــات

وقصيدة (نحن والاحتلال): فيها أسى على ما وصلت إليه مصر، وفيها ثورة على الاحتلال، وفيها إثارة لنفوس المصريين بإباء الذل والثورة علي المستعمر يقول الغاياتي:

كفكـــــي يا مصـــــر دمـــــع الوجـــــل وارتقـــــب يا نيـــــل نيـــــل الأمـــــل
جـــــاوز الصـــــبر المـــــدى والصـــــدر لم يبـــــق فيـــــه الوجـــــد مـــــن محتمـــــل
ضـــــجت الأهـــــرام في موقفهـــــا وجـــــرى النيـــــل بـــــدمع هطـــــل
دالـــــت الأيام واحتـــــل الحمـــــى ظـــــالم عـــــن ظلمـــــه لم يـــــنم

(١) الدكتور محمد حسين، مرجع سابق، ص ٨٧.

لا رعـــــاه الله مـــــن مغتصـــــب ... أشـــأم اليـــوم نـــذير الـــنقم
ورعـــى النيـــل وجـــرى مـــاؤه ... ضـــاحك الوجـــه بشـــير الـــنعم
أيهـــا الشـــعب أفـــق ولى الظـــلام ... ولاح النـــور للمستبصـــر
فـــدع النـــوم وقـــف مســـتخبرا ... هـــل لمصـــر في الـــورى مـــن خـــبر
هـــذه مصـــر وهـــذا ذكرهـــا ... ناطـــق الآيات باق الأثـــر

وهذا الحب لشعب مصر ومصر جعله يهاجر إلى حيث يشرع قلمه، وقد زادته الهجرة صلابة وثورة، فحين تطأ قدمه أرض الآستانة يستعديها على المحتلين ويبث إليها ما حل بالوطن:

دار الســـعادة هـــل أتاك مخـــبر ... يشـــكو لـــديك شـــقاء مصـــر وينشـــر؟
النيـــل مـــن حمـــر المـــدافع فـــائض ... والوجـــد في أحشـــائه يتســـعر
لهفـــي علـــى النيـــل الحـــزين وشـــعبه ... وفـــؤادي المضـــني بـــه يتفطـــر

وفي قصيدته (هجرتي بعد وطنيتي) يصور لنا ما كان يعانيه من أرق وسهاد يفكر في الوطن الصريع تحت حراب الإنجليز يقول:

ولمـــا أرادوني وأقبـــل جيشـــهم ... إلى الفـــرار يغتـــال الخطـــى ويتـــابع
رأى الـــدار لا تـــدرى إلى أيـــن ربهمـــا ... تـــولى ولا تـــدرى مـــتى هـــو راجـــع
وقـــد صـــمتت والوجـــد في صـــفحاتها ... يســـطر مـــا تملـــى عليـــه المضـــاجع
مضـــاجع كانـــت للكـــرى في عشـــية ... للســـهد في ليـــل جفتـــه المطـــالع
وكـــم كانـــت أفضـــى للظـــلام بلـــوعتي ... وأوقـــظ فيـــه الشـــعر والحـــي هـــاجع
وأذكـــر في بـــيض الصـــحائف أمـــتي ... واحنـــوا علـــى مصـــر ودمعـــي هـــامع

وكان حب الغاياتي للوطن يجعله يشتد في مصارعة المحتلين ومهاجمتهم، وقد كتب الغاياتي نشيدًا وطنيًا تمنى أن يصبح نشيد مصر الوطني تردده الجماهير وتعتصم به وتستمد منه العزم والاحتمال.

وحبه لمصر يجعله يحب فرنسا التي كانت سندًا للحركة الوطنية لفترة من الفترات، فهو يختتم مقدمته للديوان بقوله "فحيا الله فرنسا فقد أفاضت على الأمم من معين الحرية عذبًا وجاهدت في سبيل الوطن جهادًا وعت القلوب ذكره وشربت النفوس حبه"، وينتهز مناسبة فيضان السين الذي أغرق باريس ١٩١٠ ويكتب قصيدة يرثي فيها (باريس) ويجعل عنوانها السين يضطرب والنيل ينتحب يقول فيها:

يا عـــــــــروس الغـــــــرب لا نزلـــــــت بحمـــــــــــــــاك الكـــــــــــــــرب

ليـــــت شـــــعري هـــــل طغـــــى نهـــــر أم أفاضـــــــــت دمعـــــــــي الســـــــحب

إنا ذو وجـــــــد عليـــــك فلـــــو جـــــف دمعـــــــــــي راعـــــــــك اللهـــــــــب

لي فـــــــــؤاد فيـــــــــك ذو ولـــــــــه كـــــــاد مـــــــن لوعاتـــــــه يثـــــــب

*****

الحنين في شعر الغاياتي

كانت هجرة الغاياتي فرارًا بعقيدته السياسية بعيدًا عن أرض الوطن أمرًا صعبًا على نفسه؛ فالوطن بالنسبة له هو الجسد الذي يضم روحه، وليس أبغض على النفس من ترك الأهل والرحيل عن الديار، وقد ارتفعت بعد هجرته الأصوات تقربًا للسلطات مطالبة بإعادته إلى الوطن جزاء أشعاره وجزاء فراره وهو يرد علي الذين اتهموه بالجبن والانهزامية:

وما هجرتي من مصر هجرة هاجر ... لها أو جبان روعته الروائع
ولكنها والشعب يشهد هجرة ... لها أثر بين المحامد شائع
ولو أن في سجني لقومي حاجة ... لما روعتني في رجاه الفظائع

كان شوق الغاياتي للوطن جارفًا وحنينه لربوعه قويًا وصادقًا أكثر صدقًا من شوق البارودي لمصر وحنين شوقي للوطن. لقد خالط الحنين والشوق للوطن عندهما حسرة على نعيم زال وعلى سلطان انتزع، أما الغاياتي فقد ترك وطنه بلا مال ولا نشب، ولكنه ترك ما هو أعز من المال والنشب، ترك الأرض التي عاش فوقها وتنفس، والنيل الذي روى منه وشرب والأهل الذين عاش بينهم وغنى لهم. ترك معاهد طفولته ومدارج صباه ومسارح فتوته وحين وطئت قدمه أرض تركيا غلبه الحنين وفاض الشوق بقلبه.

فراح يذكر مصر على صفحات جريدة – دار الخلافة – التي تولى تحريرها يستنهض الهمم لتخليصها من أيدي المحتلين ويهزه الشوق إلى مصر فيكتب بحرارة المحب وشوق العاشق:

ما لي لدى الذكرى نثرت مدامعي ... وأخذت أنظم في الدجى ما أنثر؟
الليل أذكر في البلاد وحظها ... والبحر حولي كالغضنفر يزأر
ليل وبحر بين أمرهما فتى ... في أمر مصر له حجا يتفكر
قد هيج الوجد الكمين بصورة ... نجم يطل على الخضم وينظر
يا نجم هل بعد التنائي عودة ... للنيل والشعب الأسير محرر؟
يا نجم هل أقضي الحياة مهاجرا ... من قبل ما أقضى الجهاد وأظفر

وكيف يهنأ، وكيف يشعر بالأمن من انتزع من ثرى مصر الطاهر وحرم من جنتها الساحرة الخضراء؟

ومن كان ذا هم وشوق وغربة ... أقام حليف الوجد والطرف دامع

وما مصر إلا جنة طاب غرسها ولكن لا فات الزمان مواقع

وحاول المستعمرون أن يصلوا إليه ويسكتوا لسانه الذي يتغنى بمصر والذي يدعو إلى الثورة، فشد الرحال مرة أخرى إلى سويسرا، حيث اتخذ جينيف وطنًا ثانيًا له يعتز بحريته ويفخر بتقدمه ويعيش وسط أهله مناضلًا مكافحًا، ولكن أحق البلاد بنزوعك إليه بلد أمصك حلب رضاعه أو كما يقول الطائي:

كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدا لأول منزل

وما مر بضفاف بحيرة (ليمان) الساحرة إلا ومرت بفكره ضفاف النيل ومسابحه ويذكر مصاب مصر بنيها فينشد:

أين الديار وإن أين هواها شط المزار وجد وجد فقاها
يا ساجع الروض النضير تحية من ساجع بين النواعب تاها
يشدو لذي ذكرى البلاد بشعره وسواه ينشد بالقصائد حباها
تدعوه مصر فلا يجيب دعاءها وإذا دعاه هوى المآرب فاها
أسفي على رزء البلاد بأهلها لا رزئها بعداء من عاداها

ولا ينسى الوطن أبدًا، بل تظل صورته حية تعيش في خياله ووجدانه يذكرها، ويبعث إلى الصحف المصرية يشكو الحزبية التي تهدد الأمة. ويزور مصر بعد سنوات خمس قضاها بعيدًا عن نيلها ووديها ومغانيها، ويكتب قصيدته (عودتي بعد هجرتي) قبل سفره بيومين يبدؤوها بشي من الغزل يذكر فيها حنينه لمصر وربوعها وكيف أن شيطان الشعر لم يلم به منذ وقت طويل، حتى إذا هم بالسفر صوب الوطن انثال على لسانه دافقًا حارًا، ولولا حبه للوطن الذي يسرى في دمه لقضى عليه الموت:

أنا بين سكان القصور كبعض سكان الحفر
لولا فؤاد خافق بالحب قلت مضى العمر
وهجرت وصل الشعر لما ـ ـا بت مضطرب الفكر
واليوم يممت الحمى فوفى القريض على الأشر

ولكن العودة للوطن لم تطفئ شوقًا ولم تشبع حنينه، فقد احتجز في السجن فور وصوله إلى مصر خوفًا من إثارة مشاعر الجماهير ورحى الحرب دائرة، كما أنه لم يقدر أن يرى والديه.

ويهب الشعب المصري في ثورة عارمة ١٩١٩، وتصله أنباء الوطن والمظاهرات والدم الذي غطى الطرقات والتفاف الشعب حول سعد، فيرسل برقية إلى سعد مهنئًا، ويتفجر الشعر علي لسانه إشادة بالثورة ودعاء لها، والشعر لا ينفجر في صدر الغاياتي إلا إذا أهاجته الذكرى إثارة الحنين إلى الوطن:

طـــال عهـــدي بموقـــف الشـــعراء ... وبيـــني بيـــنهم ذمـــم
إذا نســـوني فمـــا نســـيتهموا ... أو جفـــوني فمـــا جفوتهمـــو
إن أمـــت أو أعـــش بقيـــت علـــي العهـــد أشـــقى بـــه وقـــد نعمـــوا
هـــيج الـــنفس ذكـــر مصـــر فبـــا ... ت عصـــى القـــريض ينـــتظم
أنا ذو وجـــد بالكنانـــة إذ ... كرهـــا والـــدموع تنســـجم
ليـــت شـــعري والعـــيش منصـــرم ... هـــل أراهـــا والشـــمل ملتـــئم
فســـلام عليـــك يا وطـــني ... إن حمـــى أو ذكـــا الضـــرم

ويجد به الشوق والحنين فيكتب قصيدة بعنوان – آهة وطنية – يبعثها الوجد من فؤاد مصري غريب، فيناجي النيل ويأسى علي مصر العزيزة التي تحمل من أجلها الهجرة والبعد:

يا نيـــل أنا بشـــكي الهـــوى ... مـــن يـــوم مـــا شـــفتك في هـــوان
حبـــك رمـــاني بالنـــوى ... ورمـــاك بأشـــجانك كمـــان
لـــولا جمالـــك مـــا شـــكا ... حبـــك ولا خصـــمك حكـــم
يامـــا صـــحبك مـــا بكـــى ... مـــن عـــدوك مـــا ابتســـم

وتمضي تسع سنوات والوطن ماثل في ذهنه دائم الحضور في وجدانه، ويفد إلى مصر للمرة الثالثة في صيف ١٩٣٣، فيكتب قصيدته – عاد للنيل فتاه – يكتبها وهو يرى بعين الخيال بهاء الوادي وجلاله الخالد بعد أن:

هجـــر الشـــعر ثم عـــاوده شيـــ ... طانـــه ثائـــرا يهـــب هبـــوبا
هيجتـــه الشـــجون عنـــد التلاقـــي ... ودعـــاه الهـــوى فلـــبى مجيبـــا
هاجـــه النيـــل في ســـنا قمـــر با ... ت مطـــلا علـــي الـــرياض رقيبـــا

وقد انعكس حنين الغاياتي لأرض الوطن في اعتزازه بمصريته وكل ما هو مصري، وكان يحرص كل الحرص علي رفعه للراية المصرية علي شرفة مكتب الجريدة، كما تمثل في سلوكه من أبنائه، فكان يغرس في نفوسهم

– وقد كانوا صغارًا – حب الوطن، وكان يمثل حب الوطن بأنه (بابا العربي) سيأتي في كل ليلة ليقدم هداياه للذين يحبون وطنهم، وكان إذا خلع أحدهم سنًا ألقاه من النافذة داعيًا أن يبدله (بابا العربي) بسن ذهبية كما في الخيال الشعبي، وكان الصغار يقومون من نومهم ويتحسسون تحت وسائدهم فيجدون نقودًا أو حلوي فيخبرهم الأب أنه – بابا العربي – أقبل ليجازيهم علي طاعتهم وحبهم للوطن وكان يعلمهم الحروف العربية لغة الآباء.

وكان يربط بين سلوكهم حسنًا وقبحًا برضاء – بابا العربي – وسخطه – ومن هنا نما حب الوطن في نفوس أبنائه وأثمر. وتأتي "جميلة" الابنة الكبرى لزيارة مصر لأول مرة، فتكتب علي صفحات جريدة أبيها بعد عودتها حديثًا عن مصر هو غزل رقيق في موطن الآباء والأجداد مع أنها كانت تكتب بالفرنسية إلا أنها كانت مصرية الشعور مصرية التفكير "أحب مصر بلدي وموطني – دون أن أراها أتصورها، أتمثلها دون أن أعيش بين ربوعها، لطالما تخيلتك وأنا في أوربا بعيدة، بلدًا طيبًا مؤمنًا بسيطًا ساحر الطبيعة بلدًا مسلمًا – مصر أيتها الراقدة تحت بصر الأهرامات، إن الطبيعة تدفئك وإنك لتحبين الحياة ويمتلئ قلبك بآمالها، فنبرة الحزن تشيع في أغانيك وعلي شاطئ نيلك الخالد ها هو الماضي العظيم يبعث من جديد. يا مصر الخالدة أبدًا ظلي كما أنت ودافعي عن ترابك وتقاليدك وشخصيتك واستيقظي كالنيل الذي هو قلبك وحياتك"[1].

وقد كان الغاياتي يحرص كل الحرص علي الاستماع إلى الأناشيد الوطنية والأغاني المصرية، وكان يترقب بشوق بالغ بعض المصريين الذين يفدون إلى جنيف، فيلح عليهم أن ينشدوه مما يحفظون من أناشيد، وما إن ينشد ضيفه بعض المقاطع حتى يكون الدمع قد بلل وجهه، لقد حركت مغاني الوطن في صدره مشاعر الحب والوفاء، فتفجر الشعر علي لسانه ثائرًا عنيفًا مناجيًا مصر العزيزة خاشعًا مستلهمًا:

مصـــــر هـــــذا فتـــــاك وافـــــاك شـــــيخا كـــــاد لـــــولا الهـــــوى يـــــدب دبيـــــب
بعـــــث الوجـــــد فيـــــه ســـــاعة مـــــرآ ك شـــــــــبابا ونشـــــــــوة ولهيبـــــــــا

هو لا يصدق أنه في مصر، بل لا يصدق أنه تغرب بعيدًا عن الوطن طيلة هذه السنوات الطوال، إن سنوات بعده عن الوطن قد تلاشت وأعادت رؤية الوطن إليه شبابه:

(١) منبر الشرق بالفرنسية.

فكـــــأن الحيـــــاة قـــــد وثبـــــت عشـــــر ... يـــــن عامـــــا إلى الـــــوراء وثـــــوبا
وكـــــأن الســـــنين بعـــــد نســـــواه ... كـــــن وهمـــــا أن تـــــركن إلى شـــــيبا
وكـــــأن الفـــــؤاد مـــــا عـــــرف مـــــن البعـــــ ... ـــــد ومـــــا عـــــانى مـــــن جـــــواه ضـــــروبا
وكـــــأن الفـــــراق كـــــان وصـــــالا ... وكـــــأن المـــــزار كـــــان قريبـــــا
هـــــي مصـــــر وهـــــل يـــــرى غـــــير مصـــــر ... مـــــن بهـــــا ظـــــل مســـــتاهما ســـــليبا

*****

إحياء المآثر التاريخية

كان إحياء المآثر التاريخية من تاريخ الوطن أو ما يثير الطموح في الأمة المصرية من تاريخ الأمم من بعض ما قامت به مدرسة مصطفى كامل لإثارة الوعي القومي في الأمة[1].

وقد ظهرت بوادر هذا الاتجاه عند البارودي، ثم تكامل عند شوقي وبرز فيه، ويظهر هذا الاتجاه عند الغاياتي في أشعاره التي يدعو فيها إلى الثورة والتي يدعو فيها إلى الأمل في المستقبل.

وقد اتخذ الغاياتي من الحلم جوادًا يحمله إلى المستقبل فحارب اليأس في شتى صوره وصاغ شعرًا عبارة مصطفى كامل "لا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس".

فـــلا تيأســـوا فاليـــأس مجلبـــة الـــردى وشـــدو إلى نيـــل الرجـــاء الرحـــالا

وفي خطابة لناظر الحقانية "رشدي باشا" بعد صدور الحكم على عبد العزيز جاويش يقول:

لعمـــرك مـــا قصـــر الـــدوبارة نافـــع إذا انتبـــه المظلـــوم واحتـــدم اليـــأس
وهيهـــات أن تخشـــى وعيـــدك بعـــد مـــا نهضـــنا مـــع الآمـــال وانهـــزم اليـــأس

ويعلق على البيت الأخير بقوله "انهزام اليأس أول واجب على الشعب الذي يجاهد في سبيل الحياة ويكون له أمل في الاستقلال، ومتى نهض مع الآمال وتعلق بالمعالى فهيهات أن يخشى وعيد موعد أو تهديد مهدد واستبداد مستبد"[2]

وفى خطابه لروزفلت بعد تهجمه على مصر يقول الغاياتي:

رويـــــدا فـــــتى التـــــاريخ إنا لنـــــا خطـــــر علـــــى الأيام نام
جمعنـــــا الـــــدين والـــــدنيا وكنـــــا أســـــاتذة الـــــورى مـــــن عهـــــد ســـــام
فمـــــن أنـــــتم إذا افتخـــــرت شـــــعوب بمجـــــد في ذرى الأهـــــرام ســـــام
لنـــا مـــا كـــان مـــن مجـــد تليـــد ومـــا كنـــتم هنالـــك في الأنام

(١) الدكتور حسين فوزي النجار، الفكر المعاصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.

(٢) وطنيتي، ٧٨.

ويقول مثيرًا في نفوس المصريين روح العزة والإباء:

أيـــن عهـــد الجـــلال مـــن ملـــك مصـــر أيـــن عصـــر العلـــوم والحســـنات
حســـنات علـــى الزمـــان أقامـــت وزمـــان مضـــى بغـــير شـــكاة

وفى قصيده آهة مصري يقول:

ســـائل التـــاريخ عنهـــا إنـــه صـــادق الأخبـــار جـــم العـــبر
تلـــك دار ســـجلت أثارهـــا بـــين إجـــلال وذكـــر عطـــر
هـــذه مصـــر وهـــذا ذكرهـــا ناطـــق الآيات باق الأثـــر

ويبعث من مهجره إلى المصريين داعيًا إياهم إلى التمسك بأهداب الوحدة مذكرًا إياهم بمجد الإباء والأجداد:

ونحـــن الألى قهـــروا الـــورى وعـــداهم القهـــر
عنـــا العـــاني لـــدولتهم ودان الـــبر والبحـــر
قـــد بلغـــو بوحـــدتهم مكـــانا دونـــه البـــدر
وأولـــتهم معـــارفهم عـــلا تبـــق وإن مـــروا

*****

النشيد القومي

لا جدال في أن الأناشيد الوطنية والقومية تمهد لليقظة القومية وترهص بالنهضة الوطنية وتبعثها، ثم تواكبها طوال فترات اشتعالها وتعمل على مدها بدماء جديدة وفورات عاطفيه متجددة وتغذيها بشحنات قوية من الحماس، كما أن الشعر الوطني والقومي يعمل على تكوين المواطن الصالح بما يشيعه من مثل عليا وحماس ثائر.

وقد كان من أهم عوامل إحياء المآثر التاريخية تأليف نشيد قومي تردده جماهير الشعب - ففي مصر نجد كتابات رفاعة الطهطاوي وأناشيده الوطنية تمهد لثورة عرابي، ونجد أناشيد عبد الله النديم تذكيها وتزيدها اشتعالًا.

وحين تسقط الثورة تحت حراب الإنجليز لا تلبث أن ترتفع صيحات مصطفى كامل الهادرة تؤجج الشعور القومي وتوقظه، ويرتفع صوت الغاياتي شاعر حزبه مناديًا بأن يكون لنا نشيد قومي " أليس من المخجل أن نقيم المظاهرات، وننشئ الجمعيات، ونسير في سبيل الحرية والاستقلال سيرًا حثيثًا، ولا نعرف لنا نشيدًا وطنيًا يذكره الزارع والتاجر والكاتب وسائر طبقات الأمة جماعات ووحدانًا"[١]. وهو لذلك يقدم بين يدي أشعاره ترجمة للنشيد القومي الفرنسي المعروف بالمارسليز كما يقدم أنشودتين وطنيتين لشاعر فرنسا فيكتور هوجو؛ هادفا بذلك إلى استنهاض همم الشعراء الذين كثر عددهم وقل مددهم[٢].

وهو يقول عن المارسليز أن ثوار فرنسا أرادوا أن تكون أنشودتهم الجديدة وطنية أخوية مهددة للأجنبي منذرة للعدو يترامى سامعها عند ذكرها بين المدافع والقنابل والقواضب غير هياب ولا وجل[٣].

ومن أجل هذا، كان أهم ما يثير أشجان الغاياتي في مهجره هو شوقه إلى سماع الأناشيد الوطنية المصرية يستمد منها المقاومة والاستمرار، كان إذا التقى بأحد مواطنيه رجاه أن ينشد له شيئا مما يحفظه في مصر الوطن ويجمع أسرته للاستماع، ولكنه ما يكاد يستمع إلى بعض أبيات من النشيد حتى يهزه الحنين وتسيل الدموع من مآقيه[٤]. بل إن الغاياتي حين استكتب الزعيم محمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش مقدمة

(١) السابق، ٢١.

(٢) وطنيتي، ٢٠.

(٣) وطنيتي ٢٨.

(٤) فجر الثورة أحمد حسين – المقدمة/ ٧.

لديوانه نراه لا يطلب منهما تقريظًا أو تزكية بل كان حديثهما منصبًا على الشعر كسلاح من أسلحة المقاومة، كما أسلفنا.

فيقول محمد فريد عن المارسليز إنه كان من أقوى أسباب انتصار فرنسا على ملوك أوربا الذين تألبوا لإخماد روح الوطنية والحرية في مبدأ ظهورها[1]، وأن الأناشيد القومية هي التي تبعث الروح الوطنية والقومية خاصة عند الأمم المغلوبة تلك التي جعلت من أول مبادئها وضع القصائد الوطنية والأناشيد الحماسية باللغة الفصحى للطبقة المتعلمة وباللغة العامية لطبقة الزراع والصناع وسواهم من العمال غير المتعلمين، تلك الطبقات التي ظل محمد فريد يكافح من أجلها وينادي بحقوقها ويدافع عن مطالبها.

ولقد كان تأليف الأناشيد القومية أول علامة على تحول هام في مجال الشعر الوطني الذي كان مسايرًا للبعث القومي؛ ذلك أن النشيد الوطني هو الآية التي تتعهد عواطف الأمة بترتيلها، هو شعور ترفعه الأمة أماني جساما ثم تستنزله وحيًا وإلهامًا، هو صورتها النفسية طبعت كلمًا ونقلت نغمًا.

وفي فترة اشتعال الحرب العالمية الأولى دوت الحناجر الثائرة بالأناشيد القومية وارتفعت الأصوات ترددها تعتصم بها كلما أصابها ضعف أو باس فتزداد حمية أو يشتعل حماسها.

ولم تكد الحروب تضع أوزارها حتى اندلعت الثورات في كثير من البلدان العربية، ففي العراق الزهاوي والجوهري وبهجة والأثري وغيرهم هم سيوف النيران وألسنتها الحداد، وفي سوريا ارتفعت أصوات عبد المحسن الكاظمي وخليل مردم وآخرين تثير حماس الجماهير وتحضها على الثورة[2]، وفي مصر اندلعت نيران ثورة ١٩١٩ وملأ الله كنانته – مصر - أسهمًا وانطلقت الأسهم الإلهية أناشيد ملتهبة وخرجت الجموع الغاضبة تهتف حناجرها خلف سيد درويش:

بـــــــــــــلادي بـــــــــــــلادي　　أنـــــــــت غـــــــــايتي والمـــــــــراد
مصـــــــــــر أنـــــــــت أغلـــــــــى درة　　فـــــــــوق جبـــــــين الـــــــدهر غـــــــرة

ورددت خلف الرافعي:

اســـــــلمي يا مصـــــــر إنـــــــني الفـــــــدا　　ذي يـــــــدي إن مـــــــدت الـــــــدنيا يـــــــدا

(١) وطنيتي ١٠.

(٢) العلم، ١٧ أغسطس ١٩١٠.

ولم يكتف الغاياتي بالدعوة، وإنما نظم نشيدًا وطنيًا تمنى أن يصبح نشيد مصر الوطني " فقد وضعته من بحر سهل التلحين وقاربت بينه وبين أفهام الشعب على اختلاف طبقاته"[1].

وقد مهد لنشيده بكلمة عن أهمية النشيد القومي وتأثيره، وأنه أظهر ما يكون من شأنه في أوقات المظاهرات وفى الحفلات والمواسم الوطنية ونحوها، بل إنه ليبلغ من أمره أن يكون تأثيره في الفرد كما يكون في الجماعة، فنرى الوطني يذكره في خلوته كما يذكره بين عشيرته وأمته فيبعث فيه روح الحماسة والوطنية ويشجعه على اقتحام المصاعب ومقارعة الخطوب في سبيل الوطن العزيز كي يثبت الجنود في مواقف النصر، ويبث في نفوسهم حب المخاطرة والإقدام والاستماتة في الدفاع والنضال[2].

والحقيقة التاريخية التي يجهلها الغالبية أن علي الغاياتي هو مؤلف أول نشيد وطني، وأن الدافع القوي وراء اتخاذ هذا النشيد أنه في أثناء زيارة وفد روماني إلى القاهرة ١٩٠٨، وفي رفقتهم عدد من نادي المدارس العليا، فوجئ المصريون أن بروتوكول الترحيب بالضيوف يحتوي عزف النشيد الوطني الروماني، وبعد أن أنشد الوفد الروماني نشيدهم الوطني بدأوا يتساءلون عن النشيد القومي المصري، وهنا كانت المفاجأة التي أصابتهم بالدهشة أنه لا يوجد نشيد قومي لمصر.

كانت هذه الحادثة كفيلة بتنبيه أنصار الحركة الوطنية إلى ضرورة سد هذا الفراغ، فبحثوا عن نشيد يصلح ليكون النشيد الوطني، فاقترح عليهم الزعيم محمد فريد نشيدًا كان كتبه الشاعر علي الغاياتي ضمن ديوان "وطنيتي"، وتسبب ذلك في غضب رجال القصر، فكان أحد العوامل التي أدت إلى مصادرة الديوان ومحاكمة صاحبه والزعيم محمد فريد والشيخ علي جاويش. وكان لصدور الأحكام بالسجن على مؤلف الديوان وعلى صاحبيه بمثابة رسالة للحركة الوطنية بعدم التفكير في تكرار محاولة نظم نشيد قومي.

وهذا النشيد هو:

نحـــــــن للمجـــــــد نســـــــير ولنـــــــا الله نصـــــــير
لـــــــيس يثنيـــــــنا نـــــــذير عـــــــن بـــــــلاد تســـــــتجير
وعباد في حداد

(١) وطنيتي ١٣١.

(٢) وطنيتي ١٣١.

كيـــــــف نرضـــــــى بالممـــــــات وزمـــــــان المـــــــوت فـــــــات
إنمـــــــا الدســـــــتور آت فعليـــــــنا الثبـــــــات

عند آمال البلاد

نحـــــــن شـــــــعب لا نضـــــــام قبـــــــل أن نلقـــــــى الحمـــــــام
فعلـــــــى النيـــــــل الســـــــلام مـــــــن فتـــــــاه المستهـــــــام

يوم يقضى في الجهاد

في هـــــــوى النيـــــــل الســـــــعيد ميـــــــت القـــــــوم شـــــــهيد
ذكـــــــره حـــــــي جديـــــــد يـــــــومه للشـــــــعب عيـــــــد

فيه ذكرى للرشاد

مرحبـــــــا بالفـــــــوز لاح وانجلـــــــى ليـــــــل الكفـــــــاح
وشـــــــدا طـــــــير الصـــــــباح أدرك الشعـــــــب الفـــــــلاح

وقضت مصر المراد

وأثناء مظاهرات ثورة ١٩١٩ اجتمعت كلمة زعماء دمياط على اختيار نشيد الغاياتي لإنشاده وترديده، مع تغير كلمة الدستور بكلمة الاستقلال، وقام بتلحينه الأستاذ أحمد نصار المهندس ومحمد كامل جبر الشاعر، ويذكر الأخير "أن حفلًا وطنيًا رائعًا أقيم في جامع البحر جمع بين العنصرين المتآلفين حتى فاق المسجد على سعته بالحاضرين، وقبل أن تلقي الخطب والقصائد، وقفت أنا والأستاذ ونصار وخلفنا جموع الشباب الذين تلتهب حماستهم التهابًا بإلقاء النشيد، فكنا كلما أنشدنا مقطعًا من مقاطعه، أنشدوا المقطع الأول منه بأصوات حماسية مؤثرة، وظل هذا النشيد يلقى في كل مناسبة وطنية وغير وطنية"[1]، وظلت الجماهير تعتصم بالأناشيد الوطنية كلما اعتدى عليهما ظالم، وكلما هددها مستعمر، رددتها حناجر الطلبة في مظاهرات ١٩٣٦، ثم في حرب فلسطين والعدوان الثلاثي وأيام النكسة.

*****

(١) الدكتور محمد حسين، مرجع سابق، ص١/ ١١٩

محنة الجامعة

كانت الجامعة الوطنية التي تحدثنا عنها في الفصل السابق مازالت وليدة؛ لأنها كانت تجاهد الجامعة الدينية المستقرة في نفوس الناس والمسيطرة على تفكير الساسة والمفكرين، لذلك كان طبيعيًا أن يختلف موقف القبط من المحتل عن المسلمين "فهم إن لم يطمئنوا إليه لا يتحمسون لمحاربته كما تحمس المسلمون، فقد كانوا يتوقعون أن ترتفع مكانتهم في ذلك العهد الجديد كما يقول اللورد كرومر"[1].

كما كرهوا الحكم التركي الذي لم ينالوا منه خيرًا، واتجهوا إلى استمداد القوه من مصادر مختلفة، وأقبلوا على التعليم، لا سيما الأجنبي منه، وحرصوا على جمع المال وصار بعض المتعصبين فيهم يؤثر البعض الآخر، وتخلى البعض عن جنسيتهم المصرية، وأنشأوا صحفاً تعبر عن مصالحهم؛ فأصدر ميخائيل عبد السيد صحيفة الوطن ١٨٧٧، وأصدر تادرس شنودة صحيفة مصر ١٨٩٥، وكانت الصحيفتان تثيران العصبية، وتقولان عن القبط أنهم أصحاب البلاد، وتحبذان كل ما استنكره المصريون، فدافعا عن قانون المطبوعات الذي أعيد العمل به في مارس ١٩٠٩، ويثنيان علي خطاب روزفلت الذي اتهم فيه الأمة المصرية بالجهل وعدم الأهلية لنيل الدستور.

وضاق المسلمون بهذه الروح الجديدة واعتبروها تمردًا، وعمل سوء الظن إلى جانب روح الجهل من بعض أفراد من الطائفتين إلى جانب ما كانت تبثه صحافتهم علي اشتداد الخلاف بينهما، ثم كان مقتل بطرس غالي، فتفاقم الخلاف ورأى كثير من القبط إن بطرس غالى لم يقتل إلا لأنه قبطي، وارتفعت أصواتهم إثارة وتهيجًا علي صفحات جرائدهم، بل وفي الصحف الإنجليزية[2]، ونشطت الدعوة لمؤتمر يعقد في أسيوط وتم انعقاده في يوم الأحد ٥ مارس ١٩١٠ ورد المسلمون ودعوا إلى مؤتمر مصري توكيدًا لوحدة الأمة عقد يوم السبت ٢٩ أبريل ورأسه مصطفى رياض باشا.

ولم تكن هذه المحنة شرًا خالصًا، بل كانت بداية وفاق حقيقي صادق بين العنصرين، ظهر جليًا واضحًا في ثورة ١٩١٩، حين تعانق الصليب والهلال، ووضعت هذه الخصومة السافرة حدًا لسوء الظن المتبادل بين

(١) الدكتور محمد حسين، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٢) وطنيتي.

الفريقين، وكانت تنفيسًا شفى النفوس من الكره الكامن الدفين، وفرصة لتصفية ما بين الأخوين من خصومة وعلاجه بطريقة صحيحة[1].

والحق أن المصريين – أقباطًا ومسلمين – ساهموا في هذا الوفاق بعد خلوص النية؛ فهذا مرقص فهمي المحامي يلقي بحديقة الأزبكية خطابًا في حفلة قبطية حيا فيه الأبرياء الذين اتهموا بالاشتراك مع إبراهيم الورداني وبرأهم القضاء، ودفع عن المسلمين تهمة التعصب، وحصر عمل الورداني في شخص فاعله، وسفه أقوال الذين يتهمون طائفة من الأمة بالاشتراك في هذا العمل، ودعا إلى الوفاق والوئام بين أبناء البلد الواحد ويحييه الغاياتي:

خطبت فلم تجنح إلى شرعة الهوى ... ولم تتخذ نهج الخصام سبيلا
وأنصفت قوما أنت منهم وإن عدا ... عليهم جهول أو أعان جهولا
فما أنت قبطي يبيع بلاده ... ويرضي بدين الجاهلين بديلا
وما أمة القرآن في مصر أمة ... ترى أمة الإنجيل أبغض جيلا
فإنا وأنتم أخوة في بلادنا ... أقمنا على دين السلام طويلا
نذود عن الأوطان إن طم حادث ... ونحمي حماها بكرة وأصيلا

ثم يتحدث بعض الجهلاء من المسيحيين الذين أساؤوا الظن بالمسلمين وأزروا علي الإسلام وتمنوا دوام الاحتلال، ويذكر بعد ذلك أن المسلمين قادرون علي الرد، ولكننا لا نخون العهد أبدًا ثم يختم قصيدته بتحية مرقص فهمي:

فسر في سبيل الصدق يا خير قائل ... أقام على صدق الولاء دليلا
ففي ذمة الأهرام موقفك الذي ... روى النيل والأهرام منه غليلا

وكانت قصيدة الغاياتي هذه أول بادرة في السعي للتوفيق بين الطائفتين وتوثيق صلات التفاهم بينهما وازالة الأوهام وسوء الظن.

وتتابعت بعد ذلك مساعي الشعراء للتوفيق بين العنصرين وتصحيح فهم التدين؛ فيكتب إسماعيل صبري قصيدة يقول فيها:

(١) الدكتور محمد حسين، مرجع سابق، ص ١٣٧.

ديـــــن عيســـــى فـــــيكم وديـــــن أخيـــــه أحمـــــــــــد يأمرانـــــــــــا بالإخـــــــــــاء

ويتوجه شوقي بقصيدته إلى القبط:

بـــــني مصـــــر إخـــــوان الـــــدهور رويـــــدكم هبـــــــوه يســـــــوعا في البريـــــــة ثانيـــــــا

ولعل الشاعر محرمًا كان أكثر الشعراء الذين ساهموا في رأب الصدع وإخماد الفتنة، يقول في قصيدته (تفوق المذاهب) مخاطبا القبط:[1]

تعـــــالوا إلينـــــا إنمـــــا نحـــــن أخـــــوة وإن انبتـــــــــاث الحبـــــــل أن يتفصـــــــم

وفي قصيدته الخلف واللجاج يخاطب القبط أيضًا:

يا أمـــــة القـــــبط والأجيـــــال شـــــاهدة بمالنـــــا ولكـــــم مـــــن صـــــادق الـــــذمم

ولا ينعي الغاياتي – وهو في مهجره – أن يذكر المصريين بهذه الوحدة الوطنية المتينة – فينعي علي المصريين تفرقهم واختلافهم حتى نسينا الخير الذي تأتي به الوحدة:

وخلنـــــــا الـــــــدين علـــــــي خطـــــــأ يفرقنـــــــــــــــــــــــــــــــــــــــا ولا وزر

ومـــــــــا التـــــــــوراة تفرقـــــــــة ولا الإنجيـــــــــــــــــــــل والذكـــــــــــــــــــــر

ومصـــــــــــر قبلهـــــــــــا وطنـــــــــــي لنـــــــــا طـــــــــرا بـــــــــه فخـــــــــرا

*****

(١) الدكتور محمد حسين، مرجع سابق، ص ٨٩- ٩٤.

الخديوي عباس بين الوطنية والخيانة

بعد سقوط أعلام الثورة العرابية، سرت في نفوس المصريين روح من الاستسلام عنيفة، وتكاثفت ظلمات من اليأس كثيفة، وكان المؤيد هو أول صوت يرتفع مناديًا بالجلاء، وبعد أقل من ثلاث سنوات يجلجل صوت أخر أكثر حرارة وانفعالًا في نبرته ثورة علي المحتل والأذناب، وفي لهجة حب عميق شفاف لمصر، ذلك صوت مصطفى كامل الذي ينشر أول حديث له في الأهرام (٢٨ يناير ١٨٩٥) مطالبًا بالجلاء – وبدأت الروح المصرية الأصيلة تنبعث من جديد، وتطرح أثواب اليأس خاصته.

وقد تولي عباس حلمي الحكم في يناير ١٨٩٢ – ولم يكن قد تجاوز الثامنة عشرة من عمره – وكانت فيه جرأة شجعت المصريين علي مناهضة الاحتلال، فغير رجال الحاشية، وتودد إلى الشعب باستقبال وفوده وإصدار العفو عن العرابيين "فكان كتيار من الكهرباء طبق جو مصر، وكهرب جميع أهلها، فشعروا بأنهم أمة يجب أن يستقلوا بأمورهم"[١]، ويقول محمد رشيد رضا عن الخديوي بعد أن عدد مساوئه "أول ما عرف الناس من محاسنه ما يسمي في عرف هذا العصر بالوطنية"[٢]، فشجع مصطفى كامل وقربه واحتضنه، وكان اصطدام الخديوي بكرومر، مما زاد عطف الشعب علي الخديوي والتفافة حوله وكانت وطنيته شيئا جديدا علي هذه الأسرة الدخيلة ولهذا لم يشذ شاعر واحد عن مدحه وإن فاق الجميع شوقي الذي يقول فيه:

تحبـــــك يا خـــــير الملـــــوك رعيـــــة ... لهـــا منـــك مـــا تخفـــي وللحـــال مـــا يبـــدو

ولاء مـــــع الأيام تنمـــــو صـــــروفها ... فينمـــــو وتشـــــتد الخطـــــوب فيشـــــتد

ويخاطبه بقوله:

أبى الحيـــــــارى إلا رأي فيعصـــــــمهم ... فلـــــــيس إلا إلى أرائـــــــك الهـــــــرب

ويقول حافظ في قصيدة له ١٩٠٢ مخاطبًا الخديوي:

رددت مـــا ســـلبت أيـــدي الزمـــان لنـــا ... ومـــا تقلـــص مـــن ظـــل وســـلطان

أما محرم فيقول:

(١) محمد رشيد رضا، مرجع سابق، ص ٥٩٢.

(٢) المرجع السابق.

مـــــولاي أحييـــــت الرجـــــاء لأمـــــة شـــــهدت بطلعتـــــك الرجـــــاء الأكـــــبرا

ويقول الغاياتي في قصيدته " آية السرور" بمناسبة شفاء ولي العهد الأمير محمد عبد المنعم، وهي قصيدة المدح الوحيدة في الديوان وإن عاد واعتذر عنها:

ومـــــن يكـــــن العبـــــاس أكـــــرم والـــــد لـــــه كـــــان للأفضـــــال أكـــــرم مـــــنهلا
فيـــــا بـــــن الألى ســـــادوا الـــــبلاد وأهلهـــــا وشـــــادوا لهـــــم فـــــوق الســـــماكين معقـــــلا
ومازالـــــت معتـــــزا بأفضـــــل والـــــد أفاضـــــت يـــــداه في الـــــبلاد التفضـــــلا
ولازال وادي النيـــــل في ظـــــل عرشـــــكم خصـــــيبا فـــــلا يشـــــكو افتقـــــارا ولا غـــــلا

ولا ينس في ختام قصيدته أن يذكره بمسؤوليته الكبرى وهي قيادة الشعب نحو تحقيق الجلاء:

وعـــــادت بكـــــم مصـــــر إلى عهـــــدها الـــــذي مضـــــي فمضـــــت بالفـــــوز في موقـــــف الجـــــلا

وبمناسبة إعلان الدستور العثماني يخاطب الخليفة راجيًا أن يأمر الخديوي بمنح مصر الدستور:

لعمـــــــــرك إن في مصـــــــــر أمـــــــــيرا تـــــــراه لـــــــيس يحمـــــــل مـــــــا يشـــــــين
ومـــــــــا العبـــــــــاس إلا خـــــــــير وال لـــــــــه في ملكـــــــــك الشـــــــــرق المكـــــــــين

وفي مواجهة لطمات كرومر لعباس، تراه يلجأ إلى تركيا فيرتمي في أحضان السلطان عبد الحميد طلبًا للحماية من الإنجليز واستعداء عليهم، وكانت صلته بالسلطان تقوى وتضعف تبعًا لتوتر علاقته بالإنجليز وصفائها، ومن هنا اتسمت سياسته بالتخبط والاضطراب؛ فنراه يشجع أعضاء تركيا الفتاة تارة، ثم ينقلب إلى محاربتهم تقربًا للسلطان تارة أخرى.

وهو يتبني مطالب الشعب في الدستور ويحتضن مصطفى كامل ويرعى جهوده حين، ثم هو يتنكر للشعب ويزج بأحراره في السجون لاسيما بعد عقده لعروة الود والوفاق مع المندوب البريطاني الجديد وإطلاق يده في السلطة ونهمه في جمع الأموال أكثر الأحيان، وظهر للناس حقيقة هذا الاتفاق الذي يلتمس من تأييده للشعب السلطة والنفوذ فارتمي في أحضان الإنجليز وشهد العرض العسكري لقوات الاحتلال وإن لم يمنع هذا في حقده عليهم وتربصه بهم.

وصب الحزب الوطني سهام النقد للخديوي لكن في غير عنف، حتى إذا تولى محمد فريد رياسة الحزب اتسعت هوة الخلاف ووقف الشعراء للخديوي، وفي مقدمتهم الغاياتي شاعر الحزب بالمرصاد، مما اضطر الخديوي إلى بعث قانون المطبوعات القديم ١٩٠٩، وإلى سن قوانين النفي الإداري، والإنجليز يتفرجون علي هذه الملهاة الدامية، ويجدون في اصطناع العملاء وشراء الأنصار من المصريين والدخلاء.

وخرجت مظاهرات الطلبة تندد بالحكم الخديوي وانضم إليهم طلبة الأزهر، وانفض الوطنيون عن تأييد الخديوي ومدحه، وانقلبوا إلى مهاجمته والتنديد به، وتراوحت القصائد بين الهجوم والعنف والعتاب الرقيق؛ فالكاشف يحذر عباس من سياسة الوفاق في حديثه علي الإنجليز:

صـــــدقوا رجـــــال الملـــــك أم كـــــذبوهم؟ ووفـــــــاء صـــــــحب أم رياء دهـــــــاه؟

وعبد الحليم المصري يذكر الخديوي بحديثه إلى جريدة ألطان والذي وعد فيه بمنح الدستور:

هـــل ادكـــرت الوعـــود الســـابقات وهـــل نســـيت بالأمـــس مـــا أسمعتـــه الطـــانا؟

ويشتد محرم في مهاجمته لعباس:

كـــذب الملـــوك ومـــن يحـــاول عنـــدهم شـــــرفا ويـــــزعم أنهـــــم شـــــرفاء

وفي ختامها:

رفعـــوا العـــروش علـــي الـــدماء وإنمـــا تبقـــى الســـفينة بمـــا أقـــام المـــاء

واعتلي الغاياتي قمة الشراء المناوئين لعباس وسياسته، وانطلقت أسهمه قويه حادة تهاجم الخديوي الذي يحارب الأحرار ويضطهدهم والذي يعارض إرادة الشعب.

وفي مقدمته لديوانه "وطنيتي" نراه يعرض بالخديوي واستبداده، وذلك في حديثه عن لويس السادس عشر الذي استسلم لإرادة الحاشية، وزوجته المستبدة ماري أنطوانيت – عودة الإصلاح – والتي كانت تحتقر الشعب الفرنسي الكريم وتعامله معاملة يأباها الحر وتعافها النفس الشريفة، وهي التي دفعت زوجها الملك إلى مصادرة الأحرار والوقوف في وجوههم، فلما اشتدت الأزمة وحمى وطيس الثورة، كتبت إلى أبيها مستنجدة مستجيرة، فلم تنفعها تلك الجيوش الأجنبية والجيوش الجرارة المنتصرة للملوكية، بل كان الغلبة

للأمة والنصر العزيز لفرنسا الحرة، وقد لقيت الطاغية حتفها بآلة الإعدام – المقصلة – في ١٦ أكتوبر ١٧٩٣، ولحقت بزوجها الذي ناله ما ناله ودالت دولة البغي والطغيان وكذلك عاقبه الظالمين"[١].

وليتها وهي أجنبية غريبة عن العائلة المالكة (هو لا ينسي إن أسره محمد علي غريبة عن مصر أجنبية عن المصريين) كانت تحترم إرادة الشعب الذي يحترم إرادتها، ويقي حكومتها بأمواله ورجاله، ولولاه لما استقرت للحكومة قدم في الوجود.. بل لولا الشعب لدكت العروش وانتزعت التيجان من الرؤوس وحل بالحكومة الويل والهوان.. وكانت ترى أنها مالكة الرقاب ومقدرة الأرزاق – كما يرى بعض الحكام في هذه العصور – (هو لا يعني إلا الخديوي الذي تنكر للحركة الوطنية وانصرف يجمع المال بنهم وشره حتى ليبيع الرتب والنياشين)، فاستحقت غضب الشعب ويا ويل الحكومة من غضب الشعب"[٢].

وبعد أن يأتي الغاياتي بترجمة لبعض مقطوعات المارسليز، يعلق مبينًا عاقبة استبداد الحكومة (ولم يكن غائبًا عن فكره سبل القمع) كلما انتهجت منهج الجور وسلكت سبل التعسف، فتحت من حيث لا تدرى للأمة أبواب الحرية الواسعة وهدتها طرق السعادة المنشودة والضغط لا محالة فحدث الانفجار.

"فطوبي لأمة تقوضت في ديارها دعائم العدل ووقف حكامها لها بكل سبيل وقفة الذئاب أمام الشاة، فنظرت ذات اليمين وذات الشمال مستجيرة مستعيذة فما رأت غير ظلم وظلام. يأخذ أموالها الحاكم المستبد بإحدى يديه ويسومها سوء العذاب باليد الأخرى، فهو يجيعها ليشبع، ويفقرها ليغنى، ويذلها ليعتز، ثم يسد في وجهها مناهل العلم، لتنفسح أمامه مناهج الظل، حتى إذا ما رفعت رأسا أثقلته المظالم أو فتحت عينا أغمضتها رؤية الظالم أو شكت وبكت ثم استرحمت واستنصفت، كانت الطامة الكبرى عليها والويل الأعظم لها، ولا يزال هذا حالها مع حكامها حتى تفيض الكأس. ولا تجد النفس طاقة لها علي ما احتملت، ويرتفع بين الأمة صوت الإباء مرددًا قول أبي العلاء:

هُـــل المقـــام فكـــم أعاشـــر أمـــة ... أمـــرت بغـــير صـــلاحها أمراؤهـــا
ظلمـــوا الرعيـــة واســـتجازوا كيـــدها ... فعـــدوا مصـــالحها وهـــم أجراؤهـــا

هنالك تشرق شمس الانتقام وتأخذ الشعب نشوة الانتصار، وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن يوم الظالمين يوم عصيب. هنالك يغير الله حالا بعد حال وتستوي الأمة علي عرشها تدير دفة الحكم بيدها

(١) مقدمة وطنيتي.

(٢) مقدمة وطنيتي.

وتسير القضاء العدل بإرادتها، هنالك ينادي منادي الحكومة الأهلية الدستورية العادلة بصوت مدو في أرجاء البلاد أن "لا ظلم اليوم لا ظلم اليوم"[١].

وفي ختام تعليقه علي المارسليز يوجه إنذارًا للحكومة وأعداء البلاد "تلك عاقبة جور الحكومات وصبر الأمم، كذلك كان شأن فرنسا، وإنها لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد"، ثم يطلقها أسهمًا حارقة تحمل شرارة الثورة في حديث ملتهب عن الحرية ومهرها، وكأنه يدعو إلى الثورة "إن الحرية ليست منحة ولا هبة من ملك أو أمير، بل هي حق طبيعي للشعوب متى دبت فيها روح الإباء والاستقلال أخذته بالقوة القاهرة من أيدي مغتصبه، وقدمت في سبيله النفس والنفيس، فهؤلاء الذين يحاربون أعداء الحرية بالوسائل النافعة وينتقمون للوطن ثم ينالون الموت من يد ظالمه وهم في سبيل جهادهم سائرون. أولئك الذين رضي الله والشعب عنهم ووجبت لهم الكرامة الدائمة والذكرى الخالدة[٢] وكان علي الأمة أن تمثل خيالهم مرحبة به محيية له"[٣].

ويطالعنا الغاياتي في أول قصيده صدر بها ديوانه يناجي طيف الوطن الذي زاره ليلًا ويشكو له ما يؤرقه ويشعل في صدره نيران الثورة:

ظمـــــأ قـــــاض ونيـــــل فـــــائض ... ودمـــــوع جـــــارت الســـــحب انســـــجاما
وعـــــداة ملكـــــوا الأمـــــر ولم ... يحفظـــــوا للشـــــعب في حـــــق ذمامـــــا
وولاة أقســـــموا أن يســـــجدوا ... كلمـــــا رام العـــــدا مـــــنهم مرامـــــا
هـــــل يـــــرى المحتـــــل أنا أمـــــة ... مـــــذ عرفنـــــا الســـــلم لا نـــــدري الخصـــــاما
أو يـــــرى الظـــــالم فينـــــا أننـــــا ... نحمـــــل الخســـــف ولا نبغـــــي انتقامـــــا

والغاياتي يعني بالحكام الخديوي والضالعين معه الذين باعوا الوطن وارتموا في أحضان المستعمر، وقد بلغ الاستنكار بالشباب الوطني مبلغًا عظيمًا، فأرسل أحدهم رسالة تهديد للخديوي ينذره بنسف عربته إن لم يعزل بطرس غالي رئيس المحكمة المخصوصة، ولم يبلغ هجوم الغاياتي في هذه القصيدة درجة العنف، فهو لم يعلن القطيعة بعد ومازال حبل الود موصولًا وإن كان واهيًا، حتى إذا أطلق الإنجليز يد الخديوي في

(١) مقدمة وطنيتي.

(٢) يشير الغاياتي إلى الورداني الذي قتل بطرس غالي كما أسلفنا.

(٣) مقدمة وطنيتي.

السلطة وجمع الأموال وتنكر للحركة الوطنية وتصافح مع الإنجليز يكتب الغاياتي في ذكرى مصطفى كامل الأول:

أيهـــا النيـــل هـــل رأيـــت وليـــا يبتلـــي قومـــه بـــلاء العـــداة

وفي اليوم التالي لصدور قانون المطبوعات ٢٧ مارس ١٩٠٩ – أثناء مرور الخديوي لاحظ "أن بعض الطلبة الذين ينتمون للحزب الوطني كانوا جالسين على قهوة الشيشة وغيرها وهم في حالة عدم اكتراث، ولما مر عليهم لم يقفوا لأداء السلام بل بالعكس رفعوا ساقًا علي ساق ونظروا إليه"[١].

وانبرى الغاياتي لمهاجمة الخديوي في عنف بالغ محذرًا إياه من سياسة الوفاق – وفي تقديمه للقصيدة يتحدث عن حرية الصحافة التي هي لسان حال الجماهير، وأن هذا القانون جاء (قاطعًا هذا اللسان حائلًا بين الأمير وشعبه، لذلك كان يوم إرجاع هذا القانون هو آخر العهد بيننا وبين سموه وقاطع حبل المودة والعتاب الذي أصبح أمره بيد الأفئدة بعد الألسنة):

أعبـــاس هـــذا آخـــر العهـــد بيننـــا فـــلا تخـــش منـــا بعـــد ذاك عتـــابا
أيرضـــيك فينـــا أن نكـــون أذلـــة ننـــال إذا رمنـــا الحيـــاة عقـــابا
ونيـــأس مـــن آمالنـــا فيـــك كلمـــا قضـــيت علينـــا أن نكـــون غضـــابا
وأرضـــيت أعـــداء الـــبلاد وأهلهـــا وأصـــليتنا بعـــد (الوفـــاق) عـــذابا[٢]
رويـــدك يا عبـــاس لا تبلـــغ المـــدى ولا تســـتمع للظـــالمين خطـــابا
فمـــا يبتغـــي (غورســـت) إلا مكيـــدة تحـــول أقـــلام الســـلام حـــرابا

ويدلي الخديوي بحديث إلى جريدة ألطان الفرنسية يهاجم فيه جماعة المتسرعين (الحزب الوطني) الذين يطالبون بالدستور، ويرى (أن الوقت لم يحن بعد لصدوره وأن الأمة ليست أهلًا له ويثني علي المعتمد البريطاني)، ويأمل أن يتم إنفاذ مشروع مد امتياز قناة السويس (مع أنه كان قد أدلى بحديث إلى نفس الجريدة يعد فيه بإصدار الدستور)، ويردد شاعر الأمير أراء أميره فينبري له الغاياتي مهاجمًا.

(١) أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٣.

(٢) "أي بعد سياسة الوفاق التي أتى بها غورست بعد سياسة الخلاف التي ذهب بها كرومر على أنه لا خير لنا في سياسة ما مع الاحتلال". ديوان وطنيتي.

وتمعن الحكومة في اضطهاد الأحرار وتصدر قوانين جديدة ضد الحريات وتقوم بقمع مظاهرات الطلبة فيصرخ الغاياتي ثائرًا:

فليحـــــــــذروا وجـــــــــد النفـــــــــوس ليـــــــــأمنوا شـــــــــر المكيـــــــــدة

ولم تستطع يد البطش التي أجبرت الغاياتي علي ترك وطنه أن تسكت لسانه ولم يهدأ الغاياتي، بل زادت مهاجمته للخديوي:

مـــــــــالي أراه في الكنانـــــــــة مـــــــــاثلا وأرى أمـــــــــير النيـــــــــل عنـــــــــه يخـــــــــبر

وأرى المحـــــــــاكم بالمظـــــــــالم أغريـــــــــت وكأنهـــــــــا باســـــــــم الأمـــــــــير تغـــــــــرر

ويصدر الحكم علي الغاياتي وهو في دار هجرته فينبري للشيخ علي يوسف الذي كان تعليقه علي الديوان صحيفة الاتهام في هذه القصة، ويهاجمه بأنه أصبح لعبة في يد الخديوي، وسيصبح الاثنان ألعوبة في يد الشعب:

فيـــا شـــيخ إن كـــان الأمـــير محببـــا لـــك الغـــي فـــاعلم إنـــه لـــك خـــادع

ســـتلقى ويلقـــى إن يكـــن لـــك شـــافعا مـــن الشـــعب يومـــا مـــالا يوافيـــه شـــافع

*****

مناضلة الاحتلال

في الصفحات السابق رأينا كيف هاجم الوطنيون وفي مقدمتهم الغاياتي الخديوي عباس وحاربوه لاسيما بعد سياسة الوفاق، وكان هجومهم علي المحتلين ومحاربتهم له أكثر عنفًا، ذلك أن المصريين كانوا ينظرون إلى المحتلين علي أنهم يخالفوهم في الدرجة الأولي في "العقيدة"، ومن هنا كان رثاء المصريين بحكم الأتراك الغاشم، ومصطفى كامل لا يري في الولاء لدوله الخلافة استعمارًا، وهذا ما عبر عنه الغاياتي في قوله عن الخديوي:

إن الأمـــــير وإن بغـــــي وتزاحمـــــت ... خصـــــماؤه حـــــتى حفـــــاه الأزهـــــر
لأحـــــب عنـــــدي مـــــن عـــــدو غاصـــــب ... وأقـــــل شـــــأنا في الخطـــــوب وأصـــــغر

وإذا كانت الوطنية تجرى في دم الغاياتي، فإنه لم يتغزل ولم يمدح، وإذا كان قد قال قبل انضمامه للحركة الوطنية في الغزل أحيانًا، فان ذلك لم يتجاوز قصيدتين فحسب، كما إنه اعتذر عن ذلك واعتبره من أضاليل الشعراء – ونعى علي الشعراء اقتتالهم علي الشهرة وانصرافهم عن الوطن حتى "أنساهم رنين الكؤوس أنين النفوس وشجي الألحان شقى الأوطان ... والمدح والهجاء النصح والوفاء"[1].

وقد وجد الشعر الوطني نفسه – وهو يقاوم الاحتلال – أمام عدد من القضايا الوطنية من مقاومة ظلم الاستعمار وطغيانه والسخرية برجاله وأذنابه والإشادة بإبطال الشعب الذين يكافحونه ويناضلونه وكان الغاياتي أعلى الأصوات المقاومة التي ارتفعت في وجه الاحتلال.

١) مظالم الاحتلال:

في قصيدة الغاياتي الأولى التي افتتح بها ديوانه الثائر نراه يشكو من آثار الاحتلال ومساوئه:

نبصـــــر الفـــــيض بمصـــــر جـــــاريا ... بيـــــد أن القـــــوم يشـــــكون الاوامـــــا
ظمـــــأ قـــــاض ونيـــــل فائـــــض ... ودمـــــوع جـــــارت الســـــحب انســـــجاما
طـــــال يـــــوم الظلـــــم في مصـــــر ولم ... نـــــدر بعـــــد اليـــــوم للعـــــدل مقامـــــا

(١) وطنيتي.

وفي مقطوعة (وطني يناجي ربه) يقول إن الضغط يولد الانفجار ويشعل نيران الثورة:

رب أن الـــــــبلاد أرهقهـــــــا الظلـــــــم وحاقـــــــت بأهلهـــــــا البأســـــــاء
رب إن الصـــــــدور أحرجهـــــــا الـــــــوج ـــــــد وأودت بحلمهـــــــا الارزاء
فتـــــــدارك بلطفـــــــك النيـــــــل حـــــــتى لاتجـــــــاري حيـــــــاة مصـــــــر دمـــــــاء

ويصور لنا مظالم الاحتلال وسلبه الحريات في حديثه عن جهود محمد فريد في أوربا حيث طاف:

شـــــــاكيا أعمـــــــال قـــــــوم حســـــــبوا مصـــــــر غنيمـــــــه
جلبـــــــوا الشـــــــر إلينـــــــا بيـــــــد القهـــــــر الأثيمـــــــه
أمـــــــة المحتـــــــل أضـــــــحت وهـــــــي في مصـــــــر ظلومـــــــه
ســـــــلبت حـــــــق الأهالـــــــي وســـــــبت حـــــــق الحكومـــــــه
لم يكـــــــن للعـــــــدل فيهـــــــا مســـــــتقر فنرومـــــــه
إنهـــــــا أمـــــــة بطـــــــش وهـــــــي للحـــــــق خصيمـــــــه

وقد كان دعاة الجامعة الإسلامية يحسنون الظن بدولة الخلافة، فيطلبون نصرتها ويستعدونها علي الإنجليز، وهذا هو الغاياتي يشكو للخليفة ما حل بمصر:

رمتهـــــــا الحـــــــادثات بشـــــــر قـــــــوم لهـــــــم في كـــــــل مظلمـــــــه شـــــــئون

وحين كان شعراء الطبقة الأولى يقاومون الاحتلال، يحذر بل ويندفع بعضهم مشيدا بما حققه الاحتلال من إصلاح، يرتفع صوت الغاياتي ليكشف كذوبة المحتلين وادعاءاتهم:

يا ربى النيـــــل جـــــادك النيـــــل هـــــل أجـــــ ـــــدبت مـــــن قبـــــل هـــــذه الســـــنوات
هـــــل ســـــنو يوســـــف أبـــــر بمصـــــر أم ســـــنو الاحـــــتلال والازمـــــات
أدركتنـــــا الخطـــــوب خطـــــب فخطـــــب وبـــــلاء مـــــن العـــــداة والـــــولاة

ولم يكن الغاياتي في هجومه على الاحتلال الإنجليزي ليغير نظرته ويمنعها من كشف الاستعمار وأساليبه في كل مكان:

دالـــــــت الايام واحتـــــــل الحمـــــــي ظـــــــالم عـــــــن ظلمـــــــه لم يـــــــنم
لفظتـــــــه أرضـــــــه بعـــــــد مـــــــا أطمعتـــــــه نفســـــــه في الأمـــــــم

فهـــــو في الهنـــــد وفي مصـــــر وفي ... كـــــل أرض شـــــر ضـــــيف لهـــــم
ناكـــــث الأيمـــــان في أيمانـــــه ... حانـــــث لم يحـــــتفظ بالـــــذمم
باعـــــث الجهـــــل مميـــــت للحجـــــا ... خـــــاذل الحـــــق نصـــــير المجـــــرم
لا رعـــــاه الله مـــــن مغتصـــــب ... اشـــــأم اليـــــوم نـــــذير الـــــنقم

ولم تكن الشكوى من الاحتلال وتصوير مظالمه سلبية أو انهزامًا، بل كانت مدعاة لإلهاب العواطف الوطنية وإثارة الحماس الوطني بتصويرها للمحنة، وقد وافق هذا الشعر الذي يعرض مظالم الاحتلال ومساوئه شعر أخر يدعو إلى الثورة ويبعث الأمل في النفوس، وكان مصطفى كامل هو أول من بدد ظلمات اليأس التي انعقدت أمام أعين المصريين، يقول الغاياتي مخاطبًا روح الزعيم:

أنـــــت أوجـــــدت الشـــــعور الحـــــي في ... أمـــــة النيـــــل فأحييـــــت أممـــــا

ويغرس في نفوس الشعب بذرة الأمل والطموح:

أيهـــــا الشـــــعب أفـــــق ولى الظـــــلا ... م ولاح النـــــور للمستبصـــــر
فـــــانهض اليـــــوم ولا ترقـــــب غـــــدا ... وادفـــــع الشـــــر بســـــيف الحـــــذر
إنمـــــا الآلام أمـــــال وفـــــي ... قـــــدرة الشـــــعب مـــــدار القـــــدر

ويقول:

يا مصـــــر يـــــوم النصـــــر آت ... فـــــارقبي إشـــــراق فجـــــر

وكان الجلاء حلمًا يراود الشاعر ولكنه لا يراه مستحيلًا، فقط علينا أن نبذل الأرواح والدماء:

مصـــــر إني أرى أمامـــــك يومـــــا ... صـــــامت القـــــول ناطـــــق الأفعـــــال
فيـــــه نحـــــظ بمـــــا لـــــه نتمـــــنى ... وتفـــــوز الـــــبلاد بالآمـــــال
ويعـــــز الكـــــريم في ســـــاحة النصـــــ ... ـــــر ويمضـــــي اللئـــــيم بالإذلال
فـــــاهنئي أيتهـــــا الكنانـــــة إني ... أنظـــــر اليـــــوم واني الأجيـــــال

ويتخيل الثورة المصرية وقد اندلعت ويصور المستعمرين وقد فزعوا وهربوا وبزغ فجر النصر وأشرق، يقول في ختام قصيدته التي هاجم فيها الخديوي والوزارة البطرسية عقب صدور قانون المطبوعات:

بـــني مصـــر بشـــرى فالرجـــاء محقـــق ... ومـــن عـــدم الأقـــوال رام فعـــالا
فـــلا تيأســـوا فاليـــأس مجلبـــة الـــردى ... وشـــدوا إلى نيـــل الرجـــاء رحـــالا
ولا تفزعـــوا مـــن حـــاكم أو حكومـــة ... تـــرى نشـــر أمـــال العبـــاد ضـــلالا
فـــإني لمحـــت النصـــر بـــين صـــفوفكم ... وأبصـــرت عقـــبي الظـــالمين وبالا

وهو ينعي علي المصريين تقاعسهم واختلافهم، ويشخص لهم الدواء ويرشدهم إلى الدواء، وهو حين يرميهم بالتأخر والانقسام، إنما يريد بذلك بث الشعور بالعزة والكرامة، حتى يثوروا وينفضوا غبار الفرقة والتواكل:

ســـئمنا العـــيش في أرض ... سماهـــا مثلهـــا قفـــر
بهـــا طالـــت ليالينـــا ... ولا انجـــم ولا فجـــر
وبتنـــا نشـــتكي دهـــرا ... وعنـــدي أننـــا الدهـــر
نلـــوم الأجنـــبي علـــى ... أذى فيـــه لا عـــذر
ولـــو كنـــا كمـــن سلفـــوا ... نـــبر بمصـــر مابـــروا
لكنـــا مـــثلهم أســـدا ... نكـــر بهـــا كمـــا كـــروا
يهـــاب الدهـــر سطوتنـــا ... ويعـــرو غـــيرنا الذعـــر

والغاياتي يؤمن بقوة الشعب، تلك القوة التي تزلزل العروش، وتقوض صروح المستعمرين، وهو يدعو الشعب للثورة والانتقام:

إن في قبضـــه الشـــعوب حســـاما ... صـــادق البـــأس ماضـــي العزمـــات
يـــدع الخامـــل الجبـــان شـــجاعا ... ويبـــث الحيـــاة في الأمـــوات
ويجـــير الـــبلاد مـــن نكبـــات ... ويجـــر العـــدا إلى نكبـــات

وحين يفر الغاياتي إلى تركيا تظل حرية مصر – معشوقته – هي كل ما يتمناه ويبعث بصيحاته إلى الشعب المصري داعيا إياه أن يستعمل ذراعه، وأن يتسلح بالإيمان وصدق العزيمة:

يأهـــل مصـــر قفـــوا وصـــيحوا صـــيحة ... دوى لهـــا جـــو الـــبلاد الأغـــبر
واقضـــوا بحـــق الســـيف حقـــا نالـــه ... مـــن مصـــر ذاك الطـــامع المســـتعمر
إن امتشـــتاق الســـيف أبلـــغ حجـــة ... مـــن صـــولة القلـــم الضـــعيف وأقـــدر

والشـــــعب لـــــيس بمـــــدرك أمالـــــه ... مـــــا لم يصـــــل ذاك الحســـــام الأحمـــــر
إن الـــــدماء إذا غلـــــت أســـــعارها ... في أمـــــة هـــــبط الـــــبلاء الأكـــــبر
فحـــــذار أن تبغـــــوا الحيـــــاة دميمـــــة ... وحـــــذار يـــــوم النصـــــر أن تتقهقـــــروا
وحـــــذار أن تمضـــــوا بغـــــير عزيمـــــة ... أمضـــــى مـــــن الأقـــــدار حيـــــث تقـــــدر
وخـــــذوا مـــــن الفـــــرص المتاحـــــة فرصـــــة ... ثم اثنـــــوا وظـــــبى المنبـــــه تقطـــــر
إن الـــــذي نصـــــر الشـــــعوب وصـــــانها ... يـــــوم الجهـــــاد يصـــــون مصـــــر وينصـــــر

٢) أدوات الاستعمار

هاجم الغاياتي أدوات الاستعمار وأذنابه سواء أكانوا من الأجانب أو من أبناء البلاد، وسنختار من الأجانب الذين حمل عليهم (كرومر وروزفلت)، والدخلاء (المقطم)، والمهاجرين، ومن أبناء البلاد سنتوقف عند تنديده بالحكومة والخونة الضالعين مع الاستعمار، وقد كان أبرز الذين حمل عليهم الغاياتي هو كرومر.

أولًا- كرومر:

كان كرومر ممثل الاحتلال الإنجليزي يحكم مصر بقبضة من الحديد، وكان مجدًا في اصطناع الأصدقاء والأولياء واحتضان كل من يخاصم الخديوي والسلطان، وقد نجح في عقد صلات ود كثيرة مع المشايخ والعمد، بل ورجال الدين، وكسب أيضًا بعض أعضاء جماعة "تركيا الفتاة" الذين فروا إلى مصر، وقد استأثر كرومر بالنفوذ دون الخديوي، وكانت السلطة الفعلية في قبضته، واتخذ الصراع بين السلطة الشرعية والسلطة الفعلية شكلًا أدبيًا؛ فوقفت (المؤيد) في صف الخديوي، ودافع (المقطم) عن الاحتلال، وكان شوقي يرتفع في مهاجمته للإنجليز ويهبط كقصبة الزئبق، تبعًا لبعد ميره عن الإنجليز وقربه منهم، وكان نسيم يمدح كرومر ويشيد بعدالة الإنجليز.

وقد وقف موقف شوقي كثير من الشعراء الذين أطلق عليهم (شعراء الوطنية)، أما الغاياتي فلم يهادن الاحتلال يوما، وحمل على كرومر سواء كان الخديوي متفقًا معه أم مختلفًا.

فهو يندد بما وصل إليه حال مصر في عهد هذا العجوز الداهية ساخرًا:

هـــــل ســـــنو يوســـــف أبـــــر بمصـــــر ... أم ســـــنو الاحـــــتلال والأزمـــــات؟

وهو يسخر من الاصلاحات التي قام بها كرومر والتي لم يكن الهدف من ورائها إلا إفادة المحتلين:

نبصـــــــر الفـــــــيض بمصـــــــر جـــــــاريا بيـــــــد أن القـــــــوم يشـــــــكون الاوامـــــــا
ظمـــــــأ قـــــــاض ونيـــــــل فائـــــــض ودمـــــــوع جـــــــارت الســـــــحب انســـــــجاما

وأديرت مصر من قصر الدوبارة، واستأثرت جماعة المحتلين بالسلطة:

ســـــــلبت حـــــــق الأهالـــــــي وســـــــبت حـــــــق الحكومـــــــة

فلما خرج كرومر من مصر بعد فضيحة دنشواي، وألف كتابه -مصر الحديثة- الذي ملأه طعنًا وتشهيرًا بمصر والإسلام، كتب الغاياتي مقطوعة على لسان كرومر ساخرًا:

خرجـــت مـــن مصـــر مقهـــورا ومـــرذولا وصـــح أني تركـــت القصـــر معـــزلا
فقمـــت غيظـــا وألفـــت (الكتـــاب) وفي قلـــبي لهيـــب إذا مـــا أذكـــر النيـــلا

ثانيًا- روزفلت:

روزفلت هو رئيس جمهورية الولايات المتحدة الأمريكية في الفترة من ١٩٠١- إلى سنه ١٩٠٨، وقد كان في سياحة لإفريقيا، وألقى في مدينة الخرطوم خطبة أشاد فيها بالاحتلال، ولما وصل القاهرة خطب في الجامعة المصرية يوم ٢٩ مارس سنة ١٩١٠ خطبة اتهم فيها المصريين بالعجز والخيانة والجهل والتعصب وعدم الأهلية لنيل الحكم الذاتي، مع إنه لم يقض بمصر غير ساعات، قضاها بين جدران (فندق شبرد)، وجزاء سبه وطعنه منحته الجامعة أول دكتوراة فخرية، وقامت جموع الشعب بمظاهره ثائرة أمام الفندق، وفي اليوم التالي لقي في الإسكندرية مظاهرة أشد وأعنف حتى لاذ بالباخرة، وهاجمه الغاياتي بقصيدة اتهمه بأنه داعية استعمار بغيض:

لعمـــــرك لســـــت بالرجـــــل الهمـــــام إذا عـــــد الهمـــــام مـــــن الكـــــرام
كـــــرام النـــــاس أصـــــدقهم حـــــديثا وأبعـــــد عـــــن أكاذيـــــب اللئـــــام

ويذكره الغاياتي بحال بلاده وهي تحت الاحتلال الإنجليزي ويفخر بمصر صاحبة أقدم الحضارات:

فمـــــن أنـــــتم إذا افتخـــــرت شـــــعوب بمجـــــد في ذرا الأهـــــرام ســـــام؟
لنـــــا مـــــا كـــــان مـــــن مجـــــد تليـــــد ومـــــا كنـــــتم هنالـــــك في الأنـــــام

ويعدد ألوان الخسف والذل التي قاسوها على يد الأسبان والإنجليز:

وقـــــد ســـــاموكم الخســـــف اعتســـــافا وقـــــادوكم إلى المـــــوت الـــــزؤام

ويقارن بينه وبين الدكتور (كوك) الأمريكي الذي ادعى أنه اكتشف القطب الشمالي ثم تبين كذبه:

لعمـــــرك إن (كوكـــــا) منـــــك أولى بألقـــــاب الـــــدكاترة الفخـــــام
تـــــراهم كـــــذبوه ولا نـــــراه روى مـــــا قـــــال عـــــن حـــــزب الخصـــــام

ويختتم قصيدته ببيت من الشعر لشوقي قاله في (رياض باشا) حين وقف يشيد بكرومر في حفل مدرسة محمد علي الصناعية:

ودونـــــك مـــــن بنـــــات الشـــــعر بيتـــــا رواه النيـــــل عـــــن رب الكـــــلام
خطبـــــت فكنـــــت خطبـــــا لا خطيبـــــا أضـــــيف إلى مصـــــائبنا الجســـــام

وقد هاجمه شوقي بقصيدته - أنس الوجود - وإن كان قد نشرها بعد زيارته بسبعة شهور في أكتوبر سنة ١٩١٠ بمجلة (الهواية)، أما حافظ فقد كان أول من هاجم روزفلت عقب خطبته في الخرطوم بقصيدة مطلعها:

أي خطيـــــب الـــــدنيا الجديـــــدة شـــــنف سمـــــع مصـــــر بقولـــــك المـــــأثور

وقد جاءت في كتاب محمد فريد ١٦٤ ولم ترد في الديوان. وتوجه روزفلت بعد ذلك إلى انجلترا ونزل بمدينة لندرة، ووقف خطيبًا في قاعه (جولد هول) منددًا بالمصريين مؤيدًا أن تكون مصر تحت (وصاية) بريطانيا "ولقد أجيز للمستر روزفلت أو طلب إليه أن يرفع عقيرته مؤذنًا بذلك فكانت هذه الإجازة أو هذا الطلب مؤتلفًا مع الطريقة القديمة طريقة اصطناع الرأي العام بواسطة شهود يشهون أن يكونوا محايدين مستقلين"[١]، وقد استهجنت صحف الأحرار في انجلترا وفرنسا عمله هذا وهاجمه الغاياتي بقصيدته "إلى خطيب جولد هول":

مـــــاذا تحـــــاول يا روزفلـــــت مـــــن خطـــــب ترمـــــي بهـــــا مصـــــر عـــــن حقـــــد وعـــــن غضـــــب
إن الكنانـــــة قـــــد أصـــــمتك أســـــهمها فكيـــــف تـــــدفع ســـــهما ريـــــش بالعطـــــب
يأيهـــــا الواغـــــل العـــــادي علـــــى بلـــــد لـــــو أنصـــــفتك رمـــــاك النيـــــل بالحـــــرب

(١) تيودور رتشتين، تاريخ المسألة المصرية (١٨٧٥ – ١٩١٠)، ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٦، ص٣٣٥.

هـــذي يـــد لـــو رآك اليـــوم صـــاحبها لصـــافحت نارهـــا مســـتودع الخطـــب

ثالثًا- الدخلاء:

وأعني بهم الغرباء الذين وفدوا إلى مصر "لا يملكون غير الأرض وطاء والسماء غطاء، فأكرمت مثواهم وأفاضت بركتها عليهم، فأصبحوا بنعمتها من المترفين الثريين، ولكنهم جحدوا فضلها وحالفوا أعداءها عليها وحاربوا أهلها الكرام حربًا عوان"[١]، وكان أكثرهم من مهاجري الشوام الذين وفدوا إلى مصر منذ عهد إسماعيل سعيًا وراء العمل، أو فرارًا من تعسف الأتراك، فنقموا عليهم وعلى المسلمين، إذ كان أغلبهم من المسحيين، ثم الأوروبيين وكانوا أكثر من مائة ألف، هذا بالإضافة إلى بعض الأرمن، وكانت عواطف هؤلاء جميعًا مع الاحتلال، وقد حذر مصطفى كامل من خطرهم "فالدخيل هو العدو الحقيقي وهو العدو الألد الذي يجب محاربته بالقلم واللسان حتى تعرفه الأمة وتنبذه وتجتنبه كل الاجتناب"[٢]، وهاجمهم النديم على صفحات مجلة الأستاذ، أما الغاياتي فيرى أننا قد بالغنا في إكرام هؤلاء حتى ليصح لنا أن نخاطبهم بقول الشاعر:

يا ضـــــيفنا لـــــو جئتنـــــا لوجـــــدتنا نحـــــن الضـــــيوف وأنـــــت رب المنـــــزل[٣]

ومع هذا فإنهم يتنكرون لمصر والمصريين، ويمالئون الاحتلال، ويشيدون به، فينكرون على المصريين حقهم، وكان على رأس هؤلاء من حملة الأقلام فارس نمر صاحب المقطم، ويعقوب صروف صاحب المقتطف، وولى الدين يكن الشاعر الناثر.

وقد كانت صحيفة المقطم التي أنشأها الإنجليز صحيفة إنجليزية تؤيد الاحتلال وتشيد بعدله وإصلاحاته، وتهاجم المصريين، وخاصة الحزب الوطني، وقد أطلق الغاياتي على الدخيل لفظ (الواغل) لأن الأولى "لا تتفق تمامًا مع المعنى اللغوي ولا يؤدي الغرض المراد من التحقير، والأولى أن يستعمل لفظ واغل مكان دخيل فإن الواغل الذي يدخل على القوم في شربهم فيشرب معهم من تلقاء نفسه وبذلك يكدر صفائهم"[٤].

(١) وطنيتي، ص ٥٠.

(٢) مصطفى كامل باشا، مصر والاحتلال الإنجليزي، مجموعة أعمال مصطفى كامل، مطبعة اللواء، القاهرة، ١٩٠٨، ص١٤١.

(٣) من شعر حسين بن حمدان الخصيبي.

(٤) وطنيتي، ص٥٠.

وفى أول قصيده يكتبها في القاهرة يخاطب مصطفى كامل محقرًا من شأن أعدائه: وهو هنا يغمز (صاحب المقطم):

ودع (الـــــدخيل) مـــــع الـــــذين دعـــــاهمو عقـــــلاء مصـــــر وأولهـــــم إهمـــــالا

وحين يصدر الحكم على الشيخ جاويش بسبب مقاله – ذكرى دنشواي – يتصور الغاياتي أن الثورة شبت في مصر، وأن الدماء أغرقت الطرقات ويتصور الخونة قد بادوا والمحتلين قد هزموا:

وغـــــــدا (الـــــــدخيل) مروعـــــــا أركانـــــــه تتهـــــــدم

يرجـــــــوا النجـــــــاة ولا سبيـــــــل ويســـــــتبين فـــــــيعجم

ويمـــــــد صـــــــوت ندائـــــــه نحو(العميـــــــد) فـــــــيحجم

ذاق الـــــــوبال بمـــــــا جنـــــــاه ولم يفـــــــده الـــــــدرهم

فانـــــــدك صـــــــرح كـــــــان فيـــــــه للخيانـــــــة مغـــــــنم

ويقول مخاطبًا بعضهم:

كـــــــن مصـــــــريا أو دع مصـــــــرا واذهـــــــب إن شـــــــئت إلى القمـــــــر

فالنيـــــــل بمثلـــــــك منكـــــــوب يجـــــــرى بالبـــــــؤس وبالكـــــــدر

والجنـــــــة في الـــــــوادي حالـــــــت بمقامـــــــك فيـــــــه إلى ســـــــقر

ويعلق على هذه الأبيات بقوله:

النيل والحق يقال شقى بهذا النفر الذين لا يمدون إليه أيديهم إلا ليأخذوا منه لا ليعطوه ثم هم بعد ذلك يتجاهلونه ويخذلونه.... إنهم لشؤم وبؤس وكدر، وهم والله شر على الوطن يوم الكدر من كل خصم عنيد وعدو لدود[1] - يرى الغاياتي أنهم أكثر شرورًا من الاستعمار نفسه.

٣) أذناب الاستعمار

يقول حافظ إبراهيم عن منازع هؤلاء الذين عرفوا من أين تؤكل الكتف ولا يرون الحياة إلا طعامًا ومتعة:

(١) وطنيتي.

وهـــــذا يلـــــوذ بقصـــــر الأمـــــير ويـــــدعو إلى ظلـــــه الأرحـــــب
وهـــــذا يلـــــوذ بقصـــــر السفـــــير ويطنـــــب في ورده الأعـــــذب
وهـــــذا يصـــــيح مـــــع الصـــــائحين علـــــى غـــــير قصـــــد ولا مـــــأرب

وإن كان قصده واضحًا ومآربه غير خافية، وقد اتخذتهم السلطتان الشرعية والفعلية أدوات ليرتكبوا كل ما يرتكبون من جرائم ومساوئ باسمهم، وهم طلاب نفع وطلاب سلطة تكالبوا على كراسي الحكم بوظائفهم، يقول الغاياتي:

باعـــــوا المـــــواطن بالمـــــآرب وانثنـــــوا في كـــــل قـــــول ينشـــــدون نـــــوالا
والمـــــال يذهـــــب بالنفـــــوس مـــــذاهبا تتبـــــين الأخيـــــار والأنـــــذالا
حســـبوا الحمـــى عرضـــا مـــن الأعـــراض أو غرضـــا مـــن الأغـــراض أســـوأ حـــالا

ويقول عنهم أنهم ألفوا الذل واستماتوا فماتوا؛ ولذا يقول:

كيـــف ترجـــوا الحيـــاة مـــن غـــير حـــي همـــه في الوجـــود هـــم الشـــاة

وضرر الخونة على الأمة أكثر من ضرر المستعمرين؛ ولذلك يقول الغاياتي:

أســـفي علـــى رزء الـــبلاد بأهلهـــا لا رزئهـــا بعـــداء مـــن عاداهـــا

وقد ركز الغاياتي هجومه على الخديوي وبطرس غالى والوزارة، ثم بعض جماعة حزب الأمة، وقد سبق أن تحدثنا عن مهاجمته للخديوي، وسنعرض فيما يأتي مهاجمته لبطرس باشا غالى ثم الوزارة:

أولًا- بطرس غالي:

بدأت أعمال بطرس غالى تثير غضب الشعب منذ توقيعه على اتفاقيه السودان سنة ١٨٩٩ بوصفه وزيرًا للخارجية، ثم كان هو الذي أصدر قرار تشكيل المحكمة المخصوصة في حادثة دنشواي سنه ١٩٠٦ ورأسها، كما كان الساعد القوي للخديوي في بطشه وتنكيله بالأحرار بعد الإخاء الذي ربطه بالمحتلين، فسافر معه إلى لندن ١٩٠٨ وعينه رئيسًا للوزارة ١٩٠٩، فبدأ عمله في الوزارة بإحياء قانون المطبوعات القديم، كما أصدر قانون النفي الإداري، وهذا الماضي السياسي أثار حفيظة الشعب وغضبه لا سيما الحزب الوطني، وزاد الغضب دخول بطرس في مفاوضات مع شركه قناة السويس لمد امتيازها أربعين سنة أخرى، مقابل

أربعة ملايين من الجنيهات فأطلق عليه الورداني – وكان من المتحمسين لمبادئ الحزب الوطني- ستة رصاصات، وثارت ثائرة المسيحيين وعقدوا مؤتمرًا في أسيوط، ورد عليه المسلمون بعقد المؤتمر المصري، وانجلى الموقف بعودة الإخاء والصفاء، وكانت هذه الحادثة أول حوادث القتل السياسي التي وقعت في مختلف عهود الحركة الوطنية الحديثة.

وكانت الأسباب كما ذكر الورداني سياسية، "ولو لم يكن بطرس باشا قبطيًا لوقعت الجريمة مهما كانت ديانة المعتدى عليه، ولكن وقوع الجناية على رئيس وزارة قبطي – وهذه حقا مصادفة سيئة - جعل فريقًا من الأقباط ينسبونها إلى التعصب الديني.... ويدل على هذه الحقيقة تكرار حوادث الاعتداء السياسي بعد هذه الحادثة دون أن يكون لديانة المعتدى عليهم أثر ما في توجيههم"[1]، على أن الغاياتي كان قد هاجم بطرس غالى عقب كل إجراء كانت تقوم به وزارته، فبعد بعثه لقانون المطبوعات يهاجم وزارته ويهدده بسوء العاقبة:

ألا أمطر الله الوزارة نقمة ... ولا بلغت بما تروم مراما
تحاول أن تقض علينا بإثمها ... ولكن ستلقى دون ذاك آثاما

ثم يعدد مساوئ الرجل ويقلب صفحات خيانته:

جنى ما جنى في دنشواي وغيرها ... ولم يكفه حتى استحل حراما
فقيَّد أقلام الصحافة علّها ... إذا أبصرت سوءاته تتعامى

وحين تصرعه رصاصات الورداني تحس في أبيات الغاياتي كشفا حقيقيا غيرة على الوطن فيقول ساخرا:

ماذا دهى شيخ الوزارة فارتمى ... فوق الثرى يشكو الردى ويعاني
مالي أراه مضرجا بدمائه ... وأرى الرغام بموضع النيشان
وافاه إبراهيم مجترئا على ... ما كان من بأس ومن سلطان

ثم يدافع عن موقف الورداني وقتله بطرس باعتباره خائنًا لا مسيحيًا:

سألوه في التحقيق عن أسباب ما ... نكروه من قتل ومن العدوان
فأجابهم أما القتيل فإنه ... فيما أراه خائن الأوطان

(١) من افتتاحية السير ألدون جورست المعتمد البريطانى فى مصر في تقريره عن الحالة العمومية لسنة ١٩١٠.

في مصـــــــــــر والســـــــــــودان أثار دوت عـــــــن خيانـــــــة مصـــــــر والســـــــودان
أمـــــــا أنا قضـــــــيت حقـــــــا واجبـــــــا للنيـــــــل عـــــــن حـــــــب وعـــــــن إيمـــــــان

ويظهر أن ذلك لم يشف غليل الغاياتي، إنه يريد أن يصور بشاعة خيانة بطرس التي أضرت بالوطن، ولكنه يخشى أن يحدث انقسامًا بين عنصري الأمة، وهو قد جاهد من أجل رأب الصدع وحتى لا يثير مشاعر المسيحيين يكتب قصيدة بعنوان (مصرع الباغي علي أمته الخائن لوطنه)، ويمهد لها بقوله "يتخيل الشاعر ما شاء من المعاني والصور ويخاطب ما شاء من الأشياء ابتغاء العظة أو الحكمة أو الحث على فضيلة والتنفير من رذيلة"، والقصيدة لا تخفى على قارئها أنها قيلت في بطرس غالى بعد مصرعه:

مـــــــــازال ســـــــــهمك ينـــــــــزع وحســـــــــام بغيـــــــــك يفجـــــــــع
خنـــــــــت الـــــــــبلاد وأهلهـــــــــا وفجعـــــــــت مـــــــــن يتفجـــــــــع
خـــــــــداع ويلـــــــــك لا تـــــــــنم فالـــــــــدهر دونـــــــــك يخـــــــــدع
اليـــــــــوم تعلـــــــــم مـــــــــا جنيـــــــــت ولـــــــــيس علمـــــــــك ينفـــــــــع
وغـــــــــدا تـــــــــرى هـــــــــول الحســـــــــا ب ولا تـــــــــرى مـــــــــن يشـــــــــفع
خـــــــــداع ويلـــــــــك هـــــــــل تـــــــــرى مـــــــــاذا دهـــــــــاك وتســـــــــمع
صـــــــــرعتك غائلـــــــــة الـــــــــردى (ولكـــــــــل باغ مصـــــــــرع)

وخرج الشعب في صباح ليلة تنفيذ الحكم يردد مواله الذي لا يزال جزءا من تراث الغناء العربي:

قولـــــوا لعـــــين الشـــــمس مـــــا تحماشـــــي أحســـــن غـــــزال الـــــبر صـــــابح ماشـــــي

ثانيًا الوزارة:

وأعني بها وزارة بطرس غالي، فحين تضرب الوزارة عن حضور مجلس الشورى فرارًا من سؤال النواب ومناقشتهم يهاجمهم الغاياتي ويسخر من فرارهم:

يأيهـــــا النـــــواب مـــــاذا نابكـــــم حـــــتى هجـــــرتم (صـــــورة النـــــواب)
ورضـــــيتموا الهـــــرب المعيـــــب لأنـــــه خـــــير مـــــن الإفـــــلاس عنـــــد الحســـــاب

ويحرضهم على عصيان رئيسهم بقوله:

أو كـــــان ثمـــــة آمـــــر متوعـــــد فاعصـــــوا ولا تخشـــــوا مـــــن الإرهـــــاب

ثم ينعى حظ مصر لمصابها بهؤلاء الوزراء والنواب مصورًا إياهم بالتماثيل:

يا ويـــــل مصـــــر بهـــــم ويا أســـــفا علـــــى مـــــا حـــــل بالشـــــورى مـــــن الأنصـــــاب

وحين تعتدي على الحكومة على حرمة الأزهر وتقوم بجلد بعض شيوخه يوجه تحذيرًا إليها:

واحـــــذروا يومـــــا تـــــرون بـــــه إن أبيـــــتم ذلـــــك النـــــدما
يـــــوم لا تغـــــنى جنـــــودكم عـــــنكم إن حـــــادث دهمـــــا

ويتصدى لرشدي باشا ناظر الحقانية حين أصدر حكمًا على جاويش بسبب مقاله عن دنشواي:

حكمـــت ولم تنصـــف وقلـــت فلـــم تصـــب ورمـــت مرامـــا دونـــه الله والنـــاس
فأغضـــبت في مصـــر القضـــاء وأهلـــه وأرضـــاك أن ترضـــى خـــؤون وجســـاس
فـــلا تـــك بعـــد الآن للعـــدل مـــوئلا فغـــيرك بعـــد الآن للعـــدل حـــراس
وحـــارب بســـيف الظلـــم مـــن شـــئت بيننـــا فغايـــة مـــا يغـــني مـــن الظلـــم إفـــلاس

ثم يختتم قصيدته بصيحة تهديد ووعيد:

لعمـــرك مـــا قصـــر الـــدوبارة نافـــع إذا انتبـــه المظلـــوم واحتـــدم اليـــأس

ويذهب جماعة من المعتدلين من حزب الأمة إلى لندرة، ويلقون خطبًا في وليمة أعدت لهم وسخطت الجماهير، وحمل اللواء عليهم حملات شديدة، يقول الغاياتي عنهم وهو يخاطب محمد فريد – مبرئًا إياه - من مثل أعمالهم:

ومعـــــــــاذ الله أن تغـــــــــدو كأصـــــــــحاب الوليمـــــــــة
نقضـــــــوا العهـــــــود ومـــــــاتوا وجنـــــــوا شـــــــر جريمـــــــة
أخفقـــــــوا ســـــــعيا فعـــــــادوا ومســـــــاعيهم عقيمـــــــة
وادعـــــــو فينـــــــا اعتـــــــدالا واســـــــتعانوا بالشـــــــتيمة

*****

الإشادة بمبغضي الاحتلال (أبطال الوطنية)

هذه الروح الوطنية الأصيلة التي رأيناها عند الغاياتي متمثلة في هيامه بالوطن وهجرته من أجله وحنينه إليه وتحقيره للاحتلال والضالعين معه، هذه الروح الوطنية تظهر أكثر وضوحًا وجلاء في إشادته بأبطال-الوطنية - مبغضي الاحتلال، وقد عاصر الغاياتي أبطالًا للوطنية كانوا فخر مصر ورجائها.

لقد كان أمام المصريين في مفتتح هذا القرن طريقان لتحقيق الجلاء والاستقلال، طريق شقه الحزب الوطني مناديًا بالثورة والعنف، وطريق اختاره حزب الأمة سالكا سبيل المهادنة والتدرج.

ولم يكن الغاياتي قد جاوز الثانية والعشرين بعد، فترك موطنه دمياط، وجاء إلى القاهرة ليشارك في الحركة الوطنية، وكان من طلاب الدين في ذلك العهد، فانضوي تحت لواء الحزب الذي يحث على نشر مبادئ الإسلام الصميمة بين الأمة، لأن الإسلام أقوى عامل من عوامل النهوض والترقي لمن شاء، ومنها كان إعجاب الغاياتي بزعيم الحزب مصطفى كامل، وخليفته محمد فريد، وكاتبه عبد العزيز جاويش، وشهيده إبراهيم الورداني، ولم يكن الغاياتي بهذا صادرًا عن عصبية حزبية، وإنما كانت المبادئ التي يعملون من أجلها هي سبب إعجابه بهم، وذلك أننا نراه يشيد ببطولة الشاب الهندي –دنجرا-الذي فعل فعلة الورداني في مصر، ونراه أيضًا يشيد بسعد زغلول الذي لم يمد يدًا للحزب الوطني.

أولًا- مصطفى كامل

يعتبر مصطفى كامل نبي الوطنية المصرية في مطلع القرن العشرين، وكانت وطنيته اللاهبة هي التي بددت اليأس الذي أحاط بالمصريين كما يقول أحمد شوقي:

فكانـــــت في مراراتهـــــا زئـــــيرا وكانـــــت في حلاوتهـــــا بُغامـــــا

وكانت وطنية مصطفى كامل هي التي قدحت زناد شاعرية الغاياتي، فانطلقت بذلك أول شرارة لشعر ثوري صادق، وكانت أول قصيدة وطنية يؤلفها في القاهرة موجهة إلى مصطفى كامل:

اصـــــدع بقولـــــك إن أردت مقـــــالا فـــــالقوم جنـــــدك إن دعـــــوت رجـــــالا
لم تـــــدر مصـــــر ســـــوي حمـــــاك تؤمـــــه فـــــتري بـــــه آلامهـــــا آمـــــالا
أقبـــــل علـــــي الـــــوطن العزيـــــز بصـــــارم لا تـــــدرك الأعـــــداء منـــــه كـــــلالا

واعمـــــل علـــــي الرشـــــد القـــــويم لأمـــــة ... يبغـــــي ســـــواك برشـــــدها إضـــــلالا
وانشـــــر بـــــه فـــــوق الطـــــروس حميـــــة ... تحكـــــي حميـــــة صـــــنوه إن صـــــالا

أما أعداء الوطن سواء أكانوا من الأجانب والدخلاء أم من أهل البلاد فلا تحفل بهم فهم:

حســـــدوك إذ أمســـــيت بـــــدرا كـــــاملا ... مـــــن قبـــــل أن يمســـــي ســـــواك هـــــلالا
ورأوك تقـــــتحم الصـــــعاب بهمـــــة ... لم تـــــدر فيمـــــا تبتغيـــــه مـــــلالا
وتجـــــادل الخصـــــم العنيـــــد بقـــــوة ... حســـــبوا لهـــــا بعـــــد الجـــــدال نـــــزالا
جبنـــــوا لعمـــــرك عـــــن طـــــلاب حقوقـــــه ... حـــــتى بـــــدا لهـــــم المقـــــال قتـــــالا
أنـــــت الـــــرئيس إذا أردت رئاســـــة ... والقطـــــر حزبـــــك يمنـــــة وشمـــــالا

وفي ختام القصيدة يوضح الغاياتي سبب إعجابه بمصطفى كامل:

ورجـــــوت أن أغـــــدو لحزبـــــك ناصـــــرا ... يغتـــــال مـــــن خصـــــمائه الآجـــــالا
فـــــادأب علـــــي انهـــــاض أمتـــــك الـــــتي ... ترجـــــو وراء خطـــــاك الاســـــتقلالا

ولكن أصابع الموت الزرقاء تصهر غصن مصطفى كامل الناضر ويهتز قلب مصر حزنًا، وكانت وفاته كارثة وطنية وصدمة قاسية للأمة وللاحتلال أنفسهم الذين لم يسعهم وهم في سرورهم المكتوم إلا أن يعترفوا برسوخ المبادئ التي جمعت الأمة حول رجل كان أول من أقدم علي الجهر بها مرة أخرى[1].

وتبارى الشعراء برغم تعدد الميول السياسية في رثائه ونعيه إلى الأمة المصرية، فأحمد نسيم يرثيه بقصيدتين يقول في مطلع الأولي:

مـــــا بال دمعـــــك لا هـــــام ولا هـــــاري ... هـــــل اكتفيـــــت بمـــــا في القلـــــب نار

وشيعه إسماعيل صبري بقصيدته التي يقول في مطلعها:

أداعـــــي الأســـــى في مصـــــر ويحـــــك داعيـــــا ... هـــــددت القـــــوي إذ قمـــــت بالأمـــــس ناعيـــــا

ويؤبنه مطران في الأربعين:

(١) منير الشرق.

أعلـــــى مكانتـــــك الإلـــــه وشـــــرفا فـــــأنعم بطيـــــب جـــــواره يا مصـــــطفى

وينشد حافظ في قبره أصدق ما قال من شعر مصورًا جزع الشعب:

أَيا قَـــــبرُ هَـــــذا الضَـــــيفُ آمـــــالُ أُمَّـــــةٍ فَكُـــــنْ بِرّ وَهَلِّـــــل وَالِـــــقَ ضَـــــيفَكَ جاثِيـــــا
عَزيـــــزٌ عَلَينـــــا أَن نَـــــرى فيـــــكَ مُصـــــطَفى شَـــــهيدَ العُـــــلا في زَهـــــرَةِ العُمـــــرِ ذاوِيا

كأن شعر حافظ صورة صادقة لهذا الجزع، نار ملتهبة ولوعة لا حد لها، وحل ذكري الأربعين فينشد في حفل التأبين قصيدته:

نثـــــروا عليـــــك نـــــوادي الأزهـــــار وأتيـــــت أنثـــــر بيـــــنهم أشـــــعاري

أما صديقه شوقي فيرثيه بقصيدته التي يقول في مطلعها:

المشـــــرقان عليـــــك ينتحبـــــان قاصـــــيهما في مـــــأتم والـــــدان

وبكى فيه مصطفى كامل الرجل والإنسان "أما سيرة مصطفى كامل، وأما خدماته الوطنية، وأما تعلق المصريين به، فكل ذلك يوضع عليه ستار ويغشاه ضباب"[1]، ذلك أن الخديوي غير راض عن مصطفى كامل، وهو لا يريد إغضاب الخديوي، ولكنه يريد إرضاء الجماهير التي تقرأ له فيلمس أوتار الحزن في قلوب الناس، ولكن بأصابع مرتجفة، أما الغاياتي الذي وهب نفسه للوطن وأقسم أن يطلع من دياجي الخطوب من حياته فجرًا، فقد أذهله المصاب وألجمته الكارثة، وكان وقتها يزور أسرته بدمياط، فأعلن الحداد العلم في مدينته، كما يذكر في قصيدته في الذكرى الأولى:

كنـــــت يـــــوم الوفـــــاة أول بـــــاك نظـــــم الـــــدمع والقـــــريض رثاء
ومـــــلأت الربـــــوع في ثغـــــر دميـــــا ط أســـــي فائضـــــا أفـــــاض البكـــــاء
ثم ناديـــــت آمـــــلا نهضـــــة القـــــو م فلاقـــــي النـــــداء مـــــنهم نـــــداء
وقضـــــينا مـــــن الصـــــلاة فروضـــــا ومـــــن الآي المحكمـــــات دعـــــاء
وبكينـــــا الفقيـــــد فـــــانهزم الصـــــب ـــــر ولم تـــــدرك النفـــــوس عـــــزاء

(١) شوقي ضيف، شوقي؛ شاعر العصر الحديث، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢، ص٢٢.

ثم نظم قصيدته (آية الأسف) وألقاها في مجمع حافل بجامع البحر بعد صلاة الجمعة – ناعيًا إلى الأمة مصابها الفادح مشيدًا ببطولاته ورجولته، كاسيًا إياه رداء الجلال والعظمة، يقول:

حـــامي الأوطـــان روعـــت الحمـــى ... حينمـــا أمســـيت عنـــه محجمـــا
مـــن لمصـــر بعـــد ذاك النـــأى إن ... أصـــبحت تشـــكو الضـــنا والســـقما

ثم يتحدث عن جزع الأمة لمصابها وحزن مصر علي ابنها البار:

إن مصـــر اليـــوم ثكلـــى دمعهـــا ... مـــازج النيـــل فـــأجراه دمـــا
يا حيـــاة النيـــل جـــف النيـــل مـــن ... وهـــج الوجـــد وأســـقانا الظمـــا

ويصور مبادئه التي نذر حياته من أجلها وجهود في إيقاظ الأمة وتنبيهها:

يا فقيـــد الشـــرق ضـــلت أمـــة ... كنـــت تهـــديها الصـــراط الأقومـــا
أنـــت علمـــت الـــبلاد القـــول إن ... أبصـــر القائـــل حقـــا هضـــما
أنـــت أوجـــدت الشـــعور الحـــي في ... أمـــة النيـــل فأحييـــت أمـــما

ويخاطب وجه الموت الكريه الذي هصر هذا الغصن النضير محطما بذلك شجره اليقظة القومية

أيهـــا المـــوت اتئـــد نحـــو الصـــبا ... وإذا شـــئت فـــواف الهرمـــا
إن هـــذا الغصـــن في روض المـــنى ... يـــنفح القطـــر النـــدي والكرمـــا
كيـــف لم تمهلـــه يا مـــوت ولم ... تـــرع هاتيـــك العـــلا والشـــيما؟

ويختتم قصيدته مبديًا أسفه لأنه لم يستطع المشاركة في تشييع جنازة روح مصر والسير مع هذه الجموع المؤلفة:

أنظـــر الـــنعش وقـــد حفـــت بـــه ... فتيـــة العلـــم وخـــير العلمـــا
وأرى القـــوم وقـــد نادى بهـــم ... هـــاتف الوجـــدان حيـــوا العلمـــا[1]
مشـــهد أدهـــش مـــن أبصـــره ... ســـار أهـــل الأرض فيـــه والســـما

(١) كان نعش الفقيد ملفوفًا بالعلم المصري.

ويعود الغاياتي إلى القاهرة – يواصل رسالة الزعيم ويصوغ مبادئه شعرًا ثائرًا:

يا رئـــــيس الحـــــزب إني مخلـــــص مثلمـــــا تعهـــــد أرعـــــى الـــــذمما

وما إن تحل الذكرى الأولى لوفاة الزعيم حتى تزدهر حديقة الشعر وتثمر شعرا يفيض حبًا وإعزازًا له فيرثيه نسيم بقصيدته التي يقول في مطلعها:

مـــــا بال عينيـــــك بالمـــــدامع تســـــجم رفقـــــا بنفســـــك فالقضـــــاء محـــــتكم

ويرثيه الكاشف بقصيدته:

لهفـــــي عليـــــك وقـــــد رحلـــــت لم تـــــدرك لغرســـــك في الـــــبلاد إثمـــــارا

وينشد حافظ على قبره في حفل إحياء ذكراه الأول:

طوفـــوا بأركـــان هـــذا القـــبر واســـتلموا واقضـــوا هنـــا لـــك مـــا تقضـــي بـــه الـــذمم

وينظم الغاياتي قصيدته "رب ذكرى هيجت شجنًا" يذكر فيها أن ذكرى مصطفى كامل أهاجت أحزانه وأثارت أشجانه، وإن كانت قد ملأته أملا في مستقبل مصر بفضل هذا النبت الذي غرسه الزعيم وبدأ يزكو:

أدهشـــــتني حيـــــاة مصـــــر وأحيـــــا أملـــــي نشـــــؤها العظـــــيم الرجـــــاء
عرفـــــت واجـــــب الوفـــــاء وأحيـــــت ذكـــــر حـــــامي الحمـــــى شـــــهيد الوفـــــاء
وأقامـــــت لـــــه مـــــآثر تبقـــــى يـــــوم تفـــــنى مـــــآثر الأمـــــراء
وأحلتـــــه في القلـــــوب مكـــــانا أبـــــد الـــــدهر مســـــتجد البنـــــاء

وما تكاد الذكرى الثانية تحين إلا وقد بدأ الشعراء ينظمون عن روحه ذكراه واحدًا بعد الآخر، وينظم الغاياتي قصيدته (آية الذكرى) يشكو فيها ألم الفراق وحزن النفوس:

كـــــادت تســـــيل مـــــن العيـــــون قلـــــوب باتـــــت بنـــــيران الشـــــجون تـــــذوب
عامـــــان لم يـــــدعا فـــــؤادا خاليـــــا حـــــتى عرتـــــه لوعـــــة ووجيـــــب[1]
مـــــن للـــــبلاد وقـــــد تغيـــــب بـــــدرها إن ضـــــل ســـــار بالرجـــــاء يجـــــوب

(١) اضطراب.

أو للنـــــزال وقائـــــد الجنـــــد ارتمـــــى بـــــين المنـــــايا والكـــــروب كـــــروب؟

ويعدد الغاياتي في حديثه إلى روح الزعيم الكروب التي مرت بالوطن خلال العامين الماضيين من تدنيس حرمة الأزهر، ثم صدور قانون المطبوعات المصادر للحريات، ومحاكمة الشيخ جاويش، ثم محاولة مد امتياز قناة السويس، ويختتم الغاياتي قصيدته بحديث كله أمل عن انتشار مبادئ الحرية بفضل خليفته محمد فريد:

فاهنـــــأ بنعمتـــــه الـــــتي مـــــا شـــــابها مـــــن بـــــين آلام الحيـــــاة لغـــــوب
في كـــــل عـــــام يـــــوم ذكـــــرك موكـــــب يســـــعى إليـــــك بـــــه الأســـــى ويثـــــوب
عشـــــرات آلاف تجمـــــع شملهـــــم ومشـــــت إليـــــك بهـــــم نهـــــى وقلـــــوب
لازال في مصـــــر لـــــواؤك خافقـــــا مـــــن حولـــــه شـــــعب أغـــــر نجيـــــب

ويأبى الوفاء إلا أن يكتب الغاياتي قصيده أخرى نظمها بجانب (البركة) بحديقة الأزبكية، جعلها من بحر قصير ووزن مضطرب صورة للحياة السريعة المضطربة، وقد أقام قصيدته هذه علي أساس من العاطفة الصادقة:

أيهـــــا الفـــــتى جـــــرد القلـــــم
وانشـــــر الأســـــى واشـــــرح الألم
غـــــاب مصـــــطفى حاضـــــر الهمـــــم
رافـــــع اللـــــوا خـــــافق العلـــــم
صـــــائن الحمـــــى ناصـــــر الهـــــرم
عـــــاد يومـــــه فـــــاذكر الشـــــيم
يـــــوم ذكـــــره ضـــــاعف النـــــدم
فـــــالعيون في بحرهـــــا الخضـــــم
طـــــال ليلهـــــا وهـــــى لم تـــــنم
أشـــــرق الضـــــحى وهـــــى في الحلـــــم
لا تـــــرى ســـــوى وجـــــه مـــــن ظلـــــم
اذكـــــر الـــــذي قـــــبره حـــــرم
كـــــل مأمـــــل عنـــــده ارتســـــم

ومن مظاهر اعتزاز الغاياتي بمصطفى كامل إهداؤه الديوان إلى روحه "السابح في فضاء الأبدية المشرف على مصر وبنيها من سماء خلوده"، ويجعل الطبعة الثانية توافق ذكراه (١١فبراير١٩٣٨)، وما غاب ذكراه عنه فكان يذكرها على صفحات الجرائد السويسرية، ثم على صفحات المنبر في عهديه الفرنسي والعربي.

ثانيًا- محمد فريد:

من مظاهر حبه وإعجابه بمصطفى كامل إشادته بوطنية محمد فريد الذي تولى رئاسة الحزب الوطني وسار على نهج سلفه، وهو قديس الوطنية وشهيدها، ولا يعرف في الوطنية مهادنة أو مساومة؛ حيث واصل الكتابة في اللواء، وسافر إلى الخارج يدعو للقضية الوطنية كما فعل مصطفى كامل والغاياتي يستقبله حين عودته من أوربا:

عـــــــاد للنيـــــــل فتـــــــاه ... بأياديـــــــه العميمـــــــة
أســـــــعد القطـــــــر لقـــــــاه ... ورعـــــــى الله قدومـــــــه
جـــــــاب أوربا ونادى ... أمـــــــم الغـــــــرب الحكيمـــــــة
يا رئـــــــيس الحـــــــزب حـــــــارب ... بالحجـــــــا أهـــــــل الذميمـــــــة
ولـــــــك الشـــــــعب نصـــــــيرا ... في الملمـــــــات الجســـــــيمة
إنمـــــــا أنـــــــت إمـــــــام ... ذو ســـــــبيل مســـــــتقيمة
إن آمـــــــالا كبـــــــارا ... فيـــــــك أضـــــــحت مســـــــتهينة
فارعهـــــــا وابـــــــق مـــــــلاذا ... لبـــــــني مصـــــــر الكريمـــــــة

وفي الذكرى الثانية لوفاة مصطفى كامل يناجي الغاياتي روح مصطفى كامل مبشرًا الزعيم بسلامة البناء الذي شاده بإخلاصه وجهاده:

غادرتنـــــا وأقمـــــت حزبـــــك ناهضـــــا ... ولـــــه مكـــــان في النفـــــوس مهيـــــب
فســـــما بـــــه ذاك الـــــرئيس وإنـــــه ... للـــــداء إن عـــــز الـــــدواء طبيـــــب
هـــــذا خليفتـــــك الأبـــــر (محمـــــد) ... هـــــذا الـــــذي في النائبـــــات ينـــــوب
لبـــــق بتصـــــريف السياســـــة كـــــيس ... كلـــــف بآمـــــال الـــــبلاد طـــــروب

ويدب الخلاف بين ورثة اللواء، مما أدى إلى تعيين حارس قضائي على شركته، وحاول الحارس التدخل في شئون التحرير، فأصدر الحزب جريد المعلم لتكون لسان حاله، فكتب الغاياتي وقد اشتدت مطاردة الحكومة للأحرار، يشيد بالزعيم وتضحياته وأن مصر كلها وراءه:

هـــوى اللـــواء فصـــافح بعـــده العلمـــا ... وســـر بـــه في حمـــى القطـــرين معتصـــما
لـــك القلـــوب جنـــودا لا يزحزحهـــا ... عـــن موقـــف النصـــر خطـــب هـــان أو عظمـــا
هـــواك في ســـرها المكنـــون مســـتتر ... فأينمـــا كنـــت كـــان الحـــب مرتســـما
إني رأيـــت الهـــوا العـــذري منهزمـــا ... لمـــا رأيـــت الهـــوى المصـــري محتكمـــا
لم يبـــق حبـــك قلبـــا في الـــبلاد لـــه ... وجـــد علـــى غـــير مصـــر بات مضـــطربا
يا أيهـــا القائـــد المشـــهود موقفـــه ... لا بات جنـــدك يـــوم النصـــر منهزمـــا
قـــف وقفـــة رهـــب العـــادي مشـــاهدها ... واشـــرح لمصـــر حـــديثا كـــان مكتتمـــا
وســـلم الله حـــزبا أنـــت قائـــده ... مـــن قائـــد جـــار بالعـــدوان واحتكمـــا

ويكتب فريد مقدمة لديوان الغاياتي في تأثير الشعر في الأمم، ويحاكم من أجل المقدمة، وكان وقت صدور الحكم في أوربا، وفى طريق عدوته يمر بتركيا ويلتقي بالغاياتي الذي يعرض عليه العودة معه إذا كان في ذلك تبرئة وتخفيفا للحكم، فيرفض فريد ويكتب الغاياتي:

ولســـت أرى ســـجن الكـــرام مهانـــة ... ولكنـــه للمجـــد والحمـــد جـــامع

وقد أصدروا حكمهم الغاشم على جاويش:

ورامـــوا (فريـــدا) مثلـــه وترقبـــوا ... لقـــاه وفي هـــذا اللقـــاء مصـــارع
إذا كنـــت (بالتـــأليف) أصـــبحت جانيـــا ... وســـجني عامـــا فيـــه للحـــر قـــامع
فمـــا كـــان (تقـــريظ) الكتـــاب جنايـــة ... ولكـــن أعـــداء الـــبلاد تخـــادع

ويدخل الزعيم السجن بتذكرة المسجون رقم (٦٩٨)، حجرة (٤٤)، الجريمة (تحسين كتاب وطني).

ثالثًا- جاويش:

تولى جاويش رئاسة تحرير اللواء فكتب في مقاله الافتتاحي ١٣ مايو ١٩٠٨ "بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ومطيتها الدهان والتلبيس، وبيمينك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة،

حياة الصراحة في القول، حياه الجهر بالرأي، حياة الإرشاد العام، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة"[1]، كانت مثل هذه الكلمات التي تشتعل ثورة وتفيض حبًا للوطن تغرس كل يوم في قلب الغاياتي الشاب إعجابًا واعتزازًا لهذا الشيخ المتحرر الذي تولى كتابة المقال الافتتاحي خلفًا لمصطفى كامل، ولهذا اعتبره نائبًا عنه بعد مماته، يقول مخاطبًا روح مصطفى كامل في ذكراه الثانية:

لـــو كنـــت حاضـــرنا وقـــد حـــم القضـــا ... وتنزلـــــــت بالنـــــــازلات غيـــــــوب
لرأيـــــت نائبـــــك الكـــــريم وقـــــد مضـــــى ... لســــــجن يبســــــم والقضــــــاء قطــــــوب

وقد قدم جاويش للمحاكمة في المرة الأولى في قضيه (الكاملين) لنشره مقالًا تحت عنوان "دنشواي أخرى" ٢٨ يونيو١٩٠٩، أنحى فيه باللائمة على قضاة دنشواي ومحاميها، مناجيًا أرواح شهدائها الأبرياء، فهبت النيابة بادعاء أنه أهان القاضيين العادلين بطرس وفتحي زغلول، وفي حديثه لناظر الحقانية قبل صدور الحكم بصحيفة الكوربيه نراه يؤكد أن الحكم سيصدر بإدانة الشيخ، فهاجمه الغاياتي ويتهمه بخيانة العدالة والوطن صارخا في وجهه:

لعمـــــرك مـــــا قصـــــر الـــــدوبارة نافـــــع ... إذا انتبـــــه المظلـــــوم واحتـــــدم البـــــأس

فلما صدر الحكم أنشد الغاياتي قصيدته التي بدأها بقوله:

هـــــل ســـــال في مصـــــر الـــــدم ... أم ثار فيهـــــــــــا المســـــــــــلم
ودعـــــــا دعـــــــاء محمـــــــد ... داع فهـــــــــــب القـــــــــــوم

متخيلًا جموع الشعب وقد هبت لتقضي على باغي المظالم، وأن الدخلاء قد باتوا مروعين فزعين، إلى – الوكالة البريطانية- وأن فجر الثورة قد عم البلاد وتحرر القطران، ويستمر الغاياتي في تساؤلاته التي قصد منها كشف مظالم الحكومة الضالعة مع الاحتلال وأن الشعب لم يقم بثورة كتلك التي تخيلها حتى تنزل به الحكومة كل هذا البلاء وهو صابر بل:

لم يكفهـــــــم صـــــــبر الكـــــــرا ... م فأقســـــــــــموا أن يبرمـــــــــــوا
وقضـــــــوا علـــــــى عبـــــــد العـــــــز ... يـــــــز بحكمهـــــــم وتحكمـــــــوا
يا ســـــــاكن الســـــــجن الكـــــــريم ... وأنـــــــت نعـــــــم الأكـــــــرم

(١) اللواء، ١٣ مايو ١٩٠٨.

مـــــــا الســـــــجن للشـــــــرفاء إلا رفعـــــــــــة وتـــــــــــنعم
أنـــــت الـــــبريء ومـــــن يخالـــــك مجرمـــــــــا هـــــــو مجـــــــرم
والشـــــــعب حولـــــــك ناهـــــــض متـــــــــألم يـــــــــتظلم
يهـــــــديك في ســـــــجن الكـــــــرا م تحيـــــــــة ويســـــــــلم

ويقدم محامو الشيخ الثلاثة أحمد لطفي وإسماعيل الشيمي ومحمود بسيوني أوجه النقض للحكم، وفي يوم الجلسة كان الغاياتي ينتظر بدار اللواء مؤمنًا –شأن الشعب بأكمله- أن النقض سيقبل فبدأ ينظم قصيدة جديدة مثنيًا فيها على القضاة العدول بدأها بقوله:

عـــــاد للحـــــق أمـــــره واســـــتنارت شـــــرعة العـــــدل مـــــن هتـــــك الظـــــلام

فما إن وصل للبيت السابع جاءه نذير اليأس برفض النقض فاشتعلت كلماته غضبًا وحروفه لهيبًا:

رفضـــــوا القضـــــاء فاســـــتحال يراعـــــي بعـــــد هـــــذا إلى ظـــــبى وســـــهام
فهنيئـــــا لســـــاكن الســـــجن فاللـــــ ـــــه اصـــــطفاه للنيـــــل والأهـــــرام
وإليـــــه يقـــــدم الشـــــعب حبـــــا صـــــاغه الله في معـــــاني الوســـــام

والبيت الأخير يشير فيه الغاياتي إلى الوسام الذي اكتتب الشعب لصنعه، فبعد صدور الحكم على الشيخ بخمسة أيام، قامت مظاهرة كبرى في حديقة الأزبكية، تقرر بعدها عمل وسام للشيخ، وقلد به يوم خروجه في ١٩٠٩/١١/٢٧، وقتها وقف الغاياتي وأنشد قصيدته:

عـــــادت إلى القلـــــم المشـــــهود ســـــيرته ولاح بـــــدر اللـــــواء مـــــن بعـــــد مـــــا احتجبـــــا
فلينظـــــر الشـــــعب هـــــذا وجـــــه قائـــــده يجلـــــو بشاشـــــته الآلام والكـــــربا
هـــــذا وســـــامك صـــــاغته حشاشـــــته وفى ثنـــــاياه ســـــر الحـــــب قـــــد كتبـــــا
فاستوضـــــح الســـــر واستفســـــر معانيـــــه وســـــائل الرســـــم إن الرســـــم فيـــــه نبـــــا

وفى الذكرى الثانية لوفاة مصطفى كامل، نرى الغاياتي يخاطب روح الزعيم شاكيًا ما مر بمصر من أحداث، وأنه لو كان حاضرًا لرأى نائبه يقابل الحكم عليه بابتسامه احتقار لقضائه وقد مضى إلى السجن:

والشـــــعب متقـــــد القلـــــوب كأنهـــــا جمـــــر لـــــه بـــــين الضـــــلوع شـــــيوب
أمـــــا الكنانـــــة فهـــــي مهجـــــة وامـــــق لم يـــــدر أيـــــن تحـــــول المحبـــــوب

باتـــــت ثلاثـــــة أشـــــهر خفاقـــــة والنيـــــل يجـــــري دمعـــــه المســـــكوب
والـــــدهر يكتـــــب مجـــــده الأسمـــــى وفى صـــــحف القلـــــوب لـــــه الهـــــوى مكتـــــوب

ويكتب جاويش مقدمة ثانية لديوان وطنيتي، وتمتد يد الإرهاب لتنال منه، ويصدر الحكم عليه –وكان الغاياتي قد وجد طريقًا إلى الآستانة، فكتب من قصيدة طويلة:

فـــإن ســـجنوا (عبـــد العزيـــز) فإنـــه لـــه بـــين حبـــات القلـــوب مراجـــع
ومـــا ضـــره بالأمـــس واليـــوم ســـجنه وفى كـــل روض عنـــد ذكـــراه ســـاجع
لقـــد ظلمـــوه بعـــد أن عـــز نيلـــه بخمســـه آلاف لهـــا الظلـــم طـــابع
وقـــد أنـــذروه أن ثـــوى بـــين شـــعبه بمـــا أنـــذروه والشـــيخ لله ضـــارع
وكـــان لهـــذا الســـجن والســـجن قبلـــه بأحشـــائنا وجـــد لـــه القلـــب هـــالع

وفى البيت قبل الأخير يشير إلى محاوله اغراء الشيخ بالمال ورفضه بإباء.

رابعًا- إبراهيم الورداني:

أعجب الغاياتي بمصطفى كامل لجهاده، وبمحمد فريد لتضحياته، وبجاويش لجرأته ووطنيته، فما باله لا يعجب بالورداني الذي ضحى بحياته في سبيل مصر، وحين خرست كل الألسنة وسكتت الأقلام وسيطر عليها الجبن والهلع، كان الغاياتي وحده هو الذي وقف يدافع عن الورداني، ويشيد ببطولته في ميدان الأدب الرسمي، في حين امتلأ الأدب الشعبي بصور رائعة للورداني وبطولته.

وكان الغاياتي صديقًا حميمًا لإبراهيم ناصر الورداني الذي كان يصغره بعام واحد، فكان يعرج على صيدليته بعابدين وهي تجاور سكن الغاياتي، يقضيان الليل في حديث حار وملتهب عن الوطن ومصابه بالخونة، وقد كان لماض بطرس غالى أكبر الأثر في اندفاع الورداني لاغتياله؛ فقد وقع اتفاقية السودان باعتباره وزيرًا للخارجية المصرية، وأصدر الأمر بتشكيل المحكمة المخصوصة في دنشواي وتولى رياستها، كما صدر قانون المطبوعات تحت إشرافه، وتلته أحكام واضطهادات للأحرار، ثم اندفع في مشروع مد امتياز القناة، ومن أجل ذلك كان بطرس في نظر الوطنيين خائنًا من جهتين، من جهة أنه الموجد فعلا لهذه النظم

الرجعية، ومن جهة أنه خائن لأمته[1]، وقد كتب اللواء فصولًا عنه في العام السابق- إشادة بدنجرا- الهندي قاتل اللواء كرزون، واعتبر عمله عملًا وطنيًا خالدًا، وحض الشباب على التشبه به في الوطنية، وكتب الغاياتي قصيدتين يمجد فيهما -دنجرا- ويعتبره من أعلام شهداء الوطنية، حتى إن بطرس باشا لوح بالاستقالة إذا لم تنذر صحيفة اللواء لأن هذه الكتابة تعتبر تحريضًا صريحًا على ارتكاب جرائم القتل السياسي.

ويظهر أن هذه الظروف مجتمعة -بالإضافة إلى حمية الورداني وثورته- كل ذلك أدى إلى الاندفاع لقتل بطرس: ففي يوم ٢٠ فبراير وبينما كان بطرس باشا يغادر نظارة الخارجية، إذ دنا منه الورداني متظاهرًا بأنه يريد أن يرفع عريضة، وأطلق عليه رصاصتين، حداهما في خاصرته والأخرى في صدره، وما كاد يلتفت خلفه ليرى صاحب الفعلة، حتى أطلق عليه الفتى ثلاث رصاصات أخرى، أصابت إحداهما عنقه من الخلف، واثنتان استقرتا في كتفه، وأطلق رصاصة سادسة أصابت ثيابه، ويظهر أن الغاياتي كان يتوقع مثل هذا المصير لبطرس فإنه قبل ذلك بستة شهور فقط من رثائه لدنجرا ختم قصيدته بقوله:

يا فتى الهند إن في النفس وجدا ... كامنا تستفزه الآلام
رمت أبديه يوم موتك ولكن ... حال بيني وبينه الحكام
وسيبدو مع الزمان ويدري ... غافل القوم أننا لا ننام

وقد صور الغاياتي هذا الحادث في شعره معتبرًا الورداني بطلًا شهيدًا:

ماذا جرى في ساحة الديوان ... فدوى نذير الموت في الأركان
طلقات نار أم طعان مهند ... أودت ببطرس من يد الورداني
وافاه إبراهيم مجترئا على ... ما كان من بأس ومن سلطان
ورماه عن كثب بست عجلت ... خطوات عزرائيل بالأكفان
نفذت إلى الأحشاء واحدة ثوت ... في طيها مشبوبة النيران
وأتى الطبيب يقيه صدمتها بصد ... متنه فكان هو القضاء الثاني

(١) تيودور رتشتين، مرجع سابق، ص ٣٦٣.

وهذا الذي يشير إليه الغاياتي في البيت الأخير ما حاوله رجال الحزب الوطني لتخليص الورداني من حكم الإعدام؛ إذ فسر كثير من الأطباء الأجانب والمصريين أن الوفاة لم تنشأ مباشرة عن رصاص مسدس الورداني، ولكن بسبب العملية الجراحية التي عملت بالمستشفى على أثر الحادث[1].

ثم صور الغاياتي رباطة جأش الورداني وعدم فراره وثباته في مواجهه التحقيق ثم جهره برأيه ودوافع قتله:

مـــالي أراهـــم مهـــرعين إلى الفـــتى ... وأراه لا يبغـــى فـــرار جبـــان
نالـــوه بالشـــر الـــذي يرضـــيهمو ... وجنـــوا عليـــه وهـــو لـــيس بجـــان
ومضـــت يـــد مـــنهم إليـــه بلطمـــة ... ويـــداه في الأغـــلال موثقتـــان
ســـألوه في التحقيـــق عـــن أســـباب مـــا ... نكـــروه مـــن قتـــل ومـــن عـــدوان
فأجـــابهم أمـــا القتيـــل فإنـــه ... فيمـــا أراه خـــائن الأوطـــان
في مصـــر والســـودان أثار روت ... عنـــه خيانـــة مصـــر والســـودان
أمـــا أنا فقضـــيت حقـــا واجبـــا ... للنيـــل عـــن حـــب وعـــن إيمـــان
مـــا كانـــت منـــدفعا بغـــير عقيـــدة ... لم أبـــدها يومـــا إلى إنســـان
هـــي حـــب مصـــر وحـــرب خائنهـــا ومـــا ... شـــابت هـــداها نزعـــة الأديان
فعلـــى عاقبـــة القضـــاء وإننـــي ... ألقـــى الجـــزاء العـــدل باطمئنـــان

والغاياتي في البيت قبل الأخير يدفع عن الورداني تهمة التعصب الديني، وقد بقى ثمانية ممن قبضت عليهم الحكومة واتهموا بالاشتراك مع الورداني في جريمته، ولكن القاضي العادل (متولي بك غنيم) قرر براءتهم، فعقد طلبة المدارس اجتماعا باللجنة المركزية للحزب الوطني، وألقى محمود نظيم قصيدة، كما ألقى الغاياتي قصيدته التي يقول في مطلعها نافيا فيها عامل التعصب الديني في الجريمة:

حكمـــت فأرضـــيت الـــبلاد وأهلهـــا ... وحيـــاك عيســـى بعـــد موســـى وأحمـــدا

وقد بدأت محاكمه الورداني في ١١ أبريل ١٩١٠، وصدر الحكم بالإعدام في ١٧ مايو ١٩١٠، ويتساءل الغاياتي وقد رأى ابتسامة عريضة تتلألأ على وجه الورداني خلال المحاكمة:

هـــل خـــال إبـــراهيم عنـــد قضـــاته ... أمـــلا مـــن الآمـــال دون حياتـــه

(١) د. محمد عبد الرحمن برج، دراسة في الحركة الوطنية المصرية.. وزارة بطرس غالي (١٩٠٨- ١٩١٠)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠.

لم يغنـــــه حســـــن الـــــدفاع ولم تفـــــد فتـــوى الشـــريعة وهـــى حصـــن نجاتـــه

وفى البيت الثاني يشير الغاياتي إلى فتوى المفتي بعدم توفر الشروط الشرعية الموجبة للإعدام- كان يشير إلى دفاع إبراهيم الهلباوي- الذي كان مدعيًا عموميًا في قضية دنشواي وجاء في مرافعته، "وأقبل ينال الموت بقلب البواسل فالموت آت لا راد له ... اذهب مودعًا منا بالقلوب والعبرات. اذهب فقد يكون موتك بقضاء البشر عبرة لأمتك أكثر من حياتك"، ويعلق الغاياتي على ثبات الورداني عقب سماع الحكم:

فقضـــوا علـــى هـــذا الشـــباب وربـــه لم يثنـــــه الإعـــــدام دون ثباتـــــه
حـــتى كـــأن المـــوت مـــن رغباتـــه ليكـــون في الأحيـــاء بعـــد مماتـــه

يقول "رتشتين": وقد منع الجمهور ومندوبو الصحف من شهود تنفيذ الحكم منعًا شديدًا، فكان من وراء ذلك أن أصبح الورداني معتبرًا في مصر أول شهيد وطني، واضطر البوليس إلى أن يجتهد بصفه خاصة أن يمنع عن قبره تلك الجموع التي تريد الحج إليه[1]، لكن الذي لم يستطيع الإنجليز والحكومة ورجال البوليس عمله هو منعهم لأرواح الشعب من أن تودعه وتهفو إلى قبره، وقلوبهم في أن تصبح مقامًا له، يقول الغاياتي مصورًا شجاعة الورداني في تنفيذ الحكم عليه ورباطة جأشه ومكانته التي احتلها في قلوب الشعب:

أرى ابتســـــــــاما أم احتشـــــــــاما يغشـــــــى محيـــــــاك أم حمامـــــــا
بســـــــمت للمـــــــوت في لقـــــــاه ورمـــــــت عنـــــد اللقـــــا التزامـــــا
وجـــــه الـــــردى عـــــابس ولكـــــن لـــــديك يبتســـــم ابتسامـــــا
يا عاشـــــق النيـــــل هـــــل تـــــراه عليـــــك يضـــــطرم اضـــــطراما؟
قضـــــيت مـــــا رامـــــه هـــــواه ونلـــــت عنـــــد القضـــــا المرامـــــا
فاهنـــــأ فـــــإني أراك حيـــــا لـــــك القلـــــوب اغتـــــدت مقامـــــا

وتظل صورة الورداني ببطولته وشجاعته تملأ خيال الغاياتي، حتى يضطر إلى الرحيل عن مصر يستعيد ذكرياته فيها، وفي غمار هذه الذكريات الحزينة يلوح له وجه الورداني بطلًا عزيزًا فيستلهم منه العزم ومواصلة الجهاد:

فمـــــن لي بســـــيف لا تفـــــل شـــــياته ومـــــن لي (بإبـــــراهيم) وهـــــو يصـــــارع

(١) تيودور رتشتين، مرجع سابق، ص ٣٦٥-٣٦٦.

خامسًا- دنجرا:

إن حب مصر قد ملك على الغاياتي حياته وانه ليحب مصطفى كامل وفريدًا وجاويش والورداني لأنهم يحبون مصر-معشوقته- وهم جميعًا في هذا الحب مشتركون وعلى فداء مصر مجتمعون، ولم يكن هذا تعصبًا منه لمصر والمصريين، بل إنه ليشيد ببطولة كل مناضل يجاهد من أجل الوطن.

وقد وقعت قبل حادثة الورداني حادثة أخرى مشابهة كان بطلها شابًا هنديًا يدرس في انجلترا، قام بقتل السير كرزون ويللي "معلنًا أمله في حياة الهند بموته وموت أمثاله في سبيل جهادهم من أجلها"، ويعلق الغاياتي على هذه الحادثة بعد أن أشاد بمرتكبها "لهذا يجدر بأمثال هذا الطالب أن يمجدوا لا باعتبار عملهم الأخير (القتل) ولكن باعتبار فكرتهم الشريفة وشخصيتهم الكريمة[1]:

هنيئـــا فقيـــد الهنـــد نلـــت مـــدى المجـــد ... وخلـــدك التـــاريخ في مصـــر والهنـــد
همـــوا حكمـــوا بالمـــوت وهـــو محبـــب ... إليـــك فحييـــت القضـــا معلـــن الحمـــد
وقـــدمت نفســـك "للفـــداء" كبيـــرة ... لتبعـــث وجـــدا في النفـــوس علـــى وجـــد
وســـرك أن تقضـــي الحيـــاة مجاهـــدا ... وأبـــديت في التحقيـــق مـــا لم تكـــن تبـــدى
شـــجاعة مقـــدام يجـــود بنفســـه ... علـــى الـــوطن المـــأمول في القـــرب والبعـــد
وقـــوة ليـــث دونهـــا كـــل قـــوة ... تـــروح إلى رشـــد وتغـــدو إلى رشـــد
ألا في ســـبيل الله مـــوت مجاهـــد ... يـــذود عـــن الأوطـــان في المهـــد واللحـــد
يمـــوت ولكـــن لا يمـــوت جهـــاده ... وعمـــا قريـــب تصـــبح الهنـــد للهنـــدي

وعقب صدور الحكم على -دنجرا- كتب الغاياتي مهنئًا إياه:

هنيئـــا فقيـــد الهنـــد نلـــت مـــدى المجـــد ... وخلـــدك التـــاريخ في مصـــر والهنـــد
همـــوا حكمـــوا بالمـــوت وهـــو محبـــب ... إليـــك فحييـــت القضـــا معلـــن الحمـــد
وقـــدمت نفســـك "للفـــداء" كبيـــرة ... لتبعـــث وجـــدا في النفـــوس علـــى وجـــد
وســـرك أن تقضـــي الحيـــاة مجاهـــدا ... وأبـــديت في التحقيـــق مـــا لم تكـــن تبـــدى
شـــجاعة مقـــدام يجـــود بنفســـه ... علـــى الـــوطن المـــأمول في القـــرب والبعـــد
وقـــوة ليـــث دونهـــا كـــل قـــوة ... تـــروح إلى رشـــد وتغـــدو إلى رشـــد

(١) وطنيتي، ص ٧٥.

ألا في سبيل الله موت مجاهد ... يذود عن الأوطان في المهد واللحد
يموت ولكن لا يموت جهاده ... وعما قريب تصبح الهند للهندي

وربما كان تصوير الغاياتي لدنجرا وإشادته من أكبر العوامل التي حفزت الورداني على قتله بطرس، لدرجة أنه يمكن القول أن الورداني تأثر كثيرًا بدنجرا ووقف مواقف مشابهة لمواقف دنجرا فقابل الحكم بابتسامة وتلقى الموت بابتسامات، وكذلك دنجرا حين صدر الحكم عليه "ابتسم لهذا الحكم وحياه بسلام عسكري بكل ارتياح"، وعقب تنفيذ الحكم على دنجرا يرثيه الغاياتي بقصيدة نشرت في اللواء بتاريخ ١٩٠٩/٨/١٩، وكانت القوانين الجديدة تعتبر تمجيد الجريمة جريمة يعاقب عليها القانون، ولهذا جاء رثاء الغاياتي شخصيا:

كيف أرثيت دنجرا بمقال ... يدعي القوم انه إجرام
فقضيت الحياة مبتهج النفـ ... ـس وأمضت قضاءها الأحكام
مت بالأمس والممات حياة ... خلدتها لذكرك الأيام
فسلام عليك والدمع جار ... وسلام وفى القلوب ضرام
وسلام وأنت حي وميت ... لك يهديه النيل والأهرام

سادسًا- سعد:

هؤلاء الذين أشاد الغاياتي بوطنيتهم إنما كان ذلك بسبب جبهم لأوطانهم ومن أجل هذه القصائد المتلهبة والكلمات الثائرة حاولوا إسكاته، ففر ولم يلق السلاح، ومرت على الوطن أحداث وأحداث، فأبعد الخديوي عباس، وفرضت الحماية البريطانية، وقاست مصر أهوالًا طوال سني الحرب حتى إذا أذنت بالانتهاء هب المصريون للمطالبة بالجلاء والاستقلال، وتزعم سعد زغلول الحركة الوطنية وكان عهد الغاياتي بالشعر بعيدًا، ولكن أحداث مصر وثورتها العارمة تهز أشواقه وتحرك وجدانه:

هيج النفس ذكر مصر فبا ... ت عصي القريض ينتظم

ويبرق الغاياتي إلى سعد مهنئًا وداعيًا، ويكتب قصيدته التي يشيد فيها بزعامته رغم أنه لم يشرك معه الحزب الوطني ورغم أنه تجاهل برقية محمد فريد:

اجمع الشعب في محبته ... لك يا سعد رغم من وهموا

لســـــــت ربا لأهـــــــل مصـــــــر ولســـــــ ت نبيـــــــــا لأمـــــــــره ارتســـــــــموا
إنمـــــا أنـــــت خـــــادم الـــــوطن الـــــ مرتجـــــى حيـــــث عـــــز مـــــن خـــــدموا

ويدعوه سعد لزيارة مصر فيأتي لزيارتها، ويدافع الغاياتي عن سعد في أوربا أقوى دفاع حين كانت الحركة الوطنية بريئة من التحزب والأنانية، ولكن الأحداث تمضى غريبة، يعلو سعد قمة المد الثوري ويشارك في لعبة (كراسي الحكم) وروج الوفد بين الجماهير "أن الحماية على يد سعد خير من الاستقلال على يد عدلي"[1].

ولم يتورع سعد عن تنفيذ نصوص تصريح ٢٨ فبراير الذي كان يراه نكبة وطنية، وانتهى الأمر بسقوط الوطن صريعًا، بينما ملهاة الأحزاب مازالت على المسرح، وتنكر الغاياتي لسعد كما تنكر سعد لمصلحة الوطن، فهاجمه على صفحات المنبر متهمًا إياه ببث روح التحزب والأنانية في الأمة إلى حد أنه فرق كلمتها وفرق وحدتها، وكان صوت الغاياتي أول صوت يرتفع مشيرًا بالاتهام إلى سعد وضرورة الاستفادة من درس النكسة.

*****

(١) حازم أحمد حسنى، "مستقبل الثقافة المدنية في مصر!"، أخبار الأدب يوم ٢٦ - ٠٢ - ٢٠١٢.

الغاياتي الشاعر السياسي

في الفصل السابق عرضنا لموضوع الغاياتي الشاعر الوطني: هائمًا بالوطن معتزًا به مشتاقًا إلى ربوعه مناضلًا أعداءه من المستعمرين وأذنابهم مشيدًا بأبطاله المناضلين ملتزمًا بالدفاع عنه.

وفي هذا الفصل نتعرض لموضوع الغاياتي السياسي، داعيًا إلى الجلاء والاستقلال مناديًا بالاتحاد والائتلاف محذرًا من أوضار الحزبية والاختلاف داعيًا إلى الدستور ومحاربة حكم الفرد.

*****

الدعوة إلى الجلاء والاستقلال

كان من أهداف الحزب الوطني كما جاء في البند السابع من برنامجه السياسي "بث الشعور الوطني في الشعب وإفهامه حقوقه الوطنية ودعوته للائتلاف والتساند بين عنصريه"[١]، وقد كان الاستقلال أول هدف يسعي إليه الحزب الوطني كما ورد في البند الأول من برنامجه، كما كان الجلاء مطلبًا أساسيًا في أول مقال نشره مصطفى كامل في جريدة الأهرام سنة ١٨٩٥، وحين صدر اللواء سنة ١٩٠٠ لم يخل عدد من الدعوة للجلاء، حتى ليصبح أصح تعريف للحزب الوطني بأنه حزب الجلاء[٢]. وفي قصيدة المدح الوحيدة في ديوان الغاياتي نراه يمدح الخديوي عباس حين كان سندًا للحركة الوطنية.

وعـــادت بكـــم مصـــر إلى عهـــدها الـــذي مضـــى فمضـــت بالفـــوز في موقـــف الجـــلاء

فمدحه للخديوي ليس إلا بسبب مساندته لمطالب الجماهير في الجلاء.

وحين يصل الغاياتي للقاهرة ينشئ أول قصيدة وطنية له يوجهها إلى الزعيم مصطفى كامل قائد الأمة إلى الجلاء والاستقلال:

ورجـــوت أن أغـــدو لحزبـــك ناصـــرا يغتـــال مـــن خصـــمائه الآجـــالا
فـــأدأب علـــي إنهـــاض أمتـــك الـــتي ترجـــو وراء خطـــاك الاســـتقلالا

ومن أجل الحزب الوطني حاربه المستعمرون واحتضنوا جماعة المعتدلين "الذين كانوا لا يريدون غير الإصلاح وكانوا راضين ببقاء الاحتلال"[٣]، والغاياتي يعرِّض بهؤلاء (المعتدلين):

إذا نطـــق الأحـــرار قـــالوا تطـــرف وإن نطـــق الفجـــار صـــموا وشـــايعوا

وقد تراوحت الدعوة إلى الجلاء والاستقلال عند الغاياتي بين الرثاء وإثارة المشاعر، وبين الحلم والأمل، وأخيرا الثورة والمهاجمة.

(١) أحمد شفيق باشا، مرجع سابق.

(٢) أحمد محمد الحوفي، وطنية شوقي: دراسة أدبية تاريخية مقارنة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٥٥.

(٣) (٣) تيودور رتشتين، مرجع سابق، ص ٣٤٦.

أما الرثاء للوطن والأسى على ما أصابه: إثارة لغيرة المصريين وحميتهم واستنهاضًا لهممهم فيبدو واضحًا في أشعاره:

فمصر التي كانت مستقلة عزيزة الجانب قد:

رمتهـــــا الحـــــادثات بشـــــر قـــــوم لهـــــم في كـــــل مظلمـــــة شـــــؤون

وبعد أن كنا:

يهـــــاب الـــــدهر ســـــطوتنا ويعـــــرو غـــــيرنا الـــــذعر
أصـــــبحنا وقـــــد تلقفنـــــا يـــــد فيـــــد ويجـــــري دمعنـــــا الأســـــر
ســـــــــــوانا رب منزلـــــــــــة ورب ديارنا الغـــــــــــير

حتى كرهنا الحياة و:

ســـــــــــئمنا العـــــــــــيش في أرض سماهـــــــــــا مثلهـــــــــــا قفـــــــــــر

وها هو الاحتلال يعيث فسادًا في الوطن عدوانًا وقهرًا وبتنًا:

ولا اســـــــــــتقلال في بلـــــــــــد بـــــــه العـــــــادون قـــــــد قـــــــروا

وبعد الاحتلال تفشت روح اليأس في نفوس المصريين وفقدوا الثقة بالنفس والقدرة على مواجهة المستعمرين، وكان الإنجليز يحرصون كل عام على استعراض قوتهم العسكرية إرهابًا وتخويفًا، يقول حافظ إبراهيم وقد كان ضابطًا بالجيش "ينظر المصري إلى الإنجليزي وهو كأنه ينظر إليه بالنظارة المعظمة فيكبره رهبة وجلالًا ويتضعضع لرؤيته ..... هذا شأن القوم مع الصغار من الضباط، أما الكبار منهم..... فحالهم إلى الرحمة أدعى منها إلى اللوم، فلقد سقاهم ساقي السياسة الإنجليزية كؤوسا من منقوع الرعب، فإذا نظر أحدهم بعض كبار القوم أو صغارهم وقف أمامهم وقفة الجواد وقد رأى الليث"[1].

(١) حافظ إبراهيم، ليالي سطيح، مطبعة الإصلاح، القاهرة، ١٣٢٤/١٩٠٦، ص ١٠٠.

ومن أجل هذا كانت دعوة مصطفى كامل للقضاء علي هذه الروح الخبيثة وإحياء الأمل في نفوس المصريين، وارتفع صوت الغاياتي مؤكدًا هذا الأمل، عاملا علي غرسه في النفوس، ومبشرًا بالنصر والفوز، يبدأ الغاياتي فيتساءل عن موعد الجلاء كما يتساءل الوطنيون جميعا يقول:

فمتى ننقذ البلاد ونمضي ... بسلام إلى سبيل النجاة

ويقول أيضًا مبشرًا المصريين بقرب الجلاء يوم تقوم الثورة:

مصر إني أرى أمامك يوما ... صامت القول ناطق الأفعال

فيه نحظى بماله نتمنى ... وتفوز البلاد بالآمال

ويعز الكريم في ساحة النصـ ... ـر ويمضي اللئيم بالإذلال

فاهنئي أيتها الكنانة إني ... أنظر اليوم داني الآجال

وفي تركيا لا ينسى مصر واستقلالها:

يا نجم هل بعد التنائي عودة ... للنيل والشعب الأسير محرر؟

ويقول متمنيًا:

ألا ليت شعري هل أعودن للحمى ... وقد قمعت تلك الرؤوس المقامع؟

ولم تندلع الثورة بعد في نفس الغاياتي، فها هو يبشر المصريين بالجلاء لكنه لا يوضح سبيله جهادًا ونضالًا بل خيالًا وأماني:

وسيروا إلى ما تؤمنون بحكمة ... ولا تحسبوا الفوز المبين محالا

فإني لمحت النصر بين صفوفكم ... وأبصرت عقبى الظالمين وبالا

وتأخذ الثورة عند الغاياتي شكل الحلم أولًا حين يتخيل اندلاع الثورة على المحتلين وتطهيرها أرض الوطن منهم ومن الدخلاء والخونة:

وانثل عرشهمو وجيـ ... ـهم انثنى يتندم

وأضاء مصر ضياؤها ... وترنم المترنم

وعاد إليك الصفاء أيها النيل وعذبت مياهك:

وتحـــــــــرر القطـــــــــران فانـــــــــ ... همـــــــــرت عليـــــــــك الأنعـــــــــم

وإزاء ضراوة الاستعمار تصبح الثورة هي سبيل الجلاء والاستقلال:

ومـــا لجميـــل الصـــبر في مصـــر موضـــع ... وفيهـــا لجـــيش الغاصـــبين مراتـــع

والضغط يولد الانفجار لكن الغاياتي قبل أن يلوح بالقوة ويوجه إلى المحتلين إنذارًا ونصحًا:

إن الحـــوادث في القطـــرين منـــذرة ... لـــو يعلمـــون بمـــا في النيـــل مـــن عـــبر

لـــو أنصـــفوا غـــادروا مصـــر وجارتهـــا ... وأطفـــأوا اللهـــب الجـــاري مـــع النهـــر

ويوجه الخطاب إلى المحتلين مشيرًا إلى طبيعة المصريين التي تأبى الظلم وترفض الاستسلام، وفي الأبيات الآتية تحريض للمصرين علي الثورة:

هـــل يـــرى المحتـــل أنا أمـــة ... مـــذ عرفنـــا الســـلم لا نـــدري الخصـــاما

أو يـــرى الظـــالم فينـــا أننـــا ... نحمـــل الخســـف ولا نبغـــي انتقامـــا

زعمـــوا زورا فمـــا مـــن أمـــة ... ســـامها العســـف ظلـــوم ثم دامـــا

إنمـــا الشـــعب الـــذي يرجـــو العـــلا ... لـــيس يرضـــى مـــن أعاديـــه اهتضـــاما

ووسائل تحقيق الجلاء عند الغاياتي كثيرة: جهاد وكفاح واتحاد وائتلاف وإشعال الروح الوطنية والقضاء علي الحزبية، والجهاد يكون بالنفس والدم والسيف والقلم ففي نشيده الوطني نراه يمجد الشهداء:

في هـــوى النيـــل الســـعيد ... ميـــت القـــوم شـــهيد

ذكـــره حـــي جديـــد ... يـــومه للشـــعب عيـــد

فيه ذكرى للرشاد

ثم تحدث عن قوة الشعب:

إن في قبضـــة الشـــعوب حســـاما ... صـــادق البـــأس مـــاض العزمـــات

ذلـــــك العلـــــم فاتخـــــذه سلاحـــــا يا فـــــتي النيـــــل فهـــــو حـــــرب العـــــداة
واجعـــــل الـــــنفس والنفـــــيس فـــــداء بـــــين مـــــاض مـــــن الحيـــــاة وآت

وفي تركيا تشتد ثورة ونقمته علي الاحتلال فيبعث بصيحاته مناشدًا المصريين القيام بالثورة:

يأهـــل مصـــر قفـــوا وصـــيحوا صـــيحة دوى لهـــا جـــو الـــبلاد الأغـــبر
واقضـــوا بحـــد الســـيف حقـــا نالـــه مـــن مصـــر ذاك الطامـــع المســـتعمر

وهذا الجهاد لا يمنع المصريين من طلب المعونة من دولة الخلافة واستعدائها علي المحتلين:

دار الســـعادة إن مصـــر شـــقية والنـــاس فيهـــا قاصـــر ومقصـــر
إن العـــدا ملكـــوا عليهـــا أمرهـــا تشـــكو فتشـــتم أو تئـــن فتنهـــر
دار الســـعادة طـــال ليـــل شـــقائنا فمـــتى نـــرى فجـــر الهنـــاء ونبصـــر

ولن يكون جلاء مادامت الأمة مفككة متطاحنة، ولن يكون استقلال مادامت الحزبية تفرخ، ومن أجل هذا كانت دعوته المخلصة إلى نبذ الحزبية، فالوطن فوق الجميع:

مـــن شـــاء الاســـتقلال فليعمـــل لـــه لا للهـــوى ومنـــازع الأحقـــاد
باســـم الـــبلاد وباســـم شـــعب ناهـــض لا باســـم أحـــزاب ولا أفـــراد

ومن أجل صيانة الوحدة الوطنية ودوام استمرار الروح الوطني مشتعلًا لابد أن يكون للأمة نشيد وطني تستمد منه وقود معركتها، فالنشيد الوطني كما يقول الغاياتي "يذكره الوطني فيبعث فيه روح الحماسة الوطنية ويشجعه علي اقتحام المصاعب ومصارعة الخطوب في سبيل الوطن العزيز"، ولهذا كتب الغاياتي نشيده الوطني وتمني أن يكون نشيد مصر العام.

*****

الائتلاف ومقاومة الحزبية

كانت لعبة الأحزاب – وهي من صنع الإنجليز – ملهاة صرفت المصريين عن مواجهة المستعمر بعد أن انبري كل منهم يحارب الأحزاب الأخرى: كل يؤيد حزبه وفريقه ويرى وجود الآخرين فضولًا ويرتفع صوت حافظ إبراهيم محذرًا:

هـــــلاك الفـــــرد منشـــــؤه تـــــوان وهـــــلاك الشـــــعب منشـــــؤه انقســـــام

ويقول محرم:

لـــــيس الشـــــقاء بزائـــــل عـــــن أمـــــة حـــــتى يـــــزول تفـــــرق وتحـــــزب

ويشكو شوقي قومه للنبي في هزيمته بأنهم:

متفككـــــون فمـــــا تضـــــم نفوســـــهم ثقـــــة ولا جمـــــع القلـــــوب صـــــفاء

وكان للغاياتى صولات وجولات في الدعوة إلى الائتلاف ومقاومة الحزبية، وكانت وطنيته فوق حزبيته. وإذا كان قد بدأ حياته السياسية بالانضمام إلى الحزب الوطني، فذلك لأن برنامج الحزب كان واسعًا يغري أصحاب النفوس الطامحة ويرضي الشباب المثقف وطلبة المدارس.

وكان الطلب الذي تقدم به لنيل عضويته قصيدة وطنية رفعها إلى زعيم الحزب الوطني مصطفى كامل يقول فيها:

ورجـــــوت أن أغـــــدو لحزبـــــك ناصـــــرا يغتـــــال مـــــن خصـــــمائه الآجـــــالا

وكان ديوانه الذي حورب من أجله سجلًا صادقًا لتاريخ الحزب في سنواته الثلاث الأولي وصياغة عاطفية لمبادئه في الجلاء والدستور ومناهضة الاحتلال ومهاجمة الخونة والعملاء. فلما اضطر للرحيل والإقامة في سويسرا، بدأت الأحزاب تدخل في مهاترات ومضاربات بما لا يخدم مصلحة الوطن، تجرد من الحزبية وبدأ يكتب في صحف سويسرا محذرًا من الفرقة والاختلاف، ويبعث إلى جريدة الأهرام، وقد كان مراسلها في جينيف – بتاريخ ١٩١٤/٤/٨ بمقال وقصيدة تحت عنوان "الوحدة الوطنية"، ويبدأ القصيدة بإثارة مشاعر النخوة والعزة القومية وتصوير ما وصلنا إليه من مهانة وذل بسبب تفرقنا:

أتشقى بيننا مصر ... ولا يرثي لها حر
ونحن الألى قهروا ... الورى وعداهم القهر
وأمسينا ولا خمر ... وأصبحنا ولا أمر
تلقفنا يد فيد ... ويجري دمعنا الأسر
سوانا رب منزله ... ورب ديارنا الغير

وهذا الذي وصلنا إليه من بؤس وهوان إنما بسبب تخاذلنا وتفرق ميولنا وتشعب أهوائنا ولن يغير الله ما بنا إلا إذا نبذنا الحزبية واعتصمنا بحبل الوطنية المتين وبرئنا من العصبية الوطنية والدينية:

وبتنا نشتكي دهرا ... وعندي أننا الدهر
نلوم الأجنبي على ... أذى فيه له العذر
ولو كنا كمن سلفوا ... نبر بمصر ما بروا
لكنا مثلهم أسد ... نكر بها كما كروا
ولكن بعدهم حلت ... عرى فعرى الحمى شر
وقام الجهل يأمرنا ... وغاية أمره خسر
نسينا خير وحدتنا ... وما في دونها خير
وخلنا الدين عن خطأ ... يفرقنا ولا وزر
وما التوراة تفرقة ... ولا الإنجيل والذكر
ومصر قبلها وطن ... لنا طرا به فخر

ويختم القصيدة بدعوة صادقة إلى نبذ الخلاف والتمسك بأهداب الوحدة:

كفى ما مر من جهل ... أباه الدين والفكر
ومن خلف إذا استعصى ... دواه فإنه القبر
لنصبح واحدا فردا ... فلا زيد ولا عمرو
فنحن الكل إخوان ... لنا مصر لنا مصر

وقد كان تأييد الغاياتي لثورة ١٩١٩ دليلا علي برئه من داء الحزبية؛ فقد أشاد بالتفاف الشعب حول زعيمه وتساند عنصري الأمة وتعانق الصليب والهلال. لكن الثورة تتعثر وتبرز الحزبية من جديد وتفرخ

الخصومة، ويلهو قصر الدوبارة وقصر عابدين بمشاهدة ملهاة الأحزاب المصرية، وتظهر لعبة كراسي الحكم تصيدا للمنافع وتنكيلا بالخصوم كما يصور الكاشف:

مبـــــادئ الأحـــــزاب أرى أم منافعـــــا توالـــــت صـــــفوفا بيـــــنهم وضـــــروبا؟

ويكتوي الغاياتي بنار الغربة وتحرقه نيران الخصومة فيأسى على الوطن ويصرخ في مهجره:

أســـــفى علـــــى رزء الـــــبلاد بأهلهـــــا لا رزئهـــــا بعـــــداء مـــــن عاداهـــــا

وفي سنة ١٩٢٥ وقد نمت الخصومة وزكت يبعث إلى الوطن بصيحته المدوية (مصر على شفا جرف) محذرا من التردي في مهاوي الفرقة، متهما الحزبيين أنهم أضاعوا الشعب وساموه تفرقا وشقاقا موضحا سبيل الجلاء والاستقلال:

يا مصـــــر ويلـــــك مـــــن بنيـــــك وويلهـــــم خـــــذلوك والعـــــادون بالمرصـــــاد
حطمـــــوا دروع الاتحـــــاد وصـــــوبوا ســـــهم التفرقـــــة في فـــــؤاد الـــــوادي
فجنـــــوا علـــــى وطـــــني يـــــروم خلاصـــــه وهـــــل الخـــــلاص بغـــــير صـــــدق جهـــــاد
مـــــن شـــــاء الاســـــتقلال فليعمـــــل لـــــه لا للهـــــوى ومنـــــازع الأحقـــــاد
باســـــم الـــــبلاد وباســـــم شـــــعب ناهـــــض لا باســـــم أحـــــزاب ولا أفـــــراد
كـــــل يـــــزول ويـــــنقض أمـــــا الحمـــــى فوديعـــــة الآباء والأجـــــداد

وتضيع صيحاته وسط الضجيج، ويموت سعد بعد أن غرس بذور الحرية وتعهدها بالعناية والسقي، ويعطل الدستور ويعتدى عليه، ويزور الغاياتي مصر في صيف ١٩٣٤، فلمس آثار الضعف والتفكك في صفوف الأمة، وأيقن أن قادة الأحزاب ليسوا إلا دعاة شقاق فكتب منددًا بالحزبية – تلك اللعبة الاستعمارية الخبيثة – مبينًا أن الاتحاد هو السبيل الوحيد للقضاء على الاستعمار:

ومـــــا الأحـــــزاب مســـــعدة ولا زعماؤهـــــا الكثـــــر
إذا مـــــا طـــــاب للباغـــــي بمصـــــر الكـــــر والفـــــر
يمنينـــــا ويلهينـــــا ويغرينـــــا فنغـــــتر
لـــــه في أرضـــــنا حـــــول وبطـــــش زاده الكـــــبر
إذا صـــــال صـــــائله بـــــدا العـــــدوان والغـــــدر
فـــــلا الدســـــتور في أمـــــن ولا الـــــوزراء والقصـــــر

ولا استقلال في بلد بـه العادون قد قروا

ولا أننا شيع يحارب شطرنا الشطر

لما أضحى لهم ظل ولا امسى لهم ذكر

ودعوة الغاياتي إلى الائتلاف لم تقتصر على محاربة الأحزاب فقط، وإنما عني بالائتلاف بين عنصري الأمة من مسلمين وأقباط، وقد رأينا في الفصول السابقة مدي اهتمامه بالتوفيق بينهما حين تصدعت هذه الوحدة سنة ١٩٦٠ بالمؤتمر القبطي.

*****

الحرية

واستكمالًا لدراسة الجانب السياسي عند الغاياتي شاعرًا نتحدث عن الغاياتي شاعر الحرية وداعيتها: الحرية السياسية والمطالبة بالحياة النيابية وإذا كان قد خاصم الإنجليز بسبب احتلالهم لمصر وطالبهم بالاستقلال، فإن الدعوة إلى الدستور تعتبر مقدمة ضرورية لهذا الاستقلال وصيانة له كما أن الدفاع عن الحرية -حرية القول والفكر – أشد ضرورة؛ ولهذا نتحدث في الفصلين الآتيين عن مهاجمة الغاياتي لقوانين المصادرة للحرية ودعوته المتكررة لنيل الدستور.

*****

مهاجمة القوانين المصادرة للحرية

في مواجهة قوات الاحتلال لم يكن أمام الوطنيين العزل سوى أقلامهم يحاربون بها، يقول الغاياتي:

ومـــن غـــدت الأقـــلام في كفـــه ظـــبى فمـــن جنـــده تغـــدو القنـــا والقواطـــع

وتكميمًا لأفواه الوطنيين بعث قانون المطبوعات يوم الخميس ٢٥ مارس ١٩٠٩ في عهد الوزارة البطرسية، وكان قد صدر أول عهد الاحتلال في ٢٦ نوفمبر ١٨٨١، وطوته الأيام ولم يكن ينفذ بشدة، بل إن البرلمان الإنجليزي نفسه أوصى وزير الخارجية الإنجليزية بعدم التضييق علي حرية الصحف في مصر، وقد "كان إصدار هذا القانون بمنزلة إعلان صريح من السير الدون غورست لإفلاسه السياسي والدبلوماسي"[١].

وقبيل صدور القانون -وكانت أنباؤه قد تسربت- يكتب الغاياتي منددًا:

لـــئن قيـــدوا مـــني الـــيراع وأوثقـــوا لســـاني فقلـــبي كيفمـــا شـــئت ينطـــق
فـــلا يأمنـــوا تلـــك القلـــوب فإنهـــا دمـــاء أراهـــا أوشـــكت تتدفـــق

وفي صبيحة صدور القانون قام طلبة المدارس العليا والأزهر وطوائف التجار والصناع بمظاهرة بحديقة الجزيرة وطافوا بشوارع العاصمة، ويكتب الغاياتي قصيدة من ثلاثة مقاطع يوجه أولها إلى الخديوي والثاني إلى الوزارة والأخير إلى الأمة المصرية، وفى خطابه للخديوي نراه يقطع حبل المودة ويصيح في وجهه:

أعبـــاس هـــذا آخـــر العهـــد بيننـــا فـــلا تخـــش منـــا بعـــد ذاك عتـــابا
فمـــا يبتغـــي (غورســـت) إلا مكيـــدة تحـــول أقـــلام الســـلام حـــرابا

ويهاجم في المقطع الثاني وزارة بطرس صاحب التاريخ الأسود في دنشواي:

فقيَّـــد أقـــلام الصـــحافة علّهـــا إذا أبصـــرت ســـوءاته تتعـــامى

ويتوجه إلى الأمة مبشرًا وداعيًا إلى الثورة:

(١) تيودور رتشتين، مرجع سابق، ص ٣٥٣.

وهـــــــــذا يراعـــــــــي فإنمـــــــــا لـــــــدى يـــــــراع لا يهـــــاب نضـــــالا
ســـــــأطلقه يجـــــــري كمـــــــا شـــــــاء ومـــــن شـــــاء فليقطـــــع عليـــــه مجـــــالا

وقد أحدث صدور القانون ردود فعل عنيفة وانبرى كثير من الشعراء لمهاجمة القانون يقول حافظ:

كانـــــت تواســـــينا علـــــي آلامنـــــا صـــــحف إذا نـــــزل الـــــبلاء وأطبقـــــا
قصـــــوا حواشـــــيها وظنـــــوا أنهـــــم أمنـــــوا صـــــواعقها فكانـــــت أصـــــعقا

ويصرخ محرم:

صـــــبوا المـــــداد وحطمـــــوا الأقلامـــــا واطـــــووا الصـــــحائف وانزعـــــوا الأفهامـــــا
وخـــــذوا علـــــي الوجـــــدان كـــــل ثنيـــــة واقضـــــوا الحيـــــاة مـــــزملين نيامـــــا

وفور صدور القانون توالت المظاهرات، وقام "هارفي باشا" حكمدار العاصمة بتفريقها مستخدمًا مضخات الحريق والهراوات والخيل، وأحدث القانون ما أحدثته مشانق دنشواي، ولكن أين الزعيم الذي يستغل صدور هذا القانون ويندد بالمحتلين، أولئك الذين بعثوا ليعلموا المصريين الاستقلال والحقوق المدنية.

ولهذا نرى الغاياتي يوجه خطابه إلى روح مصطفى كامل في ذكراه، وكأنه لا ينسي مواقفه في دنشواي التي أجبرت السياسي العجوز علي الرحيل:

هـــم جـــردوا القـــانون مـــن أكفانـــه وترقبـــوا الأقـــلام حـــين تصـــيب
رمـــوا بـــه ضـــربا علـــي أقلامنـــا يا ليـــت شـــعري أينـــا المضـــروب
هـــل ميـــت يقضـــي علـــي حـــي وهـــل حـــي إلى غيـــر الحيـــاة ينيـــب
إن أرهبـــونا بالقواضـــب والقنـــا فيراعنـــا الماضـــي هـــو المرهـــوب

وكان أول من طبق عليه قانون المطبوعات هو عبد العزيز جاويش حيث نشر مقالًا تحت عنوان (ذكري دنشواي) أنحي فيه باللائمة علي قضاة دنشواي ومحاميها مناجيا أرواح شهدائها فقدم للمحاكمة بموجب القانون، كما أنذرت صحيفة اللواء في نفس اليوم لنشرها "فصولا طويلة مدحت فيها (دنجرا الهندي) قاتل اللورد (كرزون) في انجلترا واعتبرت عمله عملًا وطنيًا خالدًا وحضت الشبان علي التشبه به في وطنيته.

وأنذر اللواء بعد أخذ ورد بين مصر ولندرة، حتى إن بطرس باشا لوح بالاستقالة إذا لم تنذر لأن هذه الكتابة تعتبر تحريضًا صريحًا علي ارتكاب جرائم القتل السياسي، وقد تحققت مخاوف بطرس فبعد أقل من عام لقي مصرعه علي يد الورداني أحد شباب الحزب الوطني.

وبعد صدور الحكم علي جاويش أنشأ الغاياتي قصيدة يتخيل فيها أن الثورة علي المحتلين قد اندلعت فأعادت العدل إلى ربوع النيل الذي يوجه إليه الغاياتي خطابه:

وتخلـــــــــــــص القلـــــــــــــم الأ ... بي مـــــــــن التعنـــــــــت والهـــــــــم
وغـــــــــدا لـــــــــواؤك ناطقـــــــــا ... عـــــــــن حالتيـــــــــك يترجـــــــــم

وتوالى إرهاب الحكومة وصدرت كثير من القوانين الاستثنائية المصادرة للحريات مثل قانون (النفي الإداري)، ثم كان أهمها قوانين ثلاثة استثنائية:

الأول يقضي بإحالة تهم الصحافة إلى محكمة الجنايات، والثاني يتعلق بنظام المدارس "وهو يعاقب بعقوبات مختلفة منها الطرد من المدرسة كل طالب يشترك في مظاهرات داخل مدرسته أو يكتب في الجرائد أو يقوم بعمل ما"[1]، والأخير يقضي بالمحاكمة علي القصد الجنائي، وقد صدر عقب براءة ثمانية من الشبان الذين اتهمتهم الحكومة بالاشتراك مع الورداني، "وهذه القوانين الثلاثة تشبه أن تكون قانونًا ضغطيًا.... إنها عبارة عن خاتمة واضحة لثمان وعشرين سنة كلها إيهام بالحكم الدستوري وفاتحة عصر جديد هو عصر ظلم صريح غير مستور"[2].

ويعلق الغاياتي علي صدور هذه القوانين وما صاحبها من إجراءات من مصادرة للمظاهرات ومحاربة للاجتماعات ومهاجمة لدور التمثيل ونشر الجواسيس الجهلاء، بأن ذلك يعيد إلى الأذهان عهد الآستانة في أيام الاستبداد.

ويطلق الغاياتي شعره أسهما نارية منددًا بهذه القوانين:

إن القوانيـــــــــــن الجديـــــــــــدة ... ليســـــــت كمـــــــا زعمـــــــوا رشـــــــيدة
نار القلـــــــــوب أشـــــــــد مـــــــــن ... نـــــــــيران شدقهـــــــــا المبيـــــــــدة

(١) تيودور رتشتين، مرجع سابق، ص ٣٣٧.

(٢) المرجع السابق.

والضـــــــغط لا يجـــــــدي ســـــــوى إظهـــــــار مـــــــا تخفـــــــي العقيـــــــدة
ليحـــــــذروا وجـــــــد النفـــــــو س ليـــــــأمنوا شـــــــر المكيـــــــدة

وما كاد يمر علي صدور جرنال العلم – لسان حال الحزب الوطني – اثنى عشر يومًا حتى صدر قرار بتعطيله لمدة شهرين بدعوي أنه خرج عن حد الاعتدال "في دفاعه عن ثمانية الأبرياء" وعمل علي تكدير صفو العلائق بين الأمتين مصر وانجلترا[1]، وأصدر الحزب عدة صحف حتى عاد للصدور، فلما عاد للظهور استقبله الغاياتي مرحبًا:

حجبـــــوه شـــــهرا بعـــــد شـــــهر وســـــناه بـــــين الشـــــعب يســـــري
مـــــا كـــــان قبـــــل حجابـــــه متكلمـــــا إلا بقـــــدر
حـــــتى غـــــدا بعـــــد الحجـــــا ب محـــــدثا في كـــــل أمـــــر
انشـــــر لنـــــا ممـــــا طويـــــ ـــــت فإننـــــا عشـــــاق نشـــــر

وكان طبيعيًا أن يحاكم الغاياتي نتيجة لهجومه وخصومته – بموجب قانون المطبوعات – ولكنه يستطيع الفرار علي ظهر باخرة إلى تركيا – وينثال الشعر علي لسانه – وهو فوق الباخرة وربوع الوطن تغيب عن ناظريه شعر ينضح سخرية ويقطر استهزاء بالقوانين والقائمين علي تنفيذها:

يريـــد الأعـــادي مـــن يراعـــي مـــودة ومـــا وده إلا الجفـــا والتقاطـــع
لقـــد صـــرعت جـــيش العـــدا– وطنيـــتي– فحملـــق متبـــوع وأغمـــض تابـــع
وراعتهمـــوا حـــتى كـــأن قلوبهـــم مـــن الرعـــب لا تحنـــو عليهـــا إلا ضـــالع
فهبـــوا وصـــاحوا صـــيحة بعـــد صـــيحة وقـــالوا بـــلاء لا محالـــة واقـــع
فســـيروا إلى –القـــانون– واحتكـــوا بـــه ففيـــه لظلـــم الأبـــرياء مواضـــع
فكـــل بـــرئ بعـــد ذلـــك مجـــرم كـــل نـــداء – للعدالـــة – ضائـــع

*****

(١) وطنيتي، ١٢٠.

الدستور

إزاء عنف الإنجليز واضطهاد الحكومة للحريات كان إلحاح المصريين في طلب الدستور شديدًا حماية لهم من هذا التعسف والاضطهاد، وقد اشتدت حركة المطالبة بالدستور علي يد الحزب الوطني، وكان الخديوي قبل سياسة – الوفاق – يؤيده ويشجعه يقول الغاياتي علي لسانه:

أنا العبـــــاس لي في ملـــــك مصـــــر ... مقـــــام دونـــــه الملـــــك العزيـــــز
فمـــــا لي لا أجيـــــب نـــــداء شـــــعبي ... وشـــــعبي خـــــير حـــــرز لي حريـــــز
ألا إني ســـــــــأمنحه منـــــــــاه ... مـــــن الدســـــتور رغـــــم الإنجليـــــز

فإذا اتفق الخديوي مع الإنجليز وتنكر للحركة الوطنية خاصمه الحزب الوطني وهاجمه كثير من الشعراء، وفي أوائل عام ١٩٠٨ كان الغاياتي يعمل محررًا بجريدة الجوائب ونشر مقالًا تحت عنوان – الدستور أميرنا - ويدل معناه علي مغزاه، وجعل الدستور لا الخديوي هو الأمير، وطالب فيه بالدستور والحياة النيابية السلمية، ولم تكد بعض نسخ من الجريدة توزع حتى بادر صاحبها بمصادرتها ورفع مقالة الغاياتي عنها حتى لا يتعرض لغضب الخديوي وعوقب الغاياتي بالفصل.

وتشتد الحركة الاجتماعية للمطالبة بالدستور ويوزع الحزب الوطني طلبات علي الجمهور نشرها اللواء في ١٩٠٨/٢/٢٦ فانهالت الطلبات علي الحزب واللواء من جميع الطبقات، وبلغت الدفعة الأولي ٤٥ ألف توقيع رفع للخديوي، فلما صدر الدستور العثماني في يوليو١٩٠٨، زادت حركة المطالبة ونشر إسماعيل صبري قصيدة تهنئة للخديوي عباس في عيد جلوسه يقول فيها:

ســـــدد ســـــهام الـــــرأي بالشـــــورى يحـــــط ... بـــــك منـــــه في ظلـــــم الحـــــوادث فيلـــــق

وأنشأ الغاياتي قصيدته التي حيا فيها أمير المؤمنين وهنأ الأمة الإسلامية بصدور الدستور يقول للخليفة:

منحـــــت الدولـــــة الدســـــتور عـــــدلا ... فخابـــــت مـــــن أعاديهـــــا الظنـــــون
فمـــــا للنيـــــل لـــــيس نصيـــــب ... مـــــن الدســـــتور وهـــــو بـــــه قمـــــين
أيمنعنـــــا بنـــــو التـــــايمز حقـــــا ... وأنـــــت أمامنـــــا الملـــــك الأمـــــين

ويطالب أن يأمر الخديوي بإصدار الدستور:

فمـــــره يمـــــنح الدســـــتور مصـــــرا فـــــان لأمـــــرك البـــــاغي يـــــدين

ويستجيب الخليفة فيأمر بمصادرة الدستور وتعطيله، ويستجيب الخديوي فيدلي بحديث على لسان شاعره شوقي إلى جريدة المؤيد في سبتمبر، يردد فيه قول المعتمد البريطاني من عدم أهلية الأمة لنيل الدستور مجاملة منه للإنجليز، ويهاجم الغاياتي الخليفة ويشيعه باللعنات حين يقصيه رجال الدستور "الأحرار الدستوريين"، كما هاجم الغاياتي الأمير وشاعره بقصيدة جعل عنوانها - الدستور - ونشرها في جريدة الدستور - ليكون عنوان القصيدة والجريدة دالين علي الموضوع فيخاطب شوقي:

وأســـــأت للبلـــــد الأمـــــين وإنهـــــا لكبـــــيرة مـــــن كاتـــــب الحســـــنات
وعكســـــت آمـــــال العبـــــاد وإنهـــــم أولى بنيـــــل العطـــــف والرحمـــــات
يا شـــــاعر النيـــــل العظـــــيم أمـــــا تـــــرى للنيـــــل إلا أســـــوء الحـــــالات
مـــــا كنـــــت أحســـــب أن مثلـــــك وهـــــو في شـــــعراء مصـــــر صـــــاحب الآيات
يجـــــني علـــــي الشـــــعب الكـــــريم جنايـــــة ويـــــود أن يبقـــــي مـــــع الأمـــــوات

ثم معرضًا بالخديوي:

أو أنـــــت تـــــروي عـــــن ســـــواك حديثـــــه كـــــي مـــــا نـــــرى الدســـــتور لـــــيس بآت
والله يعلـــــم أننـــــا لا ننثـــــني يومـــــا ولا نلهـــــو عـــــن الطلبـــــات
حـــــتى نفـــــوز بنيلـــــه رغـــــم العـــــدا وننبـــــه العزمـــــات للهجمـــــات

وشوقي لم يكن لحس بما يحس به الشعب "ليس شوقي ترجمان الشعب ولسانه، وإنما هو ترجمان الأمير ولسان الأمير"[1]. ولم يكن يعبر عن رأيه، فهذا الحديث الذي نشره بعد عدة أشهر من صدور الدستور العثماني يدل علي أن سيده لم يكن راضيًا كل الرضاء علي صدوره، فلما اشتدت حركة المطالبة بالدستور - وأضاف الحزب الوطني إلى توقيعاته السابقة (١٦) ألف توقيع رفعها للخديوي، وأثمرت هذه الحركة، وأثير موضوع الدستور في مجلس شورى القوانين في أكتوبر ١٩٠٨، فرأت الأغلبية تأجيل نظره، بينما طالب به عشرة من النواب سُموا (العشرة الكرام)، وشارك الطلبة بقصاصات ألقوها علي موكب الخديوي (الدستور يا أفندينا).

(١) طه حسين، شوقي وحافظ، مرجع سابق، ص ١٣٢.

ونشر شوقي في جريدة الأهرام بتاريخ ١٩٠٨/١٢/١٨ بعد قرابة خمسة أشهر قصيدته في الدستور العثماني:

بشـــــرى البريـــــة قاصـــــيها ودانيهـــــا حـــــاط الخلافـــــة بالدســـــتور حاميهـــــا

واختتمها مخاطبا شعب عثمان:

مـــا بـــين أمالـــك اللائـــي ظفـــرت بهـــا وبـــين مصـــر معـــان أنـــت تـــدريها

هكذا تلميحًا لا صراحة فلا يعجب هذا (إسماعيل صبري)، فيكتب بعد ثلاثة أيام في الأهرام "لو أنصف شاعر الأمير لأتم قصيدته بعد قوله يخاطب مجلس المبعوثان:

مـــا بـــين أمالـــك اللائـــي ظفـــرت بهـــا وبـــين مصـــر معـــان أنـــت تـــدريها

بقوله:

يا مصـــر ســـيري علـــي أثارهـــم وقفـــي تلـــك المواقـــف في أسمـــى مجاريهـــا
لا يُؤيسَـــنَّكِ مـــا قـــالوا ومـــا كتبـــوا مـــن البريـــة تضـــليلا وتمويهـــا

وشوقي الذي عارض في منح المصريين الدستور نراه بعد الانقلاب العثماني يشيع الخليفة باللعنات ونراه ينحى باللائمة علي الخليفة لأنه لم يرع حق شعبه في الدستور، وحين تضرب الوزارة البطرسية عن حضور مجلس الشورى فرارًا من سؤال النواب ومناقشتهم، يسخر الغاياتي من هروبهم:

يا أيهـــا الـــوزراء مـــاذا نـــابكم حـــتى هجـــرتم (صـــورة النـــواب)
يا ويـــل مصـــر بهـــم ويا أســـفا علـــى مـــا حـــل بالشـــورى مـــن الأنصـــاب

وأثار مشروع مد امتياز قناة السويس هياج المصريين ومشاعرهم، هذا المشروع الذي يقضي بمد الامتياز أربعين سنة أخرى مقابل أربعة ملايين من الجنيهات، وأخفت الحكومة المشروع عن الشعب، ومن حسن الحظ تمكن محمد فريد من الحصول علي نسخة من المشروع، ونشرها في اللواء، واضطرت الوزارة تحت ضغط الرأي العام إلى دعوة الجمعية العمومية للانعقاد للنظر في المشروع، وانتخبت الجمعية لجنة من خمسة عشر عضوًا لدراسته، وأخيرًا رفض المشروع وذلك بأغلبية ١٦ صوتا ضد صوت واحد هو صوت مرقص سميكة.

وقد استحق النواب بذلك تكريم الأمة وتمجيدها ورضاء الرأي العام يقول الغاياتي:

ماذا يقولون عنا بعدما شهدوا ... من نهضة النيل ما يغني عن الخبر
هل جاءهم نبأ النواب إذ رفضوا ... مشروعهم بسديد الرأي والنظر
وأصبح الشعب معتزا بنصرتهم ... يتيه منتصرا في إثر منتصر

وفي مقدمة الغاياتي لديوانه نراه يهاجم لويس السادس لحكمه الاستبدادي المطلق كما هاجم الملك فؤاد قبل صدور الدستور وبعده حين اعتدى عليه، فالملك في الحكومة الدستورية كما يقول الغاياتي ليس له من الأمر سوى التوقيع علي ما تريده الأمة، ومتى كانت الحكومة أهليه تعمل علي رخاء الأمة وتسير بإراداتها، فلا غرو إذا أصبح الأمر كله من الأمة ولها، وكان الملك أشبه بممثل شرفي للدولة وواسطة لعقد نظامه، وفي النشيد الوطني الذي صاغه الغاياتي نراه يردد كلمة الدستور في المقطع الثاني:

كيف نرضى بالممات ... وزمان الموت فات
إنما الدستور آت ... فعلينا الثبات

عند آمال البلاد

*****

الغاياتي الصحفي

مقدمة

نشأت الصحف في مصر كباقي بلدان العالم إخبارية بحتة تحوي قوانين وقرارات الحكومة، وبعودة البعوث العلمية من الغرب يتسع مجالها ليشمل الأخبار السياسية والاقتصادية والاجتماعية، بل وتضم في صفحاتها ثقافة وأدبًا، وبنهضة الشعب المصري وقيام الثورة العرابية اضطلعت الصحف بدور كبير في تعبئة الجماهير ونشر الوعي بين صفوفها، وذلك حين تحولت إلى صحافة رأي، تلك التي بذر بذورها الأفغاني بتشجيعه لتلميذه علي إصدارها والكتابة بها.

وفي أخريات القرن الماضي وحتى قيام الحرب العالمية الأولى كان للصحف أثار بعيدة في خلق الرأي العام وتوجيهه، ولكن اشتداد الخلاف بين الأحزاب المصرية في هذه الفترة انتهي بالصحف إلى أن تصبح ميدانًا للمنازعات الشخصية والمهاترات اللاأخلاقية يقول محرم:

بعثـــــوا الصـــــحائف يلتـــــوين كأنمـــــا بعثـــــوا بهـــــن عقـــــاربا وأفاعيـــــا

و"ارتكبت الصحف باسم الحرية أبشع جريمة في تمزيق شمل المصريين وتفريق كلمتهم"[1] ، وقد كان لكل حزب وجماعة صحيفتهم هي لسان حالهم المعبر عن اتجاهاتهم؛ فاللواء (١٩٠٠) هو صحيفة الحزب الوطني، والجريدة (١٩٠٧) لسان حال حزب الأمة، والمقطم (١٨٨٩) صحيفة الاحتلال ولسان الحزب الوطني الحر (وما هو بوطني وما هو بحر)[2]، والمؤيد (١٨٨٩) تعبير عمن سموا أنفسهم بحزب الإصلاح علي المبادئ الدستورية استأجره الخديوي حينا ثم باع نفسه للإنجليز أخيرًا. ثم صحيفة الأهرام وكانت تمثل النفوذ الفرنسي المقاوم للنفوذ الإنجليزي قبل الاتفاق الودي ١٩٠٤، وأخيرًا صحيفتا الوطن ومصر ويعبران عن الطائفة المسيحية في مصر.

*****

(١) الدكتور محمد حسين، مرجع سابق، ص ٢٣٥.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣٣.

الغاياتي شيخ الصحفيين

يقول الدكتور زكي المحاسني "قضى حظ الأدباء في الشرق العربي أن يكون رزقهم موصولًا بالتعليم أو بالصحافة[1]، وذلك يصدق حقا على – الغاياتي – بل إنه كان معلمًا".

وفي هذا الفصل نتحدث عن الغاياتي الصحفي الثائر الذي أعز الصحافة واعتز بها ووهب لها حياته وماله بقلم حر عف نزيه جال وصال في أوربا وعلي ضفاف النيل، كان الغاياتي أمة واحدة في حمل رسالة الصحافة، وكان يحب عمله الصحفي علي ما فيه من جهد ومشقة، ولم يكن متاجرًا بجريدته بل إنه حرم نفسه من كل شيء حتى تستمر في الصدور رغم الأزمات. وعاش قلمه عفا علي كثرة ما خاض من معارك السياسة وظل يمتشق قلمه أو يعتقله كما يقول البارودي أكثر من نصف قرن ولآخر لحظة في حياته.

بدأ الغاياتي عمله الصحفي بمراسلة جريدتي أنيس الجليس والبصير، ثم عمل مصححًا لصحيفة الجوائب المصرية وكان يصدرها خليل مطران وعمل مع حسين شفيق المصري وأبي بكر لطفي المنفلوطي. ثم عمل محررًا حتى كتب مقالًا يدعو فيه إلى الدستور فخشى صاحب الصحفية حينذاك عطا بك حسني - وكان صهرًا للعائلة الخديوية- ففصله من عمله، وكان في نفس الوقت يكتب وينشر في صحف اللواء والمؤيد والدستور، وكان من زملائه في اللواء نظيم ومرسي شاكر الطنطاوي ومحمد لطفي جمعة، حتى إذا اختلف ورثة اللواء وعين يوسف المويلحي حارسًا قضائيًا عليه وأراد أن يتدخل في شئون التحرير أصدر الحزب الوطني صحيفة العلم ثم الشعب والاعتدال.

وقد نشر الغاياتي كل أشعاره التي ضمها في ديوانه وطنيتي علي صفحات اللواء والعلم، وحين فر إلى تركيا تولى رئاسة تحرير جريدة (دار الخلافة) وكان صاحبها شاب من مجاهدي طرابلس ويدعى عبد الوهاب عبد الصمد، وأتيحت له فرصة التعبير عن آرائه في افتتاحياتها وفيما ينشره من أشعار لاهبة، وبلغ من عنف مقالاته أن منعت الحكومة المصرية دخول الجريدة إلى مصر، وسعى الإنجليز في إعادته إلى الوطن، فشد الرحال إلى سويسرا ويقيم بعاصمتها جنيف، ويعوزه المال لمواجهة متطلبات المعيشة ونفقات الدراسة في ديار الغربة، فبعث إلى صاحب المؤيد – ومُكره أخاك لا بطل – يطلب منه مراسلته، وكان ذلك في أوائل ديسمبر ١٩١١، وبقى الغاياتي شهرًا بين الشك واليقين، حتى جاءه الرد بالموافقة، وبدأ الغاياتي يراسل المؤيد مقابل ثلاثة جنيهات شهريًا، وكان ينشر فيه أيضًا الأمير شكيب أرسلان، وكانت مقالاته تحتل معظم

(١) الدكتور زكي المحاسني، نظراتٌ في أدبنا المعاصر.

الصفحة الأولى إن لم تكن كلها، وكان يضايق الغاياتي فانتهز فرصة سفر زميله في الجامعة عادل جبر إلى الشام ورجاه أن يطلب من الأمير الإيجاز ليجد بجانبه نهرًا أو نهرين وعاد الزميل ليخبره أن الأمير وعد بالإجابة.

فإذا أتقن الغاياتي اللغة الفرنسية واستكمل عدته من الدراسة والاطلاع في قسم العلوم الاجتماعية بجامعة جنيف، واصل عمله الصحفي، فبدأ بالكتابة في الصحافة المحلية بترجمة بعض الأنباء من العربية، وكتابته مقالات في شئون الشرق والإسلام، وفي أول الأمر كان أجره عن السطر ثم عن القطعة والمقال وأخيرًا بمرتب شهري، ثم بدأ يحرر في أهم صحف جنيف اليومية والأسبوعية، فكتب في جريدة "تريبون دي جنيف" فكان يتقاضى أول الأمر عشرين فرنكًا عن مقاله الأسبوعي وتدفع له عشرين سنتًا عن كل سطر من الأنباء، وأخيرًا جعلت له راتبًا شهريًا قدره ثلاثمائة فرنك، وقد ظل يحرر القسم الشرقي فيها طوال الحرب الأولى وحتى عام ١٩٢٤، كما كتب أيضًا في "جورنال" دي جنيف وكان أجره عن المقال أربعين فرانكًا. وفي صحيفة "لاسيوس" أهم الصحف اليومية كتب الغاياتي كثيرًا من مقالاته وكان يتقاضى عن كل مقال فيها ثلاثين فرنكًا، كما كتب في مجلة "الا وريان اراب".

هذا بالإضافة إلى مراسلته لبعض الصحف المصرية: العلم والمؤيد والأهرام، وقد ظل مراسلا للأخيرة منذ عام ١٩١٤ وحتى عودته إلى مصر.

كما شارك بالخبر والتعليق في جرائد الصباح الفرنسية ومجلة القبلة التي أنشأها الحسين بن علي - شريف مكة- ورئيس تحريرها الأستاذ محب الدين الخطيب.

كما كتب في مجلة المستقبل وكانت تصدرها الدعاية الفرنسية في باريس ويشرف علي تحريرها شكري غانم، ولكنه يمتنع عن الكتابة فيها حين تبين له أنها تنشر أباطيل عن العروبة والإسلام. ومنذ اندلاع الحرب العالمية الأولى وميول الغاياتي السياسية مع الحلفاء لاعتقاده بحسن نية أنهم سيوفون بعهدهم ويحققون وعدهم لمصر وسائر البلاد العربية، فلما رفع الحسين بن علي -شريف مكة- علم الثورة ظن الغاياتي أن استقلال الحجاز يفتح الباب علي مصراعيه أمام استقلال باقي الأقطار العربية الواقعة تحت سيطرة الترك الذين أصبح زمامهم بيد الاتحاديين الغلاة والذين قادوا حملات التتريك والقمع ضد العرب وعلقوا أبطالهم علي أرجوحة الشهداء، وواضح في كتابته أن الثورة العربية نزلت علي الاتحاديين نزول الصاعقة، ونشر مقالات ثلاث شديدة اللهجة في "جورنال دي جنيف" دفاعًا عن الثورة العربية وهجومًا علي الأتراك، وكانت

مجلة القبلة تنشر للغاياتى بعض ما كتبه في صحف جنيف أو في جريدة المستقبل، وقد نشرت المقالات الثلاث في أعدادها ابتداء من العدد (٣٠) بتاريخ أول صفر ١٣٣٥.

وتلقي الغاياتي رسالة شكر من الشريف حسين في غرة رجب ١٣٣٥، وتلقى برقية خرجت من تركيا ونشرتها الأهرام في ٢٤، ١٩١٦/٨/٢٥، كما نشرتها صحف العالم، ومؤداها أنه ورد من الآستانة أن المجلس العسكري فيها قد حكم على الشيخ علي الغاياتي غيابيًا بالأشغال الشاقة المؤبدة لأنه نشر في "جورنال دي جنيف" فصولًا حبذ فيها نهضة العرب بالإضافة إلى هذا تعرض الغاياتي لاعتداء أحد الطلبة العرب الذي اعترف بذلك أمام البوليس وصرح أنه موال للألمان في يوم ١٩١٧/٥/٧.

ووقف الغاياتي إلى جانب الصين وكوريا ضد اعتداء اليابان، وفتحت الصحف صدرها لكتابات الغاياتي ويصبح عضوا بجمعية مراسلي الحلفاء ١٩١٧، وتنتهي الحرب ويتنكر الحلفاء لمطالب الشرقيين فينقلب الغاياتي خصمًا للحلفاء، منددًا بأطماع الغرب مهاجمًا الإنجليز وخداعهم، فإذا قامت الثورة المصرية ١٩١٩ وقف إلى جانبها واشتدت حملته علي انجلترا التي تسعى لدي صحف سويسرا فتغلق أبوابها دونه إلا صحيفة "تريبون دي جنيف" التي ظل محررًا بقسمها الشرقي، وإزاء ذلك فكر الغاياتي في إصدار صحيفة خاصة به يستطيع من فوق منبرها إرسال صيحاته المدوية إلى بني وطنه، ويجعل منها ثغرة تنفذ منها أفكار العرب والمسلمين ومطالبهم داخل القلعة الأوربية الحصينة يوم كانت أصوات الأحرار تموت قبل أن تصل إلى الأسماع، وليعرض علي الغرب تاريخ الشرق والإسلام حضارته.

*****

مولد منبر الشرق

حين عزم الغاياتي علي إصدار جريدته اختار أولًا اسم منبر الشرق. وقد اقترح عليه السيد رياض الصلح اسم "لا تريبون أراب" أي المنبر العربي، وبعد استطلاع رأي كثير من زعماء العرب والإسلام هناك، استقر الرأي علي التسمية الأولى "لأننا كنا نريد أن تكون هذه الصحيفة منبرًا للشرق والإسلام كافة لا للعرب وحدهم"[١].

ثم أرسل لحكومة جنيف خطابًا يطلب منها الإذن له بإصدار جريدته، وقد دهش الغاياتي للاستجابة السريعة من الحكومة بالإضافة إلى سهولة الإجراءات برغم من أنه ليس من أهل البلاد "زد علي ذلك أنه قبل صدور أول عدد ورد إلينا من قسم السياسة الخارجية بعاصمة الاتحاد السويسري – برن – كتاب لطيف من المسيو (دينيشير) يطلب فيه إرسال الجريدة إلى ذلك القسم ومع الطلب قيمة الاشتراك سلفًا"[٢].

وإذا كانت جنيف هي المركز الدائم لعصبة الأمم فقد كان من المفيد إصدار مثل هذه الجريدة بالفرنسية وسط هذا الجو الدولي الذي تصدر فيه، وإن لم يمنع هذا من إصدار الصفحة الأخيرة باللغة العربية ليحتفظ بعلاقة ما مع البلاد العربية، وبعد فترة ليست بالقليلة اقتصر علي الفرنسية.

وقد صدر العدد الأول من "منبر الشرق" في يوم الأحد ٥ فبراير ١٩٢٢ (٩ جمادى الثاني ١٣٤٠)، واستمر ستة عشر عاما في بلاد الغربة، حتى صدر العدد الأخير يوم الأربعاء ٢٦ مايو ١٩٣٧ حين عزم الغاياتي علي العودة إلى وطنه، وكان المنبر في عهده السويسري يصدر مرتين في الشهر، وقد صادفته أزمات قاسية مال معها ولم ينكسر، وكانت الصحيفة تصدر مطبوعة بخط اليد.

ونظرة سريعة إلى هذه الإحصائية ترينا مدي ما كان يعانيه منبر الشرق من أزمات كادت تودي به:

(١) منبر الشرق.

(٢) منبر الشرق.

السنة	عدد مرات الصدور	السنة	عدد مرات الصدور	السنة	عدد مرات الصدور
١٩٢٢	١٩	١٩٢٨	١٤	١٩٣٣	١٠
١٩٢٣	١٣	١٩٢٩	١٣	١٩٣٤	٧
١٩٢٤	١٦	١٩٣٠	١٠	١٩٣٥	٥
١٩٢٥	١٩	١٩٣١	١٠	١٩٣٦	٤
١٩٢٦	٢٣	١٩٣٢	١٢	١٩٣٧	١
١٩٢٧	٩	إجمالي		١٨٥	

ومن هذا يتضح أن عام ١٩٢٦ كان استقرارًا ورواج للمنبر بعد زيادته الثانية لعصر وترويجه لصحيفته، كما تبين أن المنبر كان يصدر أحيانًا كل شهرين أو ثلاثة شهور، علاوة علي أنه كان يعاني من أزمات حادة كادت تعصف به مرات عديدة. وبالإضافة إلى الأزمات المالية فقد حورب المنبر من بعض الحكومات العربية وبخاصة الحكومة المصرية التي منعت دخولها إليها في عام ١٩٢٢/١٩٢٣، حتى المشتركون كثيرًا ما كانوا يماطلون في دفع قيمة الاشتراك حتى تتراكم علي بعضهم قيمة اشتراك عدة سنوات، وكان هؤلاء من العرب وأكثرهم من ذوي المناصب الكبيرة والإثراء الواسع.

وقد كان المنبر هو الابن السابع للغاياتى في الترتيب، وكان يعتبره الابن الأول في المنزلة، فقد كان يعيش وسط الأسرة، فمكتب الجريدة والإعداد والتحرير والطبع والتصحيح والتوضيب والربط كل ذلك يتم في منزله.

والكل يشارك: محمد الأكبر يساعد أباه في الإدارة والتحرير، جميلة الكبرى تشارك في التحرير وكذلك ليلى، ومنيرة تعاونه في التصحيح والربط ولصق الطوابع وكتابة عناوين المشتركين، والسيدة قرينته تشارك في كل شيء وبكل شيء، ولم يفتتح مكتبًا لجريدته إلا بعد مضي ثلاث سنوات.

أما الصفحة العربية فقد كان أشق عمل يؤديه الغاياتي، يعمل فيها طوال أيام الأسبوع، وكثيرًا ما قضى شطرًا طويلًا من الليل في إعدادها، ويذكر أنه قضى مرة أربع عشرة ساعة متواصلة في إتمامها[١]، فكان يسهر الليل في كتابتها بخط يده بحبر أسود صيني على ورق صقيل، وإذا وقع خطأ في كلمة أو تغيير في كلمة أعاد كتابتها ثانية، ثم يسلمها إلى مصنع خاص ينقلها علي صفحة من صاج، ثم يطبعها بقلم أو سكين من حديد،

(١) (منير ٧١٠).

ثم يبدأ الطبع وهي الطريقة المعروفة باسم – ماشول – وقد تركها بعد فترة وجرب الطبع علي الحجر، ثم اشترى حروفا بنط ١٦ من برلين، وأخذ يصفها كما تفعل المطابع المصرية[١].

وقد اعتمد الغاياتي في تحريره للمنبر على دراساته الخاصة التي حصلها في جامعة جنيف، وعلى معلوماته، كما اعتمد علي الصحف المصرية التي كانت تصله لا سيما الأهرام التي كان مراسلًا لها وهو يخطط لصحيفته ويحررها وفقًا لمبادئه، وهو يجمع الأخبار ويحررها ويكتب الافتتاحية العربية والفرنسية اللهم إلا بعض الرسائل التي تأتيه من بعض الزعماء والسياسيين العرب وهو في هذا يتفق في وجود شبه كثيرة مع رائد الصحافة الشعبية في مصر "يعقوب صنوع"؛ فكلاهما شاعر ثائر لا يخشي الحاكم، وإن كان يعقوب احتمى في مصر بالقنصلية الإيطالية، وكلاهما أجبر علي ترك بلاده، وكلاهما اتخذ التعليم مهنة في الوطن وفي المهجر يستعين به علي مواجهة متطلبات الحياة، وكلاهما اتخذ من محامل الماسونية منبرًا للدفاع عن الوطن، وإن كان أبو نظارة شارك في تأسيسها منذ ١٨٦٥، وأخيرا اتخذ كل منهما من الصحافة بوقا للدعوة ومتنفسا لآرائه، وكان كل منهما صاحب جريدة وكاتبها وناشرها: فالغاياتي في جنيف ملجأ الأحرار، ويعقوب في باريس ملاذ طلاب الحرية، وأفنى كل منهما عمره وشبابه في خدمة الصحافة أكثر من ثلاثين عاما.

وقد كان الدافع وراء إصداره المنبر هو الدفاع عن حقوق الشرق الناهض، وتقريب مسافة الخلف بينه وبين الغرب ذي القوة والسلطان والبطش والعدوان، ولما كانت جنيف قد باتت مركز جمعية الأمم ومرصد سياسة العالم كان من الواجب فيها المبادرة بنشر تلك الجريدة لتحمل إلى هذه الجمعية المباركة ما قد لا تعلمه من آلام الشرقيين ومن أمالهم، وتساعدها بذلك علي القيام بمهمتها في إقامة معالم العدل ونشر لواء الإخاء بين الأمم والشعوب، وهذا المنهاج الذي يرسمه الغاياتي لمنبره لا يكاد يختلف في شيء عن العروة الوثقى أول صحيفة عربية ظهرت في أوربا، والتي كان يصدرها جمال الدين الأفغاني والأستاذ الإمام في باريس، فمنهاج العروة كما جاء في أول عدد سيأتي في خدمة الشرقيين على ما في الإمكان من بيان الواجبات التي كان التفريط فيها موجبا للسقوط والضعف، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فات، والاحتراس من غوائل ما هو آت.

(١) (منبر ٧٧٥).

ويهتم بدفع ما يُرمى به الشرقيون والمسلمون خصوصا من التهم الباطلة التي يوجهها إليهم من لا خبرة لهم بحالهم ولا وقوف علي حقائق أمورهم. وقد كانت أهم الموضوعات التي أثيرت علي صفحات العروة علي سبيل المثال هي:

الغرب الأوربي الطامع في الشرق الإسلامي، وذلك تحت عنوان النصرانية والإسلام، ثم حديث عن الوحدة الإسلامية وأهميتها في وجه الغرب النصراني ومعالجة موضوعية لأسباب انحطاط المسلمين وسكونهم، ثم دفاع عن الإسلام والمسلمين ورد لتلك التهم الباطلة التي يوجهها إليهم الغربيون وخصوصًا تهمة التعصب، وفي مجال مناهضة الاستعمار نجد فضحا لسياسة انجلترا في الشرق وفي السودان ومقال ساخر عن العالة الإنجليزية.

وكان للمسألة المصرية أهمية كبيرة من بين موضوعات "العروة الوثقى"؛ حيث تولت تطوراتها المختلفة، وثمة شروح مفصلة لأدواء الشرق وعلاجها متمثلة في مقالات مثل ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها، الفضائل والرزائل وآثارهما.

ونظرة سريعة إلى الموضوعات التي تناولها "منبر الشرق" ترينا مدى تشابه الصحيفتين في أسلوبهما، وتقارب منهاجهما الإصلاحي، وقد ظهر ذلك منذ صدور العدد الأول من "منبر الشرق"؛ فقد خصص الغاياتي قسميه العربي والفرنسي للدفاع عن الشرق والإسلام عامه والعرب خاصة ومصر علي الخصوص، فهو يقدم لصحيفته بافتتاحيتين عربية وفرنسية تضمنتا رسالتها وأهدافها: فرسالتها نهوض الشرق واستقلاله وما يريده لوطنه وهدفها "تقريب مسافة الخلف بين الشرق الناهض والغرب ذي القوة والبطش والسلطان"[1]، وجعل جريدته منبرًا قوميًا عربيًا وإسلاميًا وإنسانيًا، كما جعله لسان صدق في الدعوة إلى الإسلام، والذياد عن حماه ضد ترهات الملاحدة وخصوم الإسلام بأقوى الحجج والبراهين، مرشدًا إلى وجوب التعاون وتضافر القوى في مكافحة أعدائه، وكانت الجريدة ملتقي الأحرار من العرب والمسلمين والشرقيين علي اختلاف الأجناس والألوان والعقائد والأديان، حتى إنه كان لجهاد الصين وكوريا ضد الاستعمار الأجنبي ولأقلام الصينيين والكوريين المجاهدين مجال محفوظ بين صفحاتها[2].

(١) منبر الشرق.

(٢) (المنبر٦٢٧).

ودافع عن الشمال الإفريقي وطالب بالاستقلال الشام وتوحيده ونادي بالجلاء عن مصر والسودان وأظهر مطامع الطليان في ليبيا وكشف جرائم فرنسا وفظائع الإنجليز في وادي النيل والهند فمنع الإنجليز والفرنسيون جريدته من دخول البلاد التي تحت أيديهم.

ولم يترك عددًا من أعداد الجريدة دون أن يعرض لشؤون مصر الداخلية وموقفها في الميدان الدولي حاملا علي المحتلين والسراي وطلاب الحكم والمنفعة ويتضح منهاج المنبر من اسمه.

*****

العدد الأول

بعد الافتتاحية العربية يطالعنا بمقال عن سعد زغلول بمناسبة نفيه خارج البلاد ويختمه بقصيدة من ثمانية وعشرين بيتًا ذاكرًا أنه قد هجر الشعر من سنوات في بلاد الغربة، ولكن ما كادت حوادث الوطن المفدى تبلغ ما بلغت، ويحمل البرق والبريد إلينا من أنبائها ما يثير العواطف ويهيج النفس، حتى اهتز الجسم كما انتفض العصفور بلله القطرة وفاض اللسان.

ومطلع القصيدة:

نظمـــــوا فيـــــك أيهـــــا العلـــــم دررا قيـــــــل أنهـــــــا كلـــــــم

ويقول في ثناياها:

أجمـــــــع الشـــــــعب في محبتـــــــه لـــــك يا ســـــعد رغـــــم مـــــن وهمـــــوا

أما الجزء الفرنسي وهو الأكبر فقد كانت افتتاحيته أقرب إلى ترجمة الافتتاحية العربية، ففيها حديث عن الغرب الطامع، وفيها دفاع عن آمال الشرق الناهض، ثم يعقبها مقالات شتى تخدم الهدف الذي من أجله أنشئ المنبر، فثمة حديث عن مذابح إيران وعن المسألة السورية ووحشية الاستعمار الفرنسي، ثم حديث طويل عن شؤون مصر يختتمه بترجمة لنداء حرم سعد زغلول والذي منعت الحكومة المصرية نشره في الصحف، ذلك النداء الموجه إلى الأمة المصرية عقب اعتقال سعد ونفيه منذ شهر.

ويعلق الغاياتي علي النداء "إن كل وطني وكل وطنية في وادي النيل يتلو هذا النداء الصادر من أكرم قلب وأجل إحساس مصري، كما يتلو المصلي آيات كتابه المقدس والعين فائضة بالدمع والفؤاد بالوجد"[1].

وقد صدَّر الغاياتي كل عدد من أعداد المنبر بتلك الكلمة التي ألقاها الرئيس الأمريكي ويلسون أمام الكونجرس في ١٩١٨/١/١٨ وترجمتها: "إن مبدئًا واضحًا جليًا علي البرنامج الذي وضعته وهذا المبدأ هو الذي يضمن العدل لكل الشعوب قوية كانت أو ضعيفة ولكل الجنسيات وهو الذي يعلق حقها في أن تعيش جميعها متساوية في التمتع بالحرية والأمن جنبًا إلى جنب مع بقية الأمم".

(١) منبر الشرق، العدد الأول.

ولقد ظل الغاياتي يدافع عن هذا المبدأ حتى قبل إعلانه طوال سني الحرب علي صفحات الجرائد السويسرية، متخذًا موقفه مع الحلفاء أملًا أن يكون ثمرة وقوفنا نحن العرب والشرقيين معهم في الحرب: الجلاء والاستقلال، وها هو الغرب الطامع ينتصر، وإذا الحرب لا تثمر عن جلاء أو استقلال وإنما تثمر تثبيتًا للاحتلال وتكريسًا له، بل اغتصاب فلسطين وتقديمها هدية للصهيونية.

وما من شك أن تأثير "منبر الشرق" كان أعمق وأشد خطرًا من "العروة الوثقى"؛ ذلك أن الأخيرة لم يصدر منها سوى ثمانية عشر عددًا، وكانت باللغة العربية، في حين ظل المنبر ستة عشر عامًا الجريدة الوحيدة التي تصدر على ضفاف بحيرة ليمان بجنيف وفي أوربا وعلي مقربة من عصبة الأمم، علاوة علي أنه قد اتخذ الفرنسية لسانًا له إلى جانب اللغة العربية.

وإذا كان توقف العروة الوثقى يعزى إلى محاربة انجلترا لها ومصادرتها وتغريم قرائها، فما من شك أيضًا أن المنبر تعرض لمثل تلك الإجراءات إن لم يكن أكثر. فبعد عشرة أعداد وقبل مضي خمسة شهور على صدور المنبر تصدر الحكومة المصرية بتاريخ ١٩٢٢/٦/٢٢ قرارًا بمنع دخول جريدة "منبر الشرق" لأنها تنشر فيما يتعلق بمصر وحكومتها وولي أمرها أخبارًا تتعمد فيها تشويه الحقائق تشويهًا من شأنه تضليل الأفكار والإخلال بالنظام العام، ولم تكتف وزارة ثروت باشا بمحاربة منبر الشرق، بل أصدرت قرارًا آخر بمنع الصحف التي يكتب فيها الغاياتي خاصة "تريبون دي جنيف"؛ لأنها نشرت أخبارًا ماسة بكرامة ولي الأمر، وهي أكثر جرائد سويسرا الفرنسية انتشارًا، وهو اعتداء واضح علي حرية الصحافة في الخارج وفي بلد حر ديمقراطي كسويسرا.

ويوضح لنا الغاياتي بجلاء سبب منع ثروت باشا للمنبر أنه "من المعارضين لسياسته ومن طلاب الاستقلال التام الحقيقي ... وأن كل ما قلناه يظهر أنه أقام قائمة القوم لأنه أصاب كبد الحقيقة. هو أن الملك فؤاد الأول غير محبوب من الشعب ونحن نكرر هنا أن هذا أمر واقع لا شك فيه يعلمه الملك نفسه قبل سواه".

ولم يثنه قرار المنع عن استمرار الهجوم علي القصر والضالعين معه فكتب في ثنايا مقاله الذي فيه على قرار المنع تلك الأبيات التي كان أنشأها حين صدر قانون المطبوعات منذ اثني عشر عاما:

بـــني مصـــر بشـــرى فالرجـــاء محقـــق ... ومـــن عـــدم الأقـــوال رام فعـــالا
وهـــذا يراعـــى فليقيـــد فإنمـــا ... لـــدى يـــراع لا يهـــاب نضـــالا

سـأطلقه يجـري كمـا شـاء حـده ومـن شـاء فليقطـع عليـه مجـالا

ولم يقتصر المنع علي مصر وحدها بل حذت حذوها السلطات الفرنسية في سوريا ثم مراكش؛ حيث كان يهاجم السياسة الفرنسية تجاه سوريا والمغرب العربي، ويندد بأعمالها الوحشية، وينشر لزعماء سوريا المقال تلو المقال رافعين أصواتهم للمطالبة بالاستقلال والجلاء.

والإنجليز لا يكفون عن محاربته عن طريق محاولة الحجر علي حرية الصحافة السويسرية؛ فهم يضغطون علي بعض البيوت التجارية لعدم نشر إعلاناتها في الجريدة، وبعض الشركات ترسل إلى الغاياتي تبلغه أن زبائنها من الإنجليز يضايقهم هجوم المنبر، فيرد: ليس عداؤنا لأشخاص الإنجليز بل لسياستهم الاستعمارية، ونحن نتنازل عن الإعلانات إذا كان فيها حد من حرية المنبر.

وجدير بنا إلمامة سريعة بأهم موضوعات المنبر طوال أعوامه الستة عشر ليتضح لنا بجلاء منهجه وهدفه.

أول هذه الموضوعات الدفاع عن الإسلام والدعوة الإسلامية فهي قديمة العهد عند الغاياتي، ودراسته في مصر دينية، وفي مقدمته لديوانه نراه يدعو بدعوته لأنه "دين الحرية والمساواة والإخاء ورسول السلام العام وشارع الديمقراطية والدستور".

والغاياتي يوضح لنا منذ أول عدد أن الغرب المسيحي طامع وأن نيران الحروب الصليبية مازالت كامنة تحت الرماد؛ ولذا فالروح الإسلامية ستكون غالبة علي طابع المنبر الذي يصدر في قلب الغرب المسيحي، وحسب القارئ أن يلقي نظرة علي ما يجري في بلاد الإسلام ليرى مقدار ما يحيق بهذه البلاد من الخطوب والأرزاء من وراء تلك السياسة الظالمة[1]، وهو لهذا يصيح في وجود المسلمين:

أدركـوا الإسـلام في دولتـه هتـك العـادون مـن حرمتـه
أمطـروا النـيران في أوطانـه صـعقوا الأرواح في أمتـه
لم يجـن ذنبـا ولكـن ضـعفه لفـت الغـرب إلى قوتـه

وينحى باللائمة على المسلمين أنفسهم:

(١) منبر الشرق الفرنسي، العدد الثاني.

ولعمـــــــري نحـــــــن أســـــباب الـــــــردى فلنـــــذق مـــــا مـــــــر مـــــــن صـــــــدمته

قـــــــد أضـــــــعنا الـــــــدين والـــــــدنيا ولم نتحـــــــــــدى الغـــــــــرب في نهضـــــــــته

ويخصص الغاياتي بابًا ثابتًا في جريدته يضع له عنوانًا "العالم المحمدي" ينشر تحته ما يخص الإسلام والمسلمين وأعيادهم وبلادهم.

والغاياتي إلى قبيل سقوط الخلافة ينظر إلى الآستانة علي اعتبار أنها ملجأ وملاذ المسلمين ومقر الخليفة، فإذا خلع الكماليون السلطان محمد السادس أنحى باللائمة عليهم، ولم يثنه عن ذلك إلا التجاء السلطان إلى الإنجليز، ولكن تبقى بعد ذلك مشكلة فصل السلطة والتي هي أكبر دعائم الخلافة وأمثل مظاهرها، وأنه لولا عطف العالم الإسلامي علي الكماليين، ومد يده بالمعونة إليهم لما حققوا انتصاراتهم الباهرة.

كما أن القرار لا يخص تركيا وحدها، بل يخص العالم الإسلامي بأسره[1]، وبدأ الإنجليز يروجون لابن سعود، كما تثار مسألة الخلافة في مصر بتحريض من الإنجليز أيضًا، فيهاجمها ويهاجم أحقية الملك فؤاد في الخلافة، لأن شروطها أن يكون الخليفة دستوريًا، ويعقد مؤتمر للخلافة في القاهرة ١٩٢٤ لا يسفر عنه شيء، كما يقوم الغاياتي بالرد على الذين يهاجمون الإسلام ويشاركهم شكيب أرسلان وإحسان الجابري، ويشيد بمواقف كثير من كتاب الغرب المنصفين أمثال ادوارد مونتيه وينشر أراءهم، ويهاجم الاستعمار الفرنسي الذي يمنع دخول المنبر لدول المغرب العربي.

وكان ثاني الموضوعات التي استحوذت على المنبر موضوع العروبة لاسيما قضية فلسطين، وهو إذا كان قد أيد الحلفاء في موقفهم طمعًا أن تنال شعوب الشرق استقلالها وخاصة العرب، فإن الاستعمار لم يأخذ رطل اللحم كاملًا، وإنما اقتطع جزءًا عزيزًا من أرضهم ليقدمها هدية للصهيونية، وانبرى الغاياتي يتصدى لكشف الصهيونية على صفحات الجرائد السويسرية، حتى إذا ضاقت به أنشأ منبره ليدق في سمع العالم أجراس الخطر، وينعي للإنسانية انهيار القيم، ولعل الغاياتي أول صحفي تستحوذ على كتاباته القضية الفلسطينية – ملحق – ومنذ صدور العدد الأول من منبره وهو يشرح تطورات القضية والمؤامرة الصهيونية الاستعمارية علي الوطن العرب، وهاجم الانتداب ورد على خطاب بلفور أمام عصبة الأمم[2]، وبيَّن أحقية الفلسطينيين في بلادهم مدعمًا بإحصائية تثبت بالأرقام ١٩٢٢ عدد المسلمين ٥٨٣ ألفًا، في حين أن عدد

(١) منبر الشرق الفرنسي، العدد ١٥.

(٢) منبر الشرق الفرنسي، العدد ٨.

المسيحيين ٨٤,٥ ألف، وعدد اليهود ٧٩,٣ ألف، أي أنها معًا ١٦٣,٨ ألف، مشيرًا إلى أن أكثر اليهود ليسوا صهيونيين[١]، ويضرب أمثلة على ذلك أن يهود سويسرا لا يؤيدون قيام إسرائيل[٢].

وينشر شكاوى الفلسطينيين في العصبة وأخبار مؤتمراتهم، وهو يرى أنه يمكن أن يعيش اليهود إلى جانب إخوانهم من المسلمين والمسيحيين بشرط ألا يكون الوعد المشؤم ولا النزعة الصهيونية أساسا لذلك[٣]، ويرد على الصهيونيين في فلسطين تلك الدعايات التي تقرأها فتحس كأنها هي صاحبة الحق وأن العالم بدون إسرائيل لا خير فيه، ويندد بصحف سويسرا التي بدأت تفتح ذراعيها للدعاية الصهيونية وتغلقها دون العرب، ثم يؤكد حقيقة إمكان تعايش كل الأديان على أرض فلسطين[٤]، ويقترح لحل مشكلة اليهود أن يقيموا وطنًا لهم في سيبيريا[٥].

ومن الموضوعات التي شغلت المنبر ولم يخل عدد منها أحداث مصر يجعل عنوانًا لها "على ضفاف النيل"، فما تمر ذكرى مصطفى كامل أو جاويش أو الاحتلال إلا ويقطر قلمه أسى على مصر، ويرفع صوته مطالبًا بالاتحاد إذا عصفت الحزبية بالبلاد، ويصيح مناديًا بالحرية إذا اعتدي على الدستور، وحين يصادر صدقي باشا الدستور ينشر صورة للبرلمان ويكتب تحتها "بيت للإيجار"، ويهاجم فؤاد، ويلاحظ ذلك قبل صدور الدستور وفي فترات تعطيله، بل هو يسخر من عبارة مصر المستقلة ذات السيادة لأن مصر لا تزال تحت إعياء الاحتلال والاستعمار.

ومن أجل أن هناك وزارة مصرية وهناك ملك اتخذ لقب الخلافة له لقبًا حتى تكون مظاهر الاستقلال كاملة أمام العالم، ولكن كل ذلك عند العارف المتأمل من الظواهر الخلابة الخداعة، فثروت باشا صنيعة اللورد اللنبي وهذا حاكم بأمره وعندنا أن الملك فؤاد الأول مشترك مع الوزارة في المسؤولية.. وهو يدين بتاجه لوزارة الخارجية الإنجليزية ومن الصعب عليه أن يعارضها أو يناصبها العداء.. ولا يخفى مقدار حرصه على ذلك العرش ولا شيء أخر غير أبهة الملك وحب الانتفاع وإن خالف ذلك مآرب شعبه وميله[٦].

(١) منبر الشرق الفرنسي، العدد ٢٥.

(٢) منبر الشرق الفرنسي، العدد ٢٨.

(٣) منبر الشرق الفرنسي، العدد ٥٢.

(٤) منبر الشرق الفرنسي، العدد ١٤٠.

(٥) منبر الشرق الفرنسي، العدد ١٦٧.

(٦) منبر الشرق الفرنسي، العدد ١٤.

المنبر في عهده العربي

(١٩٣٨ – ١٩٥٦)

عاد الغاياتي إلى أرض الوطن بعد غربة دامت سبعة وعشرين عامًا، فعمل في جريدة الجهاد التي كان مراسلًا لها، كما كتب في جريدة السياسة، حتى أصدر جريدته – منبر الشرق – بعد صراع عنيف بين أمواج الحزبية التي ظلت تتجاذبه وتتقاذفه، وبعد رفض عنيد لتولي رياسة تحرير جريدة الحزب الحاكم، وكتب على رأسه أنه جريدة مستقلة، "فهو إذن سيكون بعيدًا كل البعد عن الحزبية والأحزاب وستكون مصر الخالدة هنا كما كانت هناك شغله الشاغل، فليعلم إذن كل زعيم أنهم أمامنا سواء، وأن الوطنية عندنا ليست هي الحزبية أو الزعامة أو النيابة أو الوزارة، وأنه لا فضل لهذا على ذلك إلا بالعمل المجدي النافع"[١].

وقد ظل الغاياتي ثابتًا على مبدئه لا يحيد، وظلت الاستقلالية سمة أساسية لجريدته، ولعلها الجريدة المستقلة الوحيدة إبان فترة الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، ومن أجل هذا تعرض لصنوف من الضغط والمساومات حتى قبل أن يصدر، فحاربته الأحزاب وحاربته الحكومة وطاردت بائعيه، وحين يرشح نفسه في الانتخابات عن قسم عابدين الذي شهد مولد وطنيتي، تحاربه الحكومة لكن من وراء الستار فينسحب، "كان استقلالي في الرأي إذن من أسباب ما لاقيت في بلدي المحبوب من نصب وجحود".

وإزاء صلابته تحاربه الحكومة فتخفض حصته من الورق "يفعلون ذلك ولا يخجلون في الوقت الذي يمنحون فيه الصحف الوزارية بالأطنان ولا ذنب لنا إلا إننا لا ننتمي إلى حزب حكومي ولا نطبل ولا نزمر لرجال الحكومة، ومع هذا سنبقى حريصين على استقلالنا محافظين على مبادئنا ولو أدى ذلك إلى احتجاب منبر الشرق".

ويأتيه مندوب من السفارة البريطانية يعرض عليه الورق بلا حساب ويغريه بالإعلانات فيقول لا، وجاءه مندوب من القصر فقال في شمم واعتزاز لا، وطلب منه وزير الداخلية فؤاد سراج الدين أن يخفف لهجته ضد الوفد فيرسل إليه خطابًا ثائرًا يطلب فيه قطع الإعانة عن الجريدة وهي اشتراك إدارة المطبوعات في مائة عدد، ويدعى بعد أيام إلى مأدبة تقيمها نقابة الصحفيين تكريما لهذا الوزير في مساء الخميس ١٩٤٤/٥/١٨ فيصر على الرفض "وذكرت معاليه بجهادي ومبادئ وحرصي الشديد على حريتي ورغبتي

(١) منبر الشرق العربي، العدد الأول.

الأكيدة في جعل المنبر صحيفة للرأي الحر مائة في المائة مهما كانت الظروف"، وكان الوزير أحمد حمزة حاضرًا المناقشة وكان له وزنه لأنه لا يتقاضى أجرًا على الوزارة، فناصر الغاياتي، وتشتد الحكومة في اضطهاده فيصيح "ومهما يكن من أمر فإننا لن نحيد عن مبادئنا ولن نخرج قيد شعرة عن خطة الحرية والاستقلال والرأي".

ويناشد المشتركين من القراء أن يسددوا ما عليهم رفقًا بالمنبر لأن السماء لا تمطر خبزًا ولا ورقًا ولا طوابع بريد والأرض لا تنبت مطابع ولا عمالًا ولا محررين.

ومرت على المنبر فترات عصيبة كان صاحبها يحجز عليه ثم تتولاه عناية الله، وكان لا يجد أحيانًا في جيبه قرشًا، ويظهر هذا في مرارة رده على محرره الذي اقترح أن يقيم له تلاميذه حفل تكريم فيجيبه:

(قـــالوا اقـــترح شـــيئا نجـــد لـــك طبخـــة قلـــــت اطبخـــــوا لي جبـــــة وقميصـــــا)

ويضطر للاستغناء عن بعض العاملين معه ويعرض بعضهم أن يعمل بلا أجر رغم حاجته، وكان يقتطع من قوته وأحيانًا يبيت على الطوى، ليتابع إصدار الجريدة، بل إنه ليفكر في الهجرة إلى أمريكا أكثر من مرة، وقد تحمل كل ذلك بغريزة المؤمن وصدق المجاهد، فظلت الجريدة تصدر لآخر من يوم حياته العامرة.

وقد كان المنبر جريدة دينية أدبية سياسية اجتماعية:

١) الاتجاه الديني:

أما الناحية الدينية في الجريدة فقد كانت جريدة دينية بالدرجة الأولى، وإن كان كثير من الباحثين قد أغفلوها وأغفلوا أثرها، فهو يعرض كل ما يمس الإسلام من الوجهتين العقائدية والتشريعية فيكثر من الحديث عن الإسلام الذي "أكمله الله وجعله خير دين كما جعل أهله خير أمة أخرجت للناس"، وهو ليس دينًا كسائر الأديان، فالحقيقة أنه دين ودولة جمع فيها الأحكام والإرشادات والعبادة والسياسة، وحكومته الرشيدة هي أفضل الحكومات وأعدلها على الإطلاق.

يقول الأمير شكيب أرسلان موجهًا الخطاب إلى الغاياتي بعد ثنائه على موضوعات المنبر ومباحثه الأدبية واللغوية والتاريخية "وأحسن من ذلك اعتصامكم بالأخلاق الإسلامية القويمة تحثون عليها بكرة وأصيلًا وتريدون عامة الأهالي أن يكونوا منها بمكان مكين وأن يبتعدوا عن سلوك المذاهب الجديدة الاجتماعية التي هي فساد الأخلاق ونزول في الطباع لا أكثر ولا أقل، فإن لم يكن لكم غير هذه المآثر في المجتمع الإسلامي

الحاضر الذي تحيط به مفاسد الأخلاق تحت ستار ما يسمونه بالتمدين العصري لكان والله ذلك كافيا"، والدعوة الإسلامية عند الغاياتي ليست حديثة العهد، إنها ترجع إلى أول عهده بالجهاد والكفاح؛ فقد كتب في مقدمة الديوان الذي صدر في ربيع ١٩١٠:

"إن الإسلام دين الحرية والمساواة والإخاء وهو رسول السلام العام وشارع الديمقراطية والدستور، وبالجملة هو مثال الوطنية الصادقة والحكومة الصالحة"[١].

وقد كانت أبرز الموضوعات التي عالجها الغاياتي بقلمه وبأقلام الذين شاركوه هو موضوع الوحدة الإسلامية، فهو يرى الغرب النصراني يحاربنا حربًا صليبية لا هوادة فيها فلا خلاص لنا إذن إلا بالوحدة الإسلامية التي جاء بها القرآن وحض عليها خير الأنام، وهو لهذا ينعي على المسلمين الذين تركوا التمسك بدينهم وتفرقوا شيعًا، فكل قبيلة فيها أمير للمؤمنين ومنبر، ولهذا استباح حماهم الاستعمار حتى غدوا أشبه بالخراف أو النعاج تجز أصوافها وتؤكل لحومها ولا تبدي حراكًا أمام المقص والسكين، وهم إن صدقوا في إيمانهم واتحدوا دانت لهم الأرض وباركتهم السماء واستطاعوا بقوة إيمانهم أن يأتوا بالمعجزات، وهو لا يهدف إلى إقامة دولة إسلامية عالمية، وإنما هدفه إقامة "جامعة إسلامية روحية قوية هدفها الأول جمع الكلمة وضم الصفوف وتنمية الشعور بالتعاون والتضامن بين المسلمين".

وحين تثار مسألة الخلافة في مصر بإيعاز من انجلترا يكتب ساخرا: أخلافة وخليفة في مصر وهي ضعيفة؟!، وأنه إذ جاءتها الخلافة كانت مهزلة "لأن هذا الخليفة المصري المفروض لا يستطيع أن يفعل شيئا جديا لمصر ولغير مصر"، ويوم تستقل مصر فلن يحول بينها وبين الخلافة حائل، بل إن الخلافة لتأتيها تسعى لتقر في كنفها المكين الأمين.

وكان الغاياتي ينتهز حلول المواسم الإسلامية والأعياد الدينية، فيصدر أعدادًا خاصة تتضمن المقالات والقصائد والبحوث، ويعقد مع قرائه صلات روحية بعيدًا عن السياسة، فإذا بدأ العام الهجري كتب في هجرة الرسول التي تأسى بها والمعاني التي توحيها للمؤمنين، والاحتفال بعيد الهجرة عند الغاياتي "يجب أن يكون قبل كل شيء بإحياء سنة صاحب الهجرة عليه السلام من بر وعطف وهداية وإرشاد وطاعة وجهاد".

(١) مقدمة وطنيتي.

ويحل ميلاد الرسول الكريم فيعطر الغاياتي حديثه إلى القراء بسيرته، ويحدثهم عن الرسول إنسانًا ومجاهدًا وزوجًا ويناجيه خاشعًا "يا سيدي يا رسول الله أنت نور الأنوار وصفي الله المختار لولاك ما كان ليل ولا نهار ولا شمس ولا أقمار ولا جنة ولا نار أنت أكرم الخلق على الله وحبيبه ومصطفاه، أنت سر الوجود وقطبه ومعنى الكون ولبه وأنت بحق سماء ما طاولتها سماء وإن الكائنات في نورك لضياء في ضياء من سناك تشرق القلوب وتطمئن النفوس وتسبح الأرواح في ملكوت الحب والمعرفة".

فإذا كانت ذكرى الإسراء والمعراج، ذكر مسرى الرسول وذكر المسجد الأقصى وذكر فلسطين، وأهاب بالمسلمين أن يجمعوا أمرهم ويعدوا عدتهم ليوم مقبل عظيم كيوم صلاح الدين.

فإذا مزق إصبع هلال رمضان طيات السماء صحب نفوس قراءه لجولات ورحلات روحية سماوية ننتقل فيها من أسفل إلى أعلى، حتى لتكاد تدنو من رحاب رب العالمين في جنات النعيم، ويتابع طوال أيام الصوم رحلاته هذه كاشفًا عن معاني الصوم وأسراره: حديث القلوب إلى القلوب.

ولا يأتي موسم الحج إلا ويكون الغاياتي قد أعد العدة لزيارة الأراضي المقدسة، فإذا عاد فتح قلبه لقرائه وابتعد عن مشاكل السياسة وحدثهم عن رحلته الروحية إلى أرض النبوة، فعقب زيارته الأولى ١٩٤٦ كتب سلسلة مقالات بعنوان "على هامش الحج"، ثم عاد فنشرها في كتيب صغير، ولم يكتف الغاياتي في هذه المقالات بحديثه عن المتعة الروحية التي صادفها في حجه، بل هاجم المسئولين في الحكومة السعودية ووصف ما يعانيه الحجيج من عناء ومشقة وإرهاق وما يلاقيه الرفيق من مهانة وإذلال، ودعا إلى ضم المسعى إلى المسجد الحرام وإلى تدويل الكعبة والأماكن المقدسة، حتى لا يغلق الحج في وجود بعض المسلمين لأسباب سياسية، وعلمت الحكومة السعودية بثورة الغاياتي فحاولت ترضيته "لقد أريد وأنا بمكة أن أتشرف بمقابلة ملكية خاصة فاعتذرت وعجلت بالرحيل إلى المدينة المنورة، وأريد بعد إيابي إلى مصر أن أكتفي بكتابة تقرير إلى أولي الأمر فاعتذرت أيضًا ونشرت ما نشرته على ملأ من المسلمين لأنه يهم جميع المسلمين، ولأن سياسة السكوت والإسكات المتبعة هناك إثمها عندي أكبر من نفعها، والرضا بها جريمة لا تغتفر في حق الإسلام وأهل الإسلام".

وقد تحقق بعد هذه المقالات كثير من مطالب الغاياتي فأصبح المسعى جزءًا من الحرم الشريف، ولم تعد الذبائح تلقى للعفن في الطرقات في منى وخصص لها مجزر عام، ومهد الطريق بين جدة والمدينة.. ثم عاود الزيارة في رجب ١٣١٨ – مايو ١٩٤٨ بعد فقد نجله الأكبر تعزية واستعانة على "ذلك الخطب الذي

نزل في الصيف الماضي بأعز الناس وكاد يزلزل منا النفس ويهدم الفؤاد.. وهي في العالم عزاء خير من الصلاة وتلاوة القرآن غير بيت النبي ومنبره".

ويعود مرة ثانية بعد شهور أربعة ليؤدي مناسك الحج ويشهد غسيل الكعبة ويحدث قراءه عن هذه المتعة الروحية، "وبعد أن طفنا بالبيت صعدنا مع الصاعدين إلى أرضه وأخذنا نغسل جدرانه وأرضه بماء زمزم وماء الورد وماء العيون الباكيات".

ويعود في العام التالي لزيارة المدينة مثوى الرسول، وإذا كان من نسل النبي وذريته فقد اجتمع الفرع بالأصل ووقف أمام الحرم النبوي.. "وما أدراك ما هو، إنه قطعة من السماء زينت بها الأراضي وروض من رياض الجنة تحلت بها هذه الدنيا"، وهزه الشعور وعاوده الشعر بعد طول السنين ليتفجر على أسلة لسانه شعرا صافيا يناجي به الرسول وهو آخر شعر قاله: -

أنا عاشـــــــــــــق لمحمـــــــــــــد ... ولآلـــــــــــــه وصـــــــــــــحبه
وأجمـــــــــل العـــــــــيش عنـــــــــدي ... ســـــــــاعة في قربـــــــــه
ســـــــر الوجـــــــود هـــــــو الحبيـــــــ ... ـــــــب وقلبـــــــه مـــــــن قلبـــــــه
نـــــــور علـــــــى نـــــــور تجلـــــــى ... مـــــــن سمـــــــاء محبـــــــة
أنا مـــــــن عشـــــــيرته ولي ... قلـــــــب يســـــــير بركبـــــــه
أحيـــــــا بـــــــه فـــــــإذا انقضـــــــى ... عمـــــــري انقضـــــــي في حبـــــــه

ويعاود الحج في نفس العام ١٣٦٩ وقد تكون هذه حجة الوداع، وقد أصابته الحمى في الأسبوع الأخير بعد أن أدى مناسك الحج، فعاد إلى مصر ودخل مستشفى "جاردن سيتي" وأجريت له عملية البروستاتا، وكرر الزيارة بعد ذلك بصحبة زوجته المصرية وقد أصيب بحالة تسمم فدخل مستشفى الزهراء السعودية، وظل يصيح وهو في صراع الحمى "المجلة المجلة"، وفي سنة ١٩٤٤ مرض فنزل في مستشفى العجوزة.

وإلى جانب احتفال الغاياتي بالمواسم الدينية نراه يدافع عن الأزهر وهو من تلاميذه ويرى أنه يمثل الفكرة الإسلامية والثقافية الدينية ويحمل لواء العلم بالدين والدنيا معا.

كما أن تاريخ البلاد السياسي والاجتماعي والأدبي يتصل كل الاتصال بتاريخه، ولهذا دعا الغاياتي "أن يبقى بمعزل عن الأحزاب والأهواء"، وأن طريق إصلاحه لا يكون عن طريق السياسة والتحزب "إنما يكون عن طريق العلم والدين"، ويهاجم الحكومة حين تصدر قرارها بحل هيئة كبار العلماء وكان لا يعفي مشايخ

الأزهر من اللوم لأنهم "ساروا في ركاب الحكام حتى ديست كرامتهم بالإقدام"، وارتموا في أحضان القصر حتى "عبدوا أو كادوا يعبدون الملك.. من دون الواحد القهار".

و قد ناصر الغاياتي جماعة الإخوان المسلمين خاصة بعد اغتيال زعيمهم حسن البنا سنة ١٩٤٩، إذ كانت تقوم على الرجولة والمثل العليا، وخصص في الصفحة الأولى حيزًا تشغله سلسلة من المقالات عن كتائب الإخوان في فلسطين "تستعرض أعمالهم البطولية والفدائية"، كما خصص بابًا في جريدته يشغل أكثر من صفحة جعل عنوانه – في محيط الإخوان – يتتبع أخبارهم كما يكتب فيه البعض عن مبادئ الجماعة وأهدافها ومثلها، وينشر بعض عبارات وخطب الفقيد، وقد تعرض من جراء ذلك لاضطهاد الحكومة ومطاردة بائعي جريدته، ويبعث إليه أحد القراء يخبره بذلك فيعلق على رسالته "لقد قال لنا أخيرًا معالي وزير الداخلية أنه يستطيع إحالتنا إلى نيابة الصحافة لمخالفتنا لقانون الأحكام العرفية فيما يتعلق بالإخوان المسلمين ولكنه لم يفعل مجاملة منه ولطفًا، وإنا لنشكر لمعاليه ونسأله بكل احترام أن يطبق القانون العرفي علينا إن صح تطبيقه، فنحن برغم الشيخوخة نتقبل كل ما يتحدانا به شبابه الغض بارتياح وابتسام مادامت – حكومة الشعب – تقر ذلك وترضاه"، ولم يكن في دفاعه عن الجماعة متحزبًا أو مأجورًا، غاية ما في الأمر أنه إذا كان منبر الشرق – جريدة مصرية مستقلة فهو قبل ذلك وبعد ذلك صحيفة إسلامية.

وإذا كان الغاياتي هو أقوى الروافد التي تصب في أنهار جريدته، فقد كانت هناك روافد أقل عطاء وإن لم تكن أقل عمقًا وخصبًا، فقد شاركه في جريدته صفوة من الكتاب والأدباء، معظمهم بلا أجر وأغلبهم من علماء الدين وأساتذة الأزهر المتحررين، حتى غدت الجريدة مدرسة بكل معنى الكلمة.

فيختص الشيخ حسنين مخلوف – مفتي الديار المصرية – بباب الإفتاء، وكانت ردوده وافية تأتي على هيئة بحوث ضافية وعميقة، ويتناول الشيخ عبد المنعم النمر -الدكتور فيما بعد- بتفسير القرآن تحت عنوان "نظرات في كتاب الله"، ويكتب الشيخ الشرباصي – الدكتور فيما بعد – بحوثًا إسلامية تحت عنوان "من هنا وهناك" أو "ورود وأشواك"، فإذ أودع المعتقل بسبب مقالاته وخطابه: يخرج ليكتب على صفحات المنبر تفاصيل حياته تحت عنوان "مذكرات واعظ أسير".

ويعرض الدكتور/ محمد البهي في سلسلة مقالاته لموضوعات العالمية وأثرها في شعوب الإسلام والمسيحية، وبين العلم والفضيلة والدين والدولة.

ويبرز الدكتور/ محمد غلاب مفاسدنا السياسية والاجتماعية، ويعرض لوسائل الإصلاح في سلسلة مقالات ممتعة، ويتناول الدكتور/ عبد الحميد محمود الفلسفة الإسلامية والإشراق الروحي، ويهاجم الأستاذ/ أبو الوفا الغنيمي التفتازاني الشيوعية، كما يهاجمها الدكتور/ محمود الشرقاوي، ويتحدث أحمد فهمي أبو الخير عن العالم الروحاني، ويختص عبد الله موسى بتناول الرسول نبيًا وانسانًا وقائدًا تحت باب ثابت جعل عنوانه "محمديات"، ويكتب السيد/ مبشر الطرازي التركستاني في ذكرى المولد، وعيوب المسلمين، وشريعة الله، ويكتب الشاعر/ محمود رمزي نظيم عن "الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر"، وصفحات من الحكمة المشرقية، ويتناول/ عبد الله السمان بعض عيوبنا كالنفاق والعصبية.

ولا يسعنا في هذا المقام أن نعدد بحوث وموضوعات الجريدة، ونكتفي بذكر الذين شاركوا في المنبر إلى جانب من أشرنا إليهم، نذكر الشيخ إبراهيم علي أبو خشب، والشيخ مصطفى الصاوي، والشيخ عبد الغني إسماعيل، والشيخ محمد الغزالي، ومحمود بن الشريف -الدكتور فيما بعد –، ومفتي طرابلس السيد عمر الفاروقي، ومحمد عطية الإبراشي، والدكتور/ محمود حسب الله، والدكتور/ محمد عبد المنعم خفاجي "الناحية الأدبية".

وقد اهتم الغاياتي بتغطية أخبار المؤتمرات الإسلامية والمشاركة فيها، ولعل أهم المؤتمرات التي شارك فيها المؤتمر الإسلامي الأوروبي الذي عقد بجنيف في الفترة ما بين (١٢-١٩٣٥/٩/١٥) وقد انتخب شكيب أرسلان رئيسًا له والغاياتي أمينًا عاما.

وكان الغرض منه النظر في مصالح المسلمين الأوروبيين والمقيمين في أوروبا، وذلك من الوجهتين المادية والأدبية، وقد حضره أكثر من سبعين شخصية إسلامية من الشرق والغرب ومن أبناء سويسرا الألمانية الذين أسلموا سرًا ومن أبناء الأوروبيين الذين أسلموا عن عقيدة.

وفي آخر الجلسة الثانية المنعقدة بعد ظهر اليوم الأول طلب الكونت الإيطالي برنارد باربيلين أميدي الأستاذ بجامعة روما إعلان إسلامه فقام مفتي بولندا يعقوب أفندي ولقنه الشهادتين وفي ظهر اليوم الثاني وبعد أداء صلاة الجمعة قام الغاياتي فطالب بإنشاء مسجد في جنيف، وقد رحب المجتمعون بهذا الاقتراح.

وانتهز فرصة حلول يوم ١٤ سبتمبر ليندد بالاحتلال الإنجليزي لمصر وسياسته العدوانية رغم أن المؤتمر لم يبحث في الشؤون السياسية[١].

٢) الاتجاه الأدبي:

يعلل الدكتور/ طه حسين اتجاه الصحافة المصرية إلى الأدب بازدياد الخصومة والحزبية بأن الصحف كانت أجل أدوات التنافس بين الأحزاب، وكان الأدب من أهم ما توسلت به الصحف ولكنها "تخدع الناس وتستدرجهم إلى قراءة ما تكتب في السياسة، وما هو إلا أن أصبحت الكتابة في العلم والأدب نظاما تحرص عليه صحيفة تقدر لنفسها كرامة، صحيفة تريد أن يحفل بها الجمهور، وأصبح الجمهور نفسه لا يقدر الصحف إلا إذا قدمت له مع الفصول السياسية فصولا في اللغة والفلسفة والأدب"[٢]، وهذا الذي يقول به طه حسين لا ينطبق كل الانطباق على (أدب المنبر)؛ فأدب المنبر جزء عضوي من الجريدة وهو في أغلبه أدب ديني.

فهو أدب هادف أدب يحترم المجتمع الإسلامي بالكشف عن عيوبه واستشفافه لنواحي العظمة في الإسلام وليس أدبا للترف. أدب يعرض لأمجاد الإسلام والتاريخ الإسلامي وشخصياته: إثارة لكوامن الغيرة الوطنية في نفوس أبنائه وغرسا لروح القوة في نفوس نشئه وشبابه.

وهذا الأدب الديني يصب في قوالب الشعر والنثر وأحيانًا الزجل، أما الشعر فلم يخل عدد من المنبر من قصيدتين أو أكثر وكثيرًا ما يفرد له صفحتين من صفحاته وهو في أكثره شعر ديني، فرمزي نظيم يكتب أشعاره الصوفية، ويكتب في ذكرى المولد والهجرة.

وشعراء دمياط علي العزبي ومحمد البدري محمدين، ومحمود جبر شاعر آل البيت، ومحمد كامل جبر ينظمون رباعياتهم الدينية في صفات الله وعجائب الوجود، والشيخ أبي الارشاد ينظم في أدب الإسلام، كما ينشر هؤلاء شعرهم الديني: أحمد محرم وعبد الله شمس الدين وإبراهيم الدباغ ومرسي شاكر الطنطاوي، إلى جانب الشعر الوجداني للشعراء الشبان أمثال كمال نشأت وخليل جرجس خليل وكناري وفايز جلال ووديع فلسطين وعبد الرحمن الخميسي والدكتور مختار الوكيل.

(١) منبر الشرق، فبراير ١٩٤٦.

(٢) طه حسين، حافظ وشوقي، مرجع سابق، ص ٥٩.

أما النثر فقد تمثل أكثر في أدب التراجم الإسلامية والآداب الإسلامية، فيكتب الغاياتي سلسلة مقالاته عن بعض الشخصيات الأدبية والعلمية والسياسية مصدرا مقاله بهذا البيت لابن دريد:

وإنمـــــا المـــــرء حـــــديث بعـــــده فكـــــن حـــــديثا حســـــنا لمـــــن وعـــــى

فيكتب عن محمد علي علوبة وعبد القادر حمزة وأحمد شفيق والرافعي ود/ محمد صبري ود/ محمد حسين هيكل، ويكتب كامل كيلاني عن ابن جبير وجابر بن حيان ويتولى كتابة باب أدب الأطفال، ويتناول حسين نجيب المصري بالتحليل والدرس الأدبين التركي والفارسي، ويعرض علي الجارم للأدب الأندلسي: شعره ونثره، ويتناول محمود عبد السميع الجوانب الإسلامية عن بعض أعلام العصر الحديث/ الأفغاني ومحمد عبده والساعاتي والبارودي وحافظ وشوقي والشيخ على يوسف، ويكتب محمود رمزي في الأدب الرمزي عن الأمم الملهمة في عالم الطير والحيوان.

هذا بالإضافة إلى النقد الفني والمقالات الأدبية الخالية من الصبغة الدينية، فعلي الجندي يكتب قطوفه في اللغة والأدب وينشر جنادياته، ويتولى الدكتور/ مختار الوكيل نقد الأعمال الأدبية تحت عنوان "ثمار المطابع وعالم التأليف"، وفي كثير من الأحيان يستحوذ على صفحة كاملة، ويتولى الأستاذ/ علي ناصف نقد الأعمال السينمائية والمسرحية يشاركه في ذلك حسين حلمي المهندس، وكتب الدكتور/ زكي مبارك بعض مقالاته، وخليل مطران صاحب جريدة الجوائب التي تولى الغاياتي أول عمل صحفي له فيها يكتب في النقد، ويكتب الأستاذ/ محمد لطفي جمعة مقالاته في أدب الرحلات، ويكتب محمد مسعود عن العلم والعلماء، ومحمد فهمي عبد الأدب والنقد، وحسين منصور في اللغة، كما ينشر المنبر العديد من القصص المصرية والترجمة.

وأخيرًا نأتي للزجل الذي أفسح له الغاياتي في منبره ثلاثة شهور فحسب، ثم يغلق؛ ففي الفصحى ما يكفي، وقد نشر نظيم وحسين مظلوم – شيخ الزجالين كثيرًا من إنتاجهما.

٣) الاتجاه السياسي:

وإلى جانب الاتجاه الديني عقيدة وتشريعًا وأدبًا، كان هناك اتجاه سياسي، وإن كان يستند هو الآخر إلى مبادئ الإسلام الذي يحارب الاستبداد ويدعو إلى الثورة على الظلم وينادي بالشورى والعدالة، وكان المنبر مرآة صادقة عكست حوادث مصر والعروبة طوال سنوات صدورها في مصر التي استمرت ثمانية عشر عاما، شهدت صراعات الأحزاب على الحكم وما قاساه الشعب من كبت وحرمان خلال سني الحرب العالمية،

ثم شهدت مأساة فلسطين وما أعقبها من حوادث القتال، ثم عاصر مخاض الثورة وولادتها في فجر ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وقد انغمس الغاياتي في بحر السياسة عند بدء حياته العلمية وظل يصارع تياراتها قرابة خمسين عاما، وكانت الجريدة حربًا على كل الذين يضرون بمصر القصر والاحتلال ورجال الحكم:

- **القصر:**

لم تكن مهاجمة الغاياتي للملك بالشيء الجديد عليه، فقد هاجم أباه منذ توليه عرش مصر واتهمه بالأنانية والتسلط ومجافاة روح العدل، فكان أن منع جريدته من دخول مصر، وهاجم منذ بداية هذا القرن الخديوي عباس حلمي وكشف عن نهمه للمال والحكم فكان أن حاول إيداعه السجن ولكنه استطاع الفرار.

وفي أول مقال للغاياتي بعد عودته إلى مصر يعلق على عيد جلوس الملك: "أن الملك المحبوب لا يجهل ما يشكو منه الشاكون وما يتألم المتألمون، وأن مصر إذا كانت كما يقولون أرض الغنى والثروة فهي كذلك أرض الذل والشقاء، وأنه لتوجد وسط الأنوار الساطعة والأفراح العامة دور أشبه بالقبر، وأنه لتوجد أحزان جمة ويوجد محزونون يخطئهم الحصر"[١].

وبدأت فضائح فاروق تشيع، فاتصل الغاياتي برئيس ديوانه أحمد حسنين (باشا)، وحادثه في الأمر ووعده رئيس الديوان بإيصال ذلك، و"لكن العبث لم ينته والفساد زاد فلم نطق صبرا وذهبنا إلى قصر عابدين وقابلنا رئيس الديوان في مكتبه من الساعة ١:١٥ إلى الساعة ٢:٤٥ يوم السبت ٢ من ديسمبر ١٩٤٤، وقلنا له أن الأمر لم يقف عند حد، وقد بات فاروق مضغة في الأفواه، وأنت يا (باشا) أول مسؤول عن ذلك، وقد كنت معه الليلة الماضية في أوبرج الأهرام ورأيت بعينيك ما هناك من عبث واستهتار وستكون لكل ذلك عواقب وخيمة".

وحيين يمضي فاروق شهر الصيف في أوربا يستقبله الغاياتي بمقال يفتتحه بقوله:

ماذا صنعت لنا من الحسنات في هذه الروحات والغدوات

ويختتمه بهذا البيت:

فلعلها ولعلها ولعلها ولعل من عقد الأمور يحلها

(١) منبر الشرق العربي العدد الأول.

والإرهاص بالثورة واضح عند الغاياتي في هجومه على الملك، إلى جانب مقالاته الثائرة التي كان يندد فيها بالحكام ويبكي فيها ما وصل إليه الشعب من بؤس وفاقة، من مثل صرخته هذه قبيل الثورة:

"الجو مظلم والسماء غاضبة والأرض تكاد تميد بمن عليها من العباد أو العبيد، أيحسب الظالمون أن القصاص الحق لن ينالهم، وأن العدل الإلهي يخطئهم، إنهم واهمون، وعن قريب يؤخذون بما كسبوا وهم لا يظلمون".

ومن أجل ثورته هذه حمل إليه التليفون تهديدات السراي على لسان رئيس الديوان الملكي ووزارة الداخلية عن طريق إدارة المطبوعات ومدير الأمن، وكان رده كل مرة "ضميرنا مرتاح، وهذا يكفي، وافعلوا ما تريدون". والغريب أنه حين بدأ يكتب ذكريات كفاحه وجهاده، كان ذلك قبل قيام الثورة بشهرين، وكان وصفه لفترة بداية العشرينات ينطبق تمام الانطباق على بداية الخمسينات، وكأنما قصها من ذكرياته هذه نوعا من الأدب الرمزي الذي يمهد للثورات، فكلتا الفترتين أعقبتا حربًا عالمية بأهوالها ومصادرتها للحريات، والاستعمار هو هو وأساليبه لم تتغير: لعبة الدستور والأحزاب، وهو في الحالين يقاوم استبداد القصر، والقصر يحاربه، ويخاصم رجال الأحزاب والأحزاب تناوئه، ويندد بالاحتلال والمحتل يحاربه من وراء ستار.

- **الاحتلال:**

ناصب الغاياتي الاحتلال العداء، وتاريخه مع الاحتلال طويل وعنيف بدأ مع بدايات الحركة الوطنية، فكشف أطماعه في مصر وتركيا وأوروبا شعرًا ونثرًا، فلما عاد الى الوطن هاجمه في غير هوادة واصفًا إياهم بالكلاب، وإن كان "يعتذر قبل كل شيء إلى الكلاب الأوفياء"، وهاجم نصوص معاهدة ١٩٣٦ "تلك المعاهدة التي قيدنا بها ساستنا وكبراؤنا ليصلوا من ورائها للحكم... والتي لا يقبل مثلها أمة لها كرامة أو شخصية قوية، وإذا كنا قد عقدنا هذه المعاهدة تحت تأثير الخوف من شبح ايطاليا الفاشستية، فقد آن الأوان لنعدل نصوصها بعد انتصار الحلفاء وهزيمة المحور".

وحين بدأ الإنجليز يلوحون للمصريين بشبح مخيف جديد هو شبح موسكو، كشف ألاعيبهم التي قد تجوز على عقول الزعماء والرأسماليين (ويردع الإنجليز)، ولكنها لا تجوز على "السواد الأعظم من الشعب".

هذا الشعب الجائع المريض صاحب البلاد وسيدها دون سواه.

وبإلغاء المعاهدة تحقق ما ظل ينادي به الغاياتي طوال سنوات عديدة، وإزاء الوضع الجديد الناشئ عن إلغائها طالب بتنظيم المقاومة، وأن تعمل فورًا وبلا ابطاء، فالوطن في خطر، "وقد مضى زمن الكلام وزمن عهد المفاوضات والمخدِّرات إلى غير رجعة، وألغيت معاهدة الذل والاستعباد التي زعموا في يوم أنها معاهدة الشرف والاستقلال، ولم يبق بيننا وبين الإنجليز للتخاطب والتفاهم إلا اللغة التي يعرفونها ويحترمونها وهي لغة الحرب والقتال ولغة القنابل والمدافع والرصاص والدماء".

ويدفعه الحماس إلى نشر نشيده الوطني الذي كتبه منذ أربعين عامًا، ويبارك تكوين كتائب التحرير بقيادة عزيز المصري ويتمنى المشاركة فيها "فهل من كتيبة لمن فوق الستين لنكون في مقدمة الصفوف بين المدافع والسيوف".

وكما هاجم الغاياتي الاحتلال الإنجليزي هاجم الاستعمار الامريكي حتى قبل أن يكشف أنيابه، فهو يسخر من موقف أيزنهاور حين أعلن أنه يحاول استعادة الثقة التي فقدتها الولايات المتحدة بين العرب فيتساءل "هل يستطيع أيزنهاور أن يجمع في سياسته بين النار والماء والأحباب والاعداء واللصوص والأوفياء وهل في امكانه الإخلاص للعرب وإسرائيل على السواء أم هو كلام في الهواء وهراء في هراء"، ويفضح سياستها الاستعمار ومخططها في استغلال الشعوب "إن امريكا تارة تحت ستار التعمير وتارة تحت ستار التعليم إنما ترمي الى نشر نفوذها وتوطيد أحلامها في هذه البلاد منها لتجعل منها مستعمرة تبث فيها روحها المادية عن طريق المال وعن طريق التبشير".

بل إن الغاياتي سبق جميع الكتاب في فضحه لأمريكا الاستعمارية منذ أكثر من ستين عامًا، وذلك في رده على الرئيس السابق روزفلت حين أعنن تأييد الاحتلال الإنجليزي لمصر.

فمن أنتم إذا افتخرت شعوب ... بمجد في ذرا الأهرام سام؟
لنا ما كان من مجد تليد ... وما كنتم هنالك في الأنام
وقد ساموكم الخسف اعتسافا ... وقادوكم إلى الموت الزؤام

وحين يقف المندوب البلجيكي في الأمم المتحدة يهاجم حق مصر في الاستقلال نراه يرد وسامها الذي أهدي اليه تعبيرا عن استنكاره لموقفها.

- **رجال الحكم:**

أما مهاجمة الغاياتي لرجال الحكم والأحزاب والضالعين مع الاحتلال فتظهر خيوطها الأولى على صفحات ديوانه الثائر – وطنيتي – وهم الذين سعوا مع القصر والاحتلال إلى إبعاده عن الوطن واسكات صوته وكسر قلمه، ولم يهنأ الغاياتي منذ وطئ أرض الوطن، فكشف أطماعهم وتكالبهم على كرسي الحكم أو (اللحاف) كما كان يحلو له أن يسميه، فالكل يقول إنه لا يريده في الوقت الذي يحاول فيه أخذه من الآخر، فهم إذن تجار وطنية، وهم كما يقول قاسم أمين "كعصارة الطماطم توضع في كل شيء لتكسبه ذوقا خاصًا يجعل تناوله سهلًا مقبولًا"، ويسخر الغاياتي ويقول "ليت شعري ألا تكون الوطنية عندهم إلا تحت قبة البرلمان، وهل إذا يكتب لهم الفوز في الانتخابات لا يصح لهم أن يقرروا عملا خارج البرلمان ولو كان فيه خير لمصر"، وهو لهذا يصرخ في وجوههم:

داووا الكنانـــــــــــــة بالعمـــــــــــــل لا بالكـــــــــــــلام وبالكســـــــــــــل

وحين أكثروا من الحديث عن المفاوضات وتتابعت وفودهم ترى إلى عاصمة المحتل يكتب ساخرًا:

جعلـــــــــــوا كعبـــــــــــتهم لنـــــــــــدرة يا لهـــــــــا مـــــــــن كعبـــــــــة منكـــــــــرة

"هي كعبتهم إليها يحجون وإلى حماها يستبقون ومن فيضها البريطاني يستمدون الوحي.. ثم ترجع وفودهم إلى وادي النيل حتى بدون خف واحد لحنين المسكين"، وتحقيق الاستقلال لا يأتي عن طريق المفاوضات وإنما عن طريق العمل فتعلن الأمة حكومة وشعبا استقلال الوادي التام وبطلان كل معاهدة أو اتفاق لا يتفق مع هذا الاستقلال.

وقد ظهر مذهب الغاياتي السياسي في جريدته واضحًا كما ظهر من قبل علي صفحات وطنيتي، ومذهبه السياسي يستند أيضًا إلى مبادئ الإسلام وتعاليمه، وإذا كان الإسلام هو دين السلام، فقد دعا إلى السلام وسيادة روح الأمن علي العالم كله والسلام ليس سلام الدول الاستعمارية، وإنما هو السلام المبني على العدل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي وعلي المساواة بين الشعوب في حقوقها واحترام السيادة وكرامتها في الداخل والخارج.

وهاجم البلشفية والنازية لأن فيهما خطرًا علي الإنسانية "وإن الدين الإسلامي والعقلية الشرقية والكرامة العربية تأبي البلشفية وتأبي النازية علي السواء"، ودعا الشعوب إلى محاربتها وإن كان يكره الحرب، ويرفع شعار تسقط الحرب؛ لأن الذين أثاروها وأشعلوا نيرانها إنما هم "طلاب عظمه كاذبة وسلطان فان

علي حساب البلاد التي يحكمونها ويسوقونها إلى البلاء والخراب ليرضوا زعامتهم الخاصة وشهواتهم الجامحة".

وهو إذا كان قد ناصر الحلفاء فذلك انتصار منه لقضية الديمقراطية والحرية كدعوة الإسلام، وإن كانت المصلحة القومية تدفعه إلى عدم تأييد اشتراك مصر في هذه الحرب "كلا إنه يجب على مصر أن تبقى على قيد الحياة وأن تعقد مع ايطاليا من الآن معاهدة عدم اعتداء حتى لا تعرض نفسها لما لا قبل لها به من الخطوب والأزراء، وقد خدعنا في الحرب الأولى وكوفئنا على الولاء بشر الجزاء ولن يلدغ المؤمن من جحر مرتين"، ومن أجل هذا يهاجم الذين حبذوا اشتراك مصر فيها "يجب ألا تغيب لحظة واحدة عن الأذهان دعاة الحرب الذين يتمتعون بالحياة اللينة ولا يبذلون نفيسا في سبيل البلاد الشقية الجائعة المهددة"، ويتنبأ الغاياتي بنهاية هتلر الذي مهما ساعده الشيطان وأغوته آلات الهلاك والخراب الحديثة فهو مقهور مدحور ولو بعد حين.

وانطلاقًا من السلام ناصر الغاياتي قيام جمعية الأمم فهي "ضرورة من ضرورات الوجود الدولي والنظام الإنساني في هذا العصر"، والحكم في الإسلام قائم على الشورى والعدالة وهما ما دعا إليهما الغاياتي مع مطلع كل عدد من جريدته، فناصر الدستور وهاجم معطليه، ودعا إلى النظام النيابي، كما دعا إلى الإصلاح الاجتماعي والاقتصادي، ورفع شعار الحزب الوطني الجلاء أولا ثم المفاوضات، وطريق الجلاء إنما يكون بالدم، والفداء والقتل السياسي من أبرز ما نواجهه في مذهب الغاياتي السياسي، وقد اتخذ موقفه منه اتجاهين مختلفين تمام الاختلاف:

الاتجاه الأول تأييده والدعم إليه، ويتضح هذا من إشادته بدنجرا القاتل للورد كرزون وبالورداني قاتل بطرس غالي كما بينا من قبل، ولعل هذا كان بسبب حماس الشباب.

والاتجاه الثاني: حين يكبر فيصبح أكثر اعتدالًا، وإن لم يزل ثائرًا، فبعد مقتل أمين عثمان تراه يعلن "أن القتل السياسي عندنا فضلًا عن تحريمه دينيًا لا يؤدي البتة إلى الهدف المقصود"، وبعد مقتل النقراشي والشيخ حسن البنا تراه يدين هؤلاء الذين يتبنون القتل السياسي "وهم بذلك يسيئون إلى الوطن إساءة لا تغتفر ويسنون سنة آثمة"، وهو يرجع ذلك إلى الاحتلال بمظالمه ودسائسه وأحزابه، وأن هذا الشر قد سرى في كل البلاد الواقعة تحت سيطرته مثل حادث اغتيال رياض الصلح والملك عبد الله.

ولعل أبرز الموضوعات السياسية التي عالجها الغاياتي هو موضوع – الوحدة العربية فتصدى لدعاة الانفصال والفرعونية، واصفًا إياه بالتفكير الخاطئ، ومؤكدا أن روح العروبة والإسلام هو روح العزة والسلام، ولا تعارض بين الفكرة الإسلامية والوحدة العربية، فالإسلام وقد بني على العروبة والعرب هم البناؤون الأولون وحماته الأمجاد وأبطاله المغاوير.

والوطن العربي عند الغاياتي لا يعرف حدودًا ولا تخومًا، كما أن رابطة القومية لا تقوم على الوحدة الجغرافية أو السياسية، أو الجنسية، بقدر ما تقوم على وحدة الأفكار والمشاعر والآمال والآلام والغايات والمثل، وإن كانت لا تعيش على الشعور وحده، فكما أن الشعور الوطني أساسه الحقيقة وإدراك فكرة الوطن إدراكًا واضحًا قويًا، فكذلك الشعور القومي إنما يستمد قوته من الإدراك القومي للعالم العربي باعتباره وحدة تنظم أبناء العروبة في سلك واحد لا ينقسم له عقد ولا تنال منه أحداث الدهر وأحابيل الطائفية.

ومنذ بداية الأربعينات يثار موضوع الوحدة العربية، ويبعث فؤاد أباظة باشا إلى الغاياتي باعتباره من دعاة هذه الوحدة رسالة، يطلب منه الحضور لتأسيس نادي الاتحاد العربي بالقاهرة بطريقة سهلة على مبادئ أندية الروتاري، فيعلق عليها بقوله "إن الوحدة العربية أكبر وأجد من إنشائنا دارا أو جمعية للحديث والسمر، وتكرر مع الأسف قولنا "تمخضت الجبال فولدت فأرا".

وقد سبق الغاياتي بفكره الوحدوي الأحداث التي جرت في الوطن العربي بعد قرابة عشرين عامًا وهو يقول وكأنه يحذر من الحركة الانفصالية الرجعية "إن البحث في الوحدة العربية يجب أن يقوم على أساس وطيد من الحقائق الأليمة، والخيالات اللذيذة"، وإن الاتحاد الذي يريده اتحاد حر مستقل لا تشوبه شائبة، عربيا بكل معنى الكلمة، والأقليات المسيحية لا تشكل خطرا في رأيه على العروبة فإنها من العرب والهم وهي حريصة على العروبة حرص المسلمين سواء بسواء.

والغاياتي يرى أن الذي يحول دون الوحدة العربية ليست هي الشعوب العربية إنما هو أولئك الزعماء والرؤساء الذين يطيب لهم التفرق لتبقى الزعامة والرياسة في أيديهم، وبارك الغاياتي قيام الجامعة العربية واعتبرها برغم قصورها نواة للوحدة العربية، وإن كان قد هاجمها لفشلها في حل كثير من المشكلات ولا سيما مشكلة فلسطين "إن حرية الشعوب لا تؤخذ بمثل دموع عبد الرحمن عزام باشا أمين الجامعة العام ولا بمثل (اهتمام) النحاس باشا وبقية أعضاء الوفود العربية"، ولعل أخطر ما واجهته العروبة في تاريخها المعاصر وربما القديم هو قضية فلسطين.

وقد وقف الغاياتي والجريمة لم تفرخ بعد إلى جانب الفلسطينيين وحقهم المشروع على صفحات الصحف السويسرية وفي افتتاحيات جريدته هناك، ودعا العرب والمسلمين إلى استنقاذها من أيدي البغاة المعتدين وأن يجمعوا أمرهم ويعدوا عدتهم ليوم عظيم مقبل كيوم صلاح الدين وعليهم أن يعرفوا حق المعرفة أنهم "إن لم يهبوا جميعًا ويقفوا كرجل واحد في وجه المعتدين فعليهم أن يستعدوا للسير في جنازة الإسلام والعروبة في فلسطين"، وطالب العروبة بإعلان الحرب على الإنجليز إن لم يكفوا عن مساعدة الصهيونية، وقاطع المنبر اليهود "فلا يعامل أحدا منهم ولا يقبل اشتراكا ولا إعلانا من محل صهيوني على الإطلاق".

وإزاء هجوم الغاياتي على اليهود بعث بعضهم بشكوى إلى نيابة الصحافة وإلى إدارة الأمن العام، ويدعى الغاياتي صباح السبت ١٩٤٨/٢/٧ إلى إدارة الأمن العام، فأوضح هناك أن التمييز واضح بين اليهود الموالين المسالمين واليهود المشاغبين المعاديين وهم المسمون بالصهيونية فهؤلاء وأمثالهم هم المقصودين بما نقول وهم الذين يجب قتالهم ويجب مطاردتهم، وأكثر من ذلك بعث بعضهم رسائل تهديد إلى الغاياتي إذا لم يكف عن حملته هذه.

وإلى جانب الدعوة العربية الشاملة فالاستعمار واحد والمصير متحد يربط بيننا الجوار وصلات الرحم ووشائج القربى، وقد خصص صفحة كاملة في منبره للسودان جعلها بمثابة صحيفة مستقلة ووضع لها اسم (صوت الأحرار)، وكان يحررها الأحرار السودانيين في مصر، وهو يبارك اتفاقية السودان ١٩٥٣ فقلنا "إن للسودانيين الحق الكامل في تقرير مصيرهم وهم مهما كانت الظروف إخوان في الدين والوطن".

هذا الجانب السياسي عند الغاياتي الذي عرضنا له كان إلى جانب أقلام كتاب سياسيين كبار؛ فالدكتور مصطفى الحفناوي يتولى كتابة المقال السياسي تحت عنوان "حديث المجالس"، وهو بدا ثائرًا كأستاذه. ويتولى حسن عوض قسم السياسة الخارجية، وشكيب أرسلان والزعيم محمد علي الطاهر وحبيب جاماتي يكتبون عن فلسطين، وحمد خليفة التونسي يكتب عن الصهيونية وبروتوكولات حكماء صهيون، وإسماعيل طاهر "أسامة" يكتب تحت عنوان (في الغربال) وهو أبرز تلاميذ الغاياتي وأخلصهم، كما كتب أيضًا الأساتذة فتحي رضوان وأحمد حسين ومحمد صبيح.

٤) الاتجاه الاجتماعي:

ونأتي أخيرًا إلى الاتجاه الاجتماعي للمنبر، وهو اتجاه يستند أيضًا إلى قوانين المجتمع الإسلامي التي تحارب الفوارق الاجتماعية وتناهض الاستغلال وتحارب البدع والعادات المرذولة – والكتاب والأدباء لاسيما الصحفيون – هم قادة الفكر والرأي في الأمة وإنتاجهم مرائي تنعكس على صفحاتها الحياة الاجتماعية، وأقلامهم هي حراب يغمدونها في صدور الرذائل والمفاسد الاجتماعية مرة. وأبواق ينفخون فيها أصوات الثورة على التقاليد والعادات.

وقد تجلى كفاح الغاياتي الصحفي بأروع صوره في دفاعه عن حرية الشعب والعدالة الاجتماعية، وهو لهذا يعتبر من الرواد الأوائل الذين بذروا بذور الاشتراكية في بلادنا، وقد ساعده على ذلك دراسته الاجتماعية في جامعة جينيف إلى جانب إنسانيته ورقة قلبه المستمدة من عميق إيمانه وحسن إسلامه، فالإسلام بمبادئه دين الاشتراكية.

وحين يصل الغاياتي إلى أرض الوطن بعد غيبة طويلة في أوربا يكتب في جريدة (السياسة) مقالًا يحذر فيه من غزو الشيوعية لمصر بسبب ما تعانيه من فقر وبؤس ومن ثراء وترف "يؤلمني أن أقول إن ما كنت أراه من ثلاثين عامًا بمصر من البؤس والشقاء هو ما ألمحه الآن... دع مؤقتًا البحث في بؤس الفلاح وتعاسة العامل وشقاء الفقراء، وأحمد الله تعالى على نعمة الإسلام الذي حمانا إلى هذه الساعة من عدوى بعض المذاهب الاجتماعية الخطرة"، والوجه الثاني هؤلاء الأغنياء المترفين وهم دعاه الشيوعية ومروجوها قبل سواهم بأسوأ الأعمال وأشنع الأمثال يضربونها للناس.

وفي مقال آخر صرح بأنه لا يخاف على مصر الثورة السياسية بقدر ما يخاف عليها من الثورة الاجتماعية عندما يصحو الشعب وينهض مطالبًا بحقوقه في الحياة، ومن أجل هذا يهاجم الرأسماليين الذين يمتصون دماء الشعب ويتركون أفراده نهبا للأمراض والعلل يقول تحت عنوان (مصر الغنية) "مصر الغنية يكاد أبناؤها يموتون من الفقر والبؤس وأبناؤها الذين من الارستقراطية الذين يعدون على أصابع اليدين والقدمين هم السواء الأعظم من الزراع والصناع ومتوسطي الحال هذه الفئة ولا تلك من الواغلين عليها الذين امتصوا دماء الشعب فأثروا على حسابه وبقى هو فقيرا معدما لا يملك حتى ثمن الكفن الذي يلف به جسم أمواته"، كما يهاجم التجار والجشعين الذين يتسابقون إلى إحراز المال على حساب الشعب رضي الشعب أم غضب شبع أم جاع.

وأن أزمة التموين هي في الأساس لها أزمة أخلاقية يجب أن تقابل بالردع والبطش، وأن يواجه تجارها بالإعدام إن دعت الحال، ويرد على الذين أرادوا زج مصر في الحرب دون أن يلتفتوا إلى ما يعانيه أفراد

الشعب "فكيف تغرس بذور الوطنية في نفوس تشعر بالظلم وكيف يطلب في هذه الحالة من قوم حفاة عراه أولي مسغبة أن يدافعوا بحماسة وإيمان عن مثل عليا لا تفيض لبنا وعسلا إلا على غيرهم". ويسخر من أولئك الذين ينفقون الأموال على تجميل العاصمة ويتركون الشعب "يختنق أو يحتضر أو يباد عن آخره"، وصرخ في وجوههم "جملوا ما شئتم أن تجملوا ولكن لا تنسوا أن في تشييد الحجارة وحدها تدميرا لكيان الشعب يجب عليكم أن تبنوه قبل كل شيء صرحا من العدالة الاجتماعية والطمأنينة ورغد العيش"، وبناء هذا الصرح يتحقق بعدالة التوزيع "فإذا كانت مصر غنية كما يقولون فيجب أن يصيب بعض هذا الغنى أكثر أبنائها حاجة إليه وهم كل هذا الملايين من الحفاة والعراة الجائعين والبؤساء ..... نريد أن يجد الجائع خبزا والجاهل علما والمريض علاجا والعاطل عملا وألا يستغل العامل ظلمًا أو يستهان بأمر الفقير والضعيف"، ولا يصح أن تتجمع مظاهر البؤس المدقع والغنى المتخم من محو هذه الفروق الشاسعة أو تقريب المسافة بينهما بقدر المستطاع.

وبالإضافة إلى دعوة الغاياتي إلى الاشتراكية والعدالة الاجتماعية فقد خصص بابًا خاصًا في جريدته لبحث مشاكل العمال وبسط قضاياهم حتى لتتهمه حكومة النقراشي بأنه يروج للشيوعية، وأنه يتلقى إعانات من الشيوعيين، وهو الذي اتهمته الحكومة قبل ذلك بأيام بأنه من دعاة الإخوان المسلمين، ويرد الغاياتي على اتهام الحكومة بمقال يختمه بقوله "إننا لا نملك دارًا ولا أرضًا ولا سيارة ولا دراجة ولا بقرة ولا حمارة وليست لنا إعانات من أية جهة من الجهات وعظماؤنا يهربون إن طولبوا بدفع قيمة الاشتراك ومع ذلك فنحن أغنياء من التعفف وإيماننا هو ثروتنا وهو ثروة لا تنفذ".

وكما ناصر العمال إلى جانب الفلاحين – عماد الأمة – فخصص أنهارًا عديدة من جريدته لعرض مطالبهم وشكواهم، ويصور ما وصلوا إليه من بؤس وشقاء وما وصلت إليه القرية من ذل وهوان "فهذه الدور أو القبور وهذه الأقذار المكدسة في الطرق وعلى الأسطح وهؤلاء الناس من الكاسيين العاريين ومن الأحياء الأموات وإذا سألت عن السبب قلنا إن الجهل أولا والفقر ثانيا مع أنها الكل في الكل في حياة البلاد ورخائها وغناها نعم إنك تلاقي الملكيات الخاصة والتفاتيش الهائلة ولكن الفلاح يكاد يكون فيها عبدًا لا حرًا وحيوانًا لا إنسانًا".

ومن أجل هذا نادى الغاياتي بتحديد الملكية قبل صدور القانون "الذي نراه أنه يجب أن تحدد مساحة الأرض التي يزرعها المالك ولا يتجاوزها ولتكن خمسين فدانًا والباقي يؤجر للمستأجرين– قهرًا – عنده ولا يكون له حق إخراجهم".

والفروق التي نادى الغاياتي بإلغائها لم تكن فروقًا مادية فحسب، وإنما كانت فروقًا أدبية أيضًا تمثلت في تجارة الألقاب وفي التعليم، أما الألقاب فقد راجت تجارتها على يد الخديوي عباس حلمي "إن نظام الألقاب في مصر مقضي عليه بالفشل كنظام الطبقات وإن الفضل والفخر والخلود لمن يعمل لأمته مخلصا في نطاق جهوده وكفايته لا لمن يتمتع بالمال والجاه ثم ينام ملء جفنيه فلا يجدي ولا ينتج".

ويشيد بموقف إسماعيل صدقي حين خطب في مجلس النواب (مايو ١٩٤٠) مطالبا بإلغاء الرتب، ويعلق على الخطاب بأن هذه الألقاب لها أضرار اجتماعية بليغة وأنه يجب إلغاؤها لا سيما وأن تركيا التي بدعتها في مصر قد ألغتها.

"وإذا كان لنا من شيء لابد منه في الدولة الألقاب والرتب فحسبنا من ذلك الألقاب العلمية والرتب العسكرية"، وحين تعلن سورية إلغاء الرتب والألقاب يعلق بقوله "هذا في سورية أما مصر زعيمة العروبة!!"، وأما التعليم فقد قصر على القادرين وليس في ذلك عدل ونادى بمجانيته حتى تتاح الفرص للجميع أن ينهلوا من مناهله، وهو يرى أن التعليم وحده لا يكفي "إذا لم يقترن بالتربية والتهذيب وإذا لم يتجمل صاحبه بمكارم الأخلاق ومحاسن الصفات".

وقد كانت دعوة الغاياتي إلى مجانية التعليم ضرورة يحتمها القضاء على تلك العادات والمفاسد الاجتماعية التي استقرت في بلادنا، ومن أجل هذا كان الغاياتي حربًا على هذه العادات والمفاسد، فكان أول من دعا إلى نبذ بدعة المحمل وطقوسه وتقاليده، وحارب الموالد، ففي مقال له بصحيفة المؤيد منذ أكثر من ستين عاما يقول "ولعمر الله إني ما وجدت بدعة أفظع وأشنع من هذه الموالد التي حفت بالمناكر والمفاسد وأصبحت للمعاصي معهدًا وللمناهي موردًا ..... وهي أسواق الفجور وبؤر الشر والعصيان"، ويحدثنا عما صادفه في زيارة مولد سيدي إبراهيم الدسوقي "فكنت أرى المقهى ينقسم قسمين أو ثلاثة/ قسم للحشاشين وقسم للخمر وقسم للباغيات".

وكان هجوم الغاياتي على المخدرات عنيفًا ومستمرًا بدأه قبل أن يغادر مصر أوائل القرن العشرين، وازداد في سويسرا فحذر منه في محافلها ومحافل عصبة الأمم وراح يرسم طريق القضاء عليها، وقد طلبت منه الجمعية القومية للحرية والسلام في سويسرا أن يكتب بحثًا عن المخدرات في مصر، فكتب متحدثًا عن تاريخها قبل الحرب وانتشار تجارتها أثناء الحرب وبعدها وتغلغل إدمانها على جميع المستويات وكافة الطبقات، ويعرض لحال الفلاحين المصريين الذين أصبحوا يعانون منها الكثير، وناشد المؤتمر بتحريم زراعته والاتجار فيه. وحارب الخمور رغم حاجته الشديدة ورفض الإعلان عنها في جريدته.

ووقوف الغاياتي إلى جانب الفقراء وجموع الشعب كان نابعًا من إحساس عميق بالرحمة وشعور فياض بالعدل، وهو لهذا ينادي بإصلاح حال المسجونين الذين قضت ظروفهم أن يعيشوا في السجون ويحملون سلسلة من الحديد تزن أكثر من ثلاثة كيلوجرامات، وما الحكمة منها وأية فائدة تجنيها الحكومة من ورائها؟ ألا يقدر المسئولون أن مثل هذه الأغلال تبعث في نفس السجين معاني الحقد علي الإنسانية فيخرج من سجونهم كافرًا بالعدل حقودًا علي المجتمع متفننًا في أصول الإجرام.

وقد شارك الغاياتي في مقالاته وبحوثه الاجتماعية كُتَّاب نهجوا نهجه، نذكر منهم الشاعر حسنين محمود حسنين الملقب بكناري في صوته المتجاوب - وهو من أخلص تلاميذ الشيخ، وإسماعيل طاهر "أسامة" صاحب باب (في الغربال) حمل حملات قوية علي الغلاء والتقاليد الفاسدة، والأستاذ أحمد عاصم في سلسلة مقالاته (خواطر عابرة)، وعبد العزيز الزهيري يكتب تحت عنوان (علي الهامش)، وعبد المنعم الصاوي تحت عنوان (منبر الحياة) و(أقدار الرجال)، ولطفي الخولي تحت عنوان(من الشارع)، والدكتور محمود الشرقاوي والدكتور محمد صبري وعبد الرحمن شكري وآخرين.

وكان الغاياتي من أبرز رعيل الصحافة الأول في مصر وأكثرهم اشتغالًا بها لاسيما الصحافة السياسة التي بذر بذورها جمال الدين الأفغاني، وكان أول المقبولين بنقابة الصحافة بجلستها الأولي في (١٩٤١/٦/١٧)، وكان من أبرز الذين كرمتهم النقابة سنة ١٩٤٧ في احتفالها بمرور أربعين عامًا علي الصحافة النزيهة. وقد ظل الغاياتي يكافح طوال سنوات جهاده الصحفي في أن تتحقق للصحافة نزاهتها حتى تستطيع أداء رسالتها السامية، وكانت أهم مبادئ دستور الغاياتي الصحفي الذي نادي به وسار عليه:

- المبدأ الأول: أن الحرية الصحفية هي الأساس الضروري للعمل الصحفي وبدون هذه الحرية لا توجد صحافة.
- المبدأ الثاني: أن الكرامة الصحفية هي أقدس من كل ربح وكسب.
- المبدأ الثالث: أن الصحافة أداة تثقيف وتربية ودعوة للتقدم.
- المبدأ الرابع: الحياد الصحفي أمام المشكلات السياسية والاجتماعية جريمة لا تغتفر.
- المبدأ الخامس: الخصومة السياسية ليست شخصية إنها اصطدام مبادئ وتصارع أراء.

وقد أتاح نشر المنبر الفرص للغاياتي أن يطبق مبادئه هذه عمليًا، وأن يقضي بما تنطوي علية جوانحه من نظرة قدسيه إلى رسالة الصحافة، وكان بذلك مدرسة تخرج منها إعلام للرأي الحر والفكر المستنير، لاسيما أن معظمهم لم يكن يتناول أجرًا عن كتاباته.

ولنبين هذا الدستور الصحفي الذي شرعه الغاياتي واختطه نعرض لرأيه في الصحافة ورسالتها ونزاهتها والكرامة الصحفية فالصحافة "ترجمان الرأي العام وعليها المعول في بث الآراء وإثارة الأفكار وفي ذلك ما فيه من فائدة للهيئتين معا الحاكم والمحكومين". وأهمية الصحافة ترجع إلى اتخاذها الكلمة أداة لها وسلاحا "ورب كلمة تنشرها صحيفة -كما يقول الغاياتي- لا تلبث أن تخترق الحجب ويسري صداها في الأفاق فتقرع الأسماع وتفتح العيون وتلهب الشعور من حيث يدري قارئها أو لا يدري".

وليست الصحافة هي السلطة الرابعة كما يقول الجميع بل "إنها السلطة الأولي لأنها لسان حال الشعب ومرآة الرأي العام، بل هي الموجهة والمرشدة والقائدة المطاعة في أكثر الأحيان"، ويعلل ذلك بأن الصحافة "قد لا تحتاج إلى الحكومة ولكن الحكومة دائمًا في حاجة إليها ولابد من معاونتها إن لم يكن بالتأييد فبالنصح المفيد أو بالنقد الشديد وهذا النقد لا غنى عنه مطلقا للهيئة الحاكمة لأنه تمحيص للنفع وتوجيه للخير ومادامت المصلحة الوطنية هي الهدف المقصود للجميع كان أيضًا التعاون علي إدراك هذا الهدف فرضًا محتما علي الجميع ولن تستطيع حكومة ديمقراطية أن تبلغ الغاية المرجوة في ميدان من ميادين الإصلاح والنهوض بدون صحافة حليفة قوية هي عضد الأمن وصمام الأمان".

وفي مجال الصحافة يمكننا أن نميز مدرستين متميزتين "أولهما المدرسة التي تؤمن بأن الصحافة رسالة ثقافية وتوجيهية وأخلاقية يجب أن تؤديها، وثانيها المدرسة التي ترى الصحافة تجارة همها الأول والأخير هو كسب المال"، وقد كان المنبر كما كان صاحبه من أنصار المدرسة الأولي التي تنادي بأن الصحافة هدى وإرشاد ووطنيه وجهاد في سبيل الخير العام وسبيل الحرية الصحيحة والاستقلال التام، وهي كذلك رسالة علم وثقافة تحاول الارتفاع بالجمهور إليها، رغبة في تقدمه ورقيه وإصلاح حاله وبلوغه مبلغ الرشد والقوة، والمدرسة الثانية لم ينم تصرفها عن خيانة الرسالة فحسب، بل ينم عن احتقارها للشعب والرأي العام، لأنها تحتال بكافة الوسائل والسبل علي كسب المال، ولما كانت تدرك أن أهم مورد للكسب هو الإعلانات، وأن إقبال المعلنين عليها يزداد كلما ازداد هذا التوزيع ولو بتملق غرائز الجماهير الدنيا وإشباع فضولهم، وهذا ما حاول الغاياتي أن يتجنبه فرفض تسلط البيوت المالية في سويسرا على جريدته، ورفض بعد عودته الإعلان عن الخمور وعن الشركات اليهودية بعد حرب فلسطين وقاطع شركة الكاكولا.

وكانت أكثر إعلاناته عن بنك مصر وشركاته الوطنية، فعل الغاياتي ذلك لأنه يعلم أن هذه الإعلانات وما أشبهها تشغل حيزًا من أنهار الجريدة والقراء في حاجة إليه مما لا يتفق أحيانًا مع الكرامة أو المبدأ أو قد يحول دون المضي في الرأي إلى النهاية، ذلك أنه يؤمن أن صحيفة الرأي "يجب أن تتجرد بقدر المستطاع من كل ما يعوقها إن قليلا أو كثيرا عن أداء رسالتها بحرية وصراحة كاملة"، ولهذا هاجم الغاياتي الصحف التجارية التي تتاجر بحياة الناس وأخلاقهم ولا مبدأ لها ولا خلق يعصمانها من الذل والهوى والاستهتار، هذه الصحف "إنما هي أداة ضارة وحرفة ساقطة يراد من ورائها العيش الرخيص لا أكثر ولا أقل"، ومن العجيب أن هذه الصحف تدعي لنفسها "أنها تمثل أحدث تطورات الفن الصحفي وأنها تقيم هذا الفن على حقائق النفس البشرية وحاجات الجمهور"، لكن الصحافة ليست نجاحًا ماديًا وفنيًا فحسب، إنها أجل وأعظم من ذلك، وإذا لم يقترن "بهذا النجاح المادي نجاحنا الأدبي كان قليل الجدوى إن لم يكن عديم الفائدة المرجوة بالمرة".

ويعلل الغاياتي أسباب انتشار الصحف اللاأخلاقية بما أعقب الحرب العالمية الثانية من فساد خلقي، ثم السياسة الحزبية التي "قضت على نزاهة الأقلام وعفة اللسان وحسن النية والعقيدة"، وأخيرًا تيار الاستهتار بتقاليدنا الفاضلة"، وكان للشباب العليل قصب السبق في مضمار التدهور والانحلال، ومن هذا الشباب من وضعوا بعد ذلك أنفسهم موضع القادة في أقلام التحرير وبين صفوف الكتاب فحاربوا الفضيلة وناصروا الرذيلة بالقصص الرخيصة والصور الخليعة.

وكان الغاياتي يرسل أعداد الصحيفة إلى كثير من المشتركين وتتجمع أموال الاشتراكات عندهم لسنوات عديدة، وربما ضاع أكثرها كما كان يرسلها إلى كثير من الكتاب والأصدقاء، يقول الأستاذ فتحي رضوان "إن الغاياتي كان يوزع على بعض الناس جريدته بغير مقابل تلطفًا منه وخضوعًا لما طبعه الله عليه من حب الأواصر وتألف القلوب ولقد كنت أحد هؤلاء الذين شملهم بفضله".

والغاياتي الصحفي حريص كل الحرص على كرامته الصحيفة، فإذا انهالت عليه الإغراءات وضيقت عليه الأحزاب وانصرف الكثير من القراء إلى الصحف اللاأخلاقية صرخ بأعلى صوته "إننا نريد أن يظل منبر الشرق جريدة حرة مستقلة تدعو إلى الوحدة الوطنية وتنطق بلسان الرأي الحر في البلاد، وأبينا كل فائدة شخصية تعود علينا من غير طريق المصلحة العامة، ولهذا فنحن فقراء وبلا فخر وسنبقى على هذه الحال ما بقيت عقلية الجماهير على ما نسمع من اللهو والعبث وحيث الاستطلاع الفاسد".

أما حرية الصحافة فقد وقف الغاياتي لها قلمه، ويكفي أنه كان أول شاعر يحاكم بمقتضى قانون المطبوعات الذي صادر حرية الأقلام، وفي فصل الغاياتي الشاعر السياسي عرضنا لذلك بالتفصيل. وفي سويسرا أسعد الغاياتي بحرية الصحافة ونعم بما تكفله هذه الحرية من أمن لأصحاب الأقلام، وهذه الحرية هي صمام الأمن بين الحاكم والشعب، وهاجم الحكومات الاستبدادية التي تصادر الأقلام والحريات لأن أية سلطة في العالم "لا تستطيع أن تحول بين الوطني ووطنه إلا إذا استطاعت أن تحول بين المرء وقلبه، ولا يتسنى لها إن حجرت على اليراع أن تحجر على اللسان، وإن حجرت على اللسان أن تحجر على الفكر".

وندد بسياسة تكميم الأفواه والضغط على حرية القلم واللسان لأنها لا تفيد "إلا إثارة الخواطر وتولد الأحقاد وبلوغ سوء الظن مبلغ اليقين وسوء التفاهم مبلغ العداء"، وذلك أن الانفجار ينشأ من الضغط، وتشرق شمس الحرية من سناء العبودية، "ومحال على أية قوة في الأرض أن تحجب نور الحرية المضيء على الأمم وإن غلظت حجب الجور وتراكمت سحب الظلم الغاشمة إن صحت عزيمة تلك الأمم ورسخت عقيدتها في طلب حقها الطبيعي في الحياة، وما الحياة حياة إلا بالحرية والاستقلال".

وهذه الصيحات القوية إلى جانب مهاجمة الغاياتي للملك فؤاد جعلت الحكومة المصرية تصدر قرارها بمنع دخول المنبر لمصر وكذا الصحف السويسرية التي يكتب فيها الغاياتي، ورغم هذا كله ظل الغاياتي يدافع عن حرية الصحافة والصحفيين فحين يقبض على بعض الصحفيين وفيهم الأستاذ أحمد حسين رئيس تحرير الاشتراكية يقف إلى جانبهم، ويتحدث عن محنة الصحافة التي يريدون لها ألا ترى ولا تسمع وإذا رأت سمعت فلا تتكلم بعبارة أو إشارة تدل على أنها تعلم، ومجمل ما يريدون هو تكميم الأفواه وتكسير الأقلام وخنق الحرية"، ويبعث إليهم على صفحات جريدته من سجنه العام إلى سجنهم الخاص بتحية قلبية.

*****

ديوان وطنيتي دراسة فنية

مقدمة

لم يكن الغاياتي شاعرًا كبيرًا من الطبقة الأولى، ولم يكن كما يقول هو عن نفسه "يستطيع أن يسبح في بحار الخيال ويحلق في أجواء المجاز كما يفعل غالبية الشعراء"[1]، ولم يسلك طرقًا عديدة وفريدة في التعبير ويستخدم من الصور غريبها، بل كان ثائرًا وطنيًا ومكافحًا جلدًا عبر ثورته وحبه للوطن بالشعر فالشعر عنده وسيلة لا غاية، سلاح من أسلحة المقاومة وهو من الناحية الفنية لا يقارن مثلًا بشاعر مثل شوقي ولا يرقى إلى سمائه، وإن كان يرتفع عنه في مجال الوطنية سماوات وسماوات.

ولا شك أن لكل شاعر أسلوبه الذي يتميز به ويطبع أشعاره بطابع خاص، ولا شك أن من الصعب على الناقد والدارس تشخيص اللمسة الشخصية لكل شاعر، وكل ما سأحاوله إيراد ملاحظات عامة على ملامح شعره وأبرز الظواهر في أسلوبه في بناء القصائد.

*****

(١) مقدمة وطنيتي.

الملامح العامة لشعر الغاياتي

١) الجهورية في الموسيقى:

فنحن نلاحظ أن الموسيقي في شعره غالبًا موسيقى حماسية ضخمة ذات نغم مرتفع ورنين عالي، وذلك طبيعي فكل قصائده ينتظمها خيط واضح وفكرة واحدة هي حب الوطن، كما أنه لا يكتب شعرًا ذاتيًا مهموسًا، وإنما هو يكتب للجماهير إثارة واستنفارًا، وهذه الموسيقى الضخمة ناشئة من استعماله البحور ذات الأشطر الواضحة المتميزة كالكامل والرمل والبسيط.

٢) السرعة الفنية:

وهو في هذا يشترك مع الشعراء الصعاليك، فالشعر عنده ليس حرفة تقصد لذاتها ويفرغ لتجويدها وتثقيفها وصقلها، وإنما هو فن سريع متدفق ينثال علي أسلة اللسان إذا ما طم حادث أو نزل بلاء بالوطن.

٣) التعبير المباشر الصريح:

فقصائد الديوان كلها تخلو من الرمز وتعتمد علي تصوير المعني تصويرًا مباشرًا واضحًا وبمعان الألفاظ القاموسية، فهو لا يستعمل طاقة الإيحاء الشعري للألفاظ، إلى جانب افتقار شعره لعنصر التصوير وإن كان هذا لا يقلل من جمال شعره، فالعاطفة فيه قوية وصادقة، وحتى القصيدة الرمزية الوحيدة التي أثبتها في آخر الديوان بعنوان مصرع الخائن: نراه يكشف رمزه بتعليق نثري قدم به للقصيدة، يقول "يتخيل الشاعر ما شاء من المعاني والصور، ويخاطب ما الأشياء ابتغاء العظة أو الحكمة أو البحث على فضيلة أو التنفير من رذيلة أو غير ذلك من أغراض الخاطر ومرامي الخيال"، ولا يخفي علي قارئ القصيدة في ذلك العهد أن المقصود بالخائن هو بطرس غالى، وبذلك انتقص الغاياتي من جمالية الرمز.

٤) الروح المصرية وحرارة النضال:

تتجلى الروح المصرية في ألفاظ الغاياتي وأسلوبه وشعره صورة نابضة من مصريته، إنه لا يهدي ديوانه لملك أو أمير، وإنما يقدمه هدية خالصة لوجه الوطن الكريم وأبنائه المخلصين، فقد طغي حب مصر علي كل حب:

إني رأيـــت الهـــوى العـــذري منهزمـــا لمـــا رأيـــت الهـــوى المصـــري محتكمـــا

إنه سيظل بإيمان الثائر وحرارة المناضل:

يشـــــدو لـــــدى ذكـــــر الـــــبلاد بشـــــعره وســـــواه ينشـــــد بالقصـــــائد جاهـــــا

وهذا قلمه وقفه للدفاع عن مصر:

يريـــــد الأعـــــادي مـــــن يراعـــــي مـــــودة ومـــــا وده إلا الجفـــــا والتقـــــاطع
ألا في ســـــبيل النيـــــل مـــــا أنا قائـــــل وفي ذمـــــة الأهـــــرام مـــــا أنا صـــــانع

٥) اتباع النسق العمودي:

إن أساس التشكيل الموسيقي عند الغاياتي هو الإطار الخليلي، معتمدًا علي أسلوب الشطرين والقافية الموحدة، وإن كان قد تخلص من المقدمة الغزلية اللهم إلا في قصيدة واحدة ليست بالديوان أنشأها حين زار مصر بعد غيبة استمرت خمس سنوات يقول في مطلعها:

قســـــــما بقـــــــدك يا فتـــــــاة وإنـــــــه قســـــــم أبـــــــر

واستعمل المقطوعة الثنائية في نشيده الوطني، كما جرب استعمال القافية المتغيرة في قصيدة واحدة، وهي تلك القصيدة التي جعل عنوانها "رب ذكري هيجت شجنًا"، والتي يرثي فيها مصطفى كامل، فقد جعل كما يقول "القصيدة قطعًا، كل قطعة ذات روي خاص، وبذلك تسهل علي الشاعر بعض الصعاب التي يصادفها في سبيل القافية والتزام الروي في جملة القصيدة، وهي طريقة وسطي بين طريقة الشعر المرسل والطريقة القديمة"[١].

وقد تمنى أن يقدم الشعراء علي كتابة أشعارهم بهذه الطريقة "ليكون صغيرهم بعد إحجامه وضعفه شاعرًا مقدامًا قادرًا، ويتسنى لكبيرهم أن يتحدى شعراء أوروبا ويباريهم في الشئون الاجتماعية والعصرية"[٢]، ويقول "ولا أدرى لماذا لا تهذب طرق الشعر العربي حتى يجاري شعراؤنا شعراء الأمم الراقية ولا يكون

(١) وطنيتي، ٦١.

(٢) وطنيتي، ٦٢.

لشكواهم من صعوبة الطريقة القديمة وجه حسن ولا لإحجامهم عن الوطنيات والاجتماعيات عذر مقبول"[١].

ويذكر الغاياتي أنه عرض هذا النمط علي بعض الشعراء ومنهم الشاعر حافظ إبراهيم والشاعر إسماعيل صبري اللذين قابلا التجربة بارتياح وإن لم ينظما علي مثالها.

ومن الناحية النظرية نلاحظ أن الغاياتي قد تنبه إلى أهمية تنوع القافية وما تتيحه للشاعر من إمكانيات كبيرة في خوض تجارب جديدة ولا سيما في الوطنيات والاجتماعات، لكنه في الناحية التطبيقية لم يستفد شيئًا بالمرة، فهي لا تختلف في كثير أو قليل عن كثير من قصائده التي قسمها أيضًا إلى مقطوعات تنظمها قافية واحدة.

وبدراسة هذه القصيدة نجد أنها تنقسم إلى خمس مقطوعات تتألف من سبعه أبيات أي أنه لم يتخلص من عيوب الشكل القديم اتباعًا لاصطلاح العروضيين في تعريفهم للقصيدة، والقصيدة تعبير عن خواطره انتظمتها فكرة واحدة في ذكرى مصطفى كامل وما أثارته من مشاعر الحزن على فقده والأمل في استمرار مبادئه، وعلى كل فإنها تجربه فريدة لم يعد إليها الغاياتي ثانية.

(١) وطنيتي، هامش ٦٢.

الظواهر العامة لأسلوب الغاياتي

١) ظاهرة الموسيقى:

لعل وظيفة الموسيقى الشعرية أنها تمكن ألفاظ الشاعر من تعدي عالم الوعي والوصول بها إلى عالم اللاوعي، ولم تكن ظاهرة الموسيقى في شعر الغاياتي بارزة الوضوح، ولم تكن غالبة في قصائده، كما أنها لم تكن متكاملة، وقد لاحظنا صخبها وارتفاع رنينها، والظواهر الموسيقية في شعر الغاياتي تأتي عفوية، تتمثل في ظاهرة التناغم الصوتي، وتجاوب الكلمات المتجاورة، ومشابهة الحرف للمعنى الغالب على البيت، ثم حسن المناسبة.

٢) ظاهرة التناغم الصوتي:

وهى تنبع من إحساس الشاعر بإيقاع الحروف وتناسبها، وتنشأ من تكرار حرف معين.

أسمعه يقول مخاطبًا مصطفى كامل:

لم تـــــدر مصـــــر ســـــوى حمـــــاك تؤمـــــه فـــــــترى بـــــــه آلامهـــــــا آمـــــــالا

فحرف الميم موجود في ست كلمات من مجموع تسع كلمات، ومثله هذا البيت:

دالـــــــــت الأيام واحتـــــــــل الحمـــــــــى ظـــــــالم عـــــــن ظلـــــــم لم يـــــــنم

ويتكرر حرف اللام في هذا البيت عشر مرات، وفى الكلمة الأخيرة وحدها ثلاث مرات، وفى كلمتين يتردد مضاعفا:

هـــــذى ســـــبيلهما الـــــتي أولتهمـــــو ذل النفـــــــــــوس فســـــــــــالموا الإذلالا

ويبرز حرف الراء في خمس كلمات من سبع:

يا مصـــــــــر يـــــــوم النصـــــــر آت فـــــــــارقبي إشـــــــــراق فجـــــــــر

كما لا يخفى على القارئ ذلك الإيقاع الناشئ عن الجناس من كلمتي مصر ونصر، وهذه الألف اللينة التي تكررت خمس مرات والتي تشبه السكتات الموسيقية في لحن غاضب حين يسخر من بطرس غالي بعد أن صرعته رصاصات إبراهيم الورداني:

مـــــاذا دهـــــى شـــــيخ الـــــوزارة فـــــارتمى فـــــوق الثـــــرى يشـــــكو الـــــردى ويعـــــاني

كما يبرز حرف النون في هذين البيتين:

إن هـــــــذا الغصـــــــن في روض المـــــــنى يـــــــنفح القطـــــــر النـــــــدى والكـــــــرم
فـــــــاهنئي أيتهـــــــا الكنانـــــــة إنى انظـــــــر اليـــــــوم داني الآجـــــــال

كما تشيع موسيقى محببة في هذا البيت الذي يتحدث فيه عن الاحتلال:

يمنينـــا ويلهينـــا ويغرينـــا فنغـــتر

فحرف الراء هنا تكرر خمس مرات في أربع كلمات فقط. وهذا القدر من الاستشهاد يكفي فنحن لا نقصد حصرًا أو إحصاء.

٣) تجاوب الكلمات المتجاورة:

بمعنى اشتراك الكلمات المتجاورة في حرف أو أكثر فيثري بذلك الإيقاع نتيجة لتداخل الموسيقى، وفي الأمثلة السابقة تبرز أيضًا هذه الظاهرة، وفى هذا البيت الذي يتحدث فيه عن برادع الانجليز:

جعلـــــوا المعيـــــة عرضـــــة لســـــهامهم فتقولـــــت رقباؤهـــــا الأقـــــوالا

نلاحظ أن الكلمات الثلاث الأولى في الشطر الأول قد اشتركت في حرف العين، وهو من الحروف الحلقية، واشتركت معها الكلمة الرابعة في حرف الهاء المكرر وهو أيضًا من الحروف الحلقية، كما اشتركت كلمات الشطر الثاني في حرف القاف.

وفى قوله: -

هنـــــاك هنـــــاء النفـــــي في خـــــير عـــــالم فـــــلا هـــــي تخشـــــى ظلمـــــا ولا هضـــــما

يتجاوب حرف الهاء في الكلمتين الأوليتين، كما لا يخفى الجناس بينهما، وفى الشطر الثاني تشترك الكلمتان الأخيرتان في حرف الميم المطلقة.

أما قوله: -

كيـــــــف لم تمهلـــــــه يا مـــــــوت ولم تـــــرع هاتيـــــك العـــــلا والشـــــيما

فنلاحظ اشتراك عبارة (لم تمهله يا موت) في أحرف الميم والتاء واللام، كما اشتركت الكلمتان الأولتان في الشطر الثاني في حرف التاء، ثم هو يكرر حرف الراء على امتداد الشطر الأول، كما يكرر حرف التاء في الشطر الثاني في قوله: -

رأى الـــــدار لا تـــــدري إلى أيـــــن ربهـــــا تـــــولى ولا تـــــدري مـــــتى هـــــو راجـــــع

٤) مشابهه الحروف للمعنى الغالب: -

بمعنى أن الحرف الغالب على البيت يكون منسجما في طبيعة الموسيقى مع المعنى الغالب على البيت: يقول الغاياتي مصورا شقاء المصريين بالاحتلال: -

طـــال ليـــل الـــبلاد والشـــعب ســـار لا يـــرى غـــير هـــذه الظلمـــات

فحرف اللام الذي تكرر سبع مرات، في ثلاث منها محاكاة لطول الليل وامتداده.

وهذه القاف وهى حرف صلد خشن فيه القوة، أسمعه يخاطب مصطفى كامل:

اصـــــدع بقولـــــك إن أردت مقـــــالا فـــــالقوم جنـــــدك إن دعـــــوت رجـــــالا

أو يخاطب الحكومة بعد إصدارها قانون المطبوعات الجائر:

لـــئن قيـــدوا مـــني الـــيراع وأوثقـــوا لســـاني فقلـــــبي كيفمـــــا شـــــئت ينطـــــق

أو:

ســـأطلقه يجـــري بمـــا شـــاء حـــده ومـــن شـــاء فليقطـــع عليـــه مجـــالا

إن القاف هنا تحاكي في خشونتها وقوتها صلصلة السيوف وصرير الرماح.

ثم هذه الشين الباكية تصور ما يعانيه المصريون من شقاء وظلم، وتمنح البيت موسيقى حزينة فيها شكوى:

دار الســـــــعادة هـــــــل أتاك مخـــــــبر يشـــكو لـــديك شـــقاء مصـــر وينشـــر؟

وفى قول الغاياتي مخاطبًا مصطفى كامل:

حســـــدوك إذ أمســـــيت بـــــدرا كـــــاملا مـــــن قبـــــل أن يمســـــي ســـــواك هـــــلالا

نلاحظ أن حرف السين الذي تكرر أربع مرات يعبر عن الحسد بما من همس ووسوسة، ويخاطب روحه بعد وفاته: -

حـــــامي الأوطـــــان روعـــــت الحمـــــى حينمـــــا أمســـــيت عنـــــه محجمـــــا

فحرف الحاء الحلقي الباكي الذي ينتشر إيقاعه على امتداد البيت يحاكى الأسى والحسرة والنحيب، كما يحاكي هنا مقترنا بالهاء -وهو حرف حلقي- أيضا النواح والأنين.

فلتـــــنح مصـــــر وأهلهـــــا علـــــى ذلـــــك المجـــــد الـــــذي قـــــد هـــــدما

ويحكيان هنا الرهق والعناء والنصب:

رب إن الـــــبلاد أرهقهـــــا الظلـــــ ـــــم وحاقـــــت بأهلهـــــا البأســـــاء

٥) حسن المناسبة:

وهي على قلتها تأتي عالية النغم، ومن أمثلتها قوله في دولة الحماية: -

ســـــلبت حـــــق الأهـــــالي وســـــبت حـــــق الحكومـــــة

فالمناسبة ظاهرة بين (سلبت وسبت)، وزاد الموسيقى جمالًا اشتراكها في حروف ثلاثة، وهو ما يسمى بالجناس الناقص، والمناسبة واضحة أيضًا في هذين البيتين:

رب إن الـــــــبلاد أرهقهـــــــا الظلـــــــ ـــــم وحاقـــــت بأهلهـــــا البأســـــاء
رب إن الصـــــــدور حرجهـــــــا الوجـــــــ ـــــــد وأودت بحملهـــــــــا الأرزاء

وهي في الأبيات الثلاثة الآتية أجمل وأوقع:

يقول عن المحتل:

دالـــــــت الايام واحتـــــــل الحمـــــــي ظـــــالم عـــــن ظلمـــــه لم يـــــنم
ناكـــــــث الأيمـــــــان في أيمانـــــــه حانـــــــث لم يحـــــــتفظ بالـــــــذمم
باعـــــث الجهـــــل مميـــــت للحجـــــا خـــــاذل الحـــــق نصـــــير المجـــــرم

٦) الجناس:

إلى جانب التناغم الصوتي، وتجاوب الكلمات المتجاورة، ومشابهة الحرف للمعنى الغالب، وحسن المشابهة، إلى جانب ذلك لجأ الغاياتي إلى استعمال الجناس في إحداث موسيقى داخلية لشعره، ولم يكن يلتمسه التماسًا، لأنه لم يكن شاعر صنعة، وإنما كان يأتيه عفو الخاطر ودون تعمد، والجناس عند الغاياتي يكون في القوافي شأنه في ذلك شأن أصحاب الشعر العمودي.

ويكون ناقصًا في مثل قوله: مخاطبًا السلطان:

فمـــــا للنيـــــل لـــــيس لـــــه نصـــــيب مـــــن الدســـــتور وهـــــو بـــــه قمـــــين!
أيمنعنـــــا بنـــــو التـــــايمز حقـــــا وأنـــــت أمامنـــــا الملـــــك الأمـــــين!

ويكون تامًا في مثل قوله على جنازة مصطفى كامل:

أنظـــــر الـــــنعش وقـــــد حفـــــت بـــــه فتيـــــة العلـــــم وخـــــير العُلمـــــا
وأرى القـــــوم وقـــــد نادى بهـــــم هـــــاتف الوجـــــدان حيـــــوا العلمـــــا

كما يكون الجناس داخل البيت -وهو الغالب- يقول:

رب مـــــاذا يصـــــنع المصـــــري إن جـــــاوز الصـــــبر مـــــدى الصـــــدر فقامـــــا

فالجناس واضح بين الصبر والصدر. ومن الجناس الجميل قوله في دعاة الاحتلال:

حســـبوا الحمـــى عرضـــا مـــن الأعـــراض أو غرضـــا مـــن الأغـــراض أســـوأ حـــالا

فإن بين (عرضًا وغرضًا) ما يسمى بالجناس المصحف.

ونجد عنده ما اصطلح البلاغيون على تسميته بجناس القلب من مثل قوله:

هل (درى الردى) من به ألم

أو قوله:

(مشـــــهد أدهـــــش) مـــــن أبصـــــره ســـــار أهـــــل الأرض فيـــــه والســـــما

وهناك ما يسمى بجناس الاشتقاق كما يظهر في قوله:

(يا خطيبا خطبه) هد القوى

أو قوله:

(ويجـــــير) الـــــبلاد مـــــن نكبـــــات (ويجـــــر) العـــــدا إلى نكبـــــات

وأيضًا قوله:

كفكفـــــي يا مصـــــر دمـــــع الوجـــــل وارتقـــــب (يا نيـــــل نيـــــل) الأمـــــل

ثم هذا الجناس التام البارع:

هـــــل تـــــرى مـــــال الكنـــــود مضـــــى ولـــــه في ســـــربه ســـــرب

فالأولى بمعنى النفس والثانية بمعنى السرداب.

٧) البديع:

أما الألوان البديعية في شعر الغاياتي فهي نادرة، لا يتعمد الشاعر اصطيادها، وقد أشرنا إلى الجناس وهو لون بديعي له أثر في إحداث الموسيقى الداخلية للأبيات، ونشير إلى لون بديعي آخر وهو **الطباق**، يقول مخاطبا الشيخ جاويش حين صدر الحكم عليه بالسجن:

(فعبســـــــت عنـــــــد قضـــــائهم ودخلـــــــت ســـــــجنك تبســـــــم)

أو قوله في السلطان عبد الحميد بعد ثورة الأحرار الدستوريين:

وأبصـــــــر المنـــــــون بـــــــه محـــــــدقا مـــــــن بـــــــره يســـــــعى ومـــــــن بحـــــــره
فهـــــان مـــــا أكـــــبر مـــــن عـــــزه وذل مـــــا أكثـــــر مـــــن كـــــبره

وقوله في قصيدة هجرتي -وهى ليست بالديوان-:

بلـــوت الليـــالي وهـــى ســـود عـــوابس وعـــدت فعـــادت وهـــى بـــيض نواصـــع

ثم مقابلتان في بيت واحد:

ونشـــــرت النـــــور والعـــــدل وقـــــد كـــــان بيننـــــا الظلـــــم يعلـــــو الظلمـــــا

كما لا يخفى ما في البيت من جناس والاشتقاق بين كلمتي: الظلم- الظلما.

٨) **الصورة الشعرية:**

صور الغاياتي في شعره نادرة وأكاد أقول معدمة، على أن فقدان الصور عنده لا يفقد شعره جماله وأصالته، فجمال الشعر لا يكون دائما بالمجاز والتصوير وحدهما، وإنما جماله في نفاذه إلى النفس وتأثيره فيها.

والصورة عند الغاياتي بسيطة العناصر يسيرة التركيب والخيال، فيها خيال بصري، يقول عند داره التي تركها قبل فراره إلى تركيا:

وقـــــد صـــــمتت والوجـــــد في صـــــفحاتها يســـــطر مـــــا تملـــــي عليـــــه المضـــــاجع

أو يقول مفتخرًا بنفسه:

فكـــم هـــب مـــن بـــين الشـــعوب مناضـــل لـــــه همـــــة تـــــردي الـــــردى إذ تصـــــارع

وجمال الصورة هنا نابع من تشخيصه للوجد والمضجع بإنسان يملي وآخر يكتب، كما صور الهمة إنسانا يصارع ويجالد الموت.

مآخذ على شعر الغاياتي

رأينا أن شعر الغاياتي -وهو في جمعيه شعر وطني سياسي- يمتاز عن شعر كثير من معاصريه بالبساطة والبعد عن الزخرف واستعمال الأسلوب المباشر، ولكنه إلى جانب ذلك وقع في مأخذين هما: استعماله الكلمات القاموسية، والنثرية.

أولًا- الكلمات القاموسية:

لا شك أن من أعظم حسنات الغاياتي أنه يستعمل الأسلوب العصري البسيط، حتى لتقترب لغته من لغة الحديث، وهذا طبيعي في شعر يخاطب الجماهير ويدفعها إلى الثورة. ولهذا نجد عنده اصعادًا في حزن الكلام وتنكبًا لسهله، وقلما يستعمل كلمات غريبة تحتاج إلى فهم معناها لتصفح قواميس اللغة مما يفقد الكلمة كثيرا من ظلالها وإيحائها.

يقول الغاياتي:

وانجلـــــــــــــــت في منازلنـــــــــــــــا فـــــــانجلى عنـــــــا بهـــــــا الغهـــــــب

فكلمة-غهب- بمعنى الغفلة وهى كلمة غير مستعملة.

أو يقول:

فـــــــأدرك مـــــــا يرجيـــــــه وأجلـــــــي أعـــــــاديكم بجاليـــــــه الســـــــطام

فالسطام من أسماء السيف، وهى غريبة على سمع القارئ الحديث.

ويخفف من هذا المأخذ أن مثل هذه الكلمات الغريبة قليلة ونادرة، ولا تتعدى هذين المثالين اللذين أوردناهما، كما أنها لا تأتي في غير قافية، مما يدل على أنه وقع فيهما مضطرا، وبالإضافة إلى هذا فقد نبه إلى معانيها في حواشي الديوان.

ثانيا- النثرية:

وهذا العيب يقع فيع كثير من الشعراء- وهى عند الغاياتي قليلة- من مثل قوله على لسان الخديوي:

أنا العبـــــــاس لي في ملـــــــك مصـــــــر مقـــــام دونـــــه ملـــــك العزيـــــز
فمـــــالي لا أجيـــــب نـــــداء شـــــعبي وشـــــعبي خـــــير حـــــرز لي حريـــــز
ألا أنى ســـــــــــأمنحه منـــــــــــاه مـــــن الدســـــتور رغـــــم الانجليـــــز

أو يقول عن مصطفى كامل:

وإذا أبـــــــديت رأينـــــــا بينـــــــها كـــــــان رأيا فيهـــــــا محترمـــــــا

أو في حديثه إلى النواب حين امتنعوا عن حضور مجلس الشورى:

عـــــــودوا وحســـــــبكم انتصـــــــارا أن عبـــــد العـــــال يخـــــدمكم بـــــلا أتعـــــاب
ولـــــديكم فهمـــــي ومـــــن باراه مـــــن نـــــوابكم متعـــــددي الألقـــــاب

*****

ملامح الصورة

في الفصول السابقة عرضنا للغاياتي شاعرًا وصحفيًا، ونريد في هذا الفصل أن نستكمل ملامح الصورة، فنعرض لشخصية الغاياتي، أي لصورته الخلقية والنفسية، ثم نعرض للغاياتي الرجل والإنسان زوجًا وأبًا، وذلك مما استطعنا الاطلاع عليه من مذكراته الشخصية، أو من حديث أسرته وتلاميذه ومعاصريه عنه.

أما صورته، فكان كما يصفه الشاعر محمود رمزي نظيم:

حيـــــاء وفضـــــل يـــــزين التقـــــى وقلـــــب حكـــــيم ووجـــــه ســـــني

كان ذا قوام فارع معتدل، ووجه أسمر باش حتى في أحلك الأوقات، كثيرا ما تعتريه حمرة خجل إذا امتُدح، وقلما تشوبه حمرة غضب إذا انفعل، أول ما يلفتك إليه عينيان نافذتان وادعتان فيهما معنى الوداعة والرقة، وفيهما عزم المناضلين، وجبهة عالية مضيئة وإن كانت كثيرة اللصوق بالأرض تعبدًا وابتهالًا، ولحية بيضاء كثة وطويلة.

وهو إذا مشى فخفيفًا يكاد يمس الأرض مسًا، وإذا تحدثت إليه للمرة الأولى خُيل إليك أنك تحادث صديقًا قديمًا وخلًا حميمًا، يجذبك إليه صوت عذب فيه رنة خشوع وعليه مسحة من حياء، وتدهشك فيه حفاوة بالغة وترحاب حار.

أما ملابسه، فهي الثياب الأزهرية في مقتبل العمر وأول الشباب حين كان يتلقى العلم في دمياط ويناضل في القاهرة، حتى إذا هاجر إلى تركيا لم يغير منها شيئًا، اللهم إلا بعض تعديل بسيط في طربوش العمامة لتناسب العمامة التركية.

أما في جنيف فكان يرتدي الملابس الإفرنجية والقبعة، فلما عاد إلى أرض الوطن ظل يرتدي ملابسه الافرنجية مع استبدال القبعة بالطربوش، ولم تنسه هذه السنوات الطوال في صحبة القبعة والطربوش عمامته الأولى وحنينه أبدًا لأول منزل وأول عهد بالصبا وطلب العلم في دمياط أن يعود إلى عمامته التي احتفظ بطربوشها أكثر من أربعين عامًا.

وأما شخصيته، فشخصية المؤمن بالله وبالوطن، المدافع عن الحرية، على حظ وافر من بلاغة اللسان وعفته ونضوج لاعقل وحدته، ودقة الحس ورقته، وكرم الطبع وسماحته، دؤوبًا على المكارم، صبورًا على المكاره.

كان رقيق النفس مرهف الشعور، يحب الورود ويعشق الموسيقى، وكانت أحب الورود إليه الحمراء الكبيرة، كما غلب حبه للياسمين على تسميته لحفيدته كريمة الأستاذ محمد علي ناصف.

وكان رغم احتياجه الشديد في بلاد الغربة يحرص على شراء اسطوانات الموسيقى والغناء تحمل إليه رائحة الوطن ولغة مواطنيه، وكانت أحب الأصوات إليه صوت الشيخ محمد رفعت وعبد الوهاب وأم كلثوم، وقد كان لا يملك دموعه عند سماعه للموسيقى حين كان يجلس للاستماع إليها في قاعة كونسرفتوار جنيف، بل هو يحضر لبناته من يعطيهن دروسًا في الموسيقى، وقد تخرج اثنتان من بناته من المعهد القومي السويسري للموسيقى ومدة الدراسة فيه أحد عشر عامًا، ونالتا جائزة العزف على البيانو فيه، كما عملت إحدى بناته في فرقة كورال القاهرة السيمفوني.

وتفوق نجله الأكبر في فن الرسم ونال فيه جوائز عديدة، وقد عُين لدى عودته إلى مصر مدرسًا بكلية الفنون الجميلة.

وكان صاحب نفس معذبة تتألم لمصائب الغير، فكان على ضيق ذات يده يمد يد المساعدة لأرباب الحاجات، وقد عثرت في أوراقه الخاصة -التي أطلعتني عليها أسرته- على كثير من الرسائل بعث بها أصحابها طلبًا لمعونة بسبب العجز أو البطالة أو المرض أو الدين.

ولم يكن عطفه وقفًا على الإنسان، بل كان يحب الطير والحيوان لاسيما القطط والحمام، وكان يعنى بتربيتهما أشد العناية، فيكتب في مذكرة الجيب مواعيد فقس البيض!

واختفى سنوره (زوزو) مرة فسجل ذلك في مذكراته، فلما مات رثاه بقصيدة جعل عنوانها (مصرع السنور)، يقول مخاطبا إياه كصديق عزيز:

سنوري –زوزو– سنوري ... هل تدري خطبك هل تدري؟
فاجأت حماك بمأساة ... والليل بموكبه يسري
وسقطت صريعا منفردا ... بيد الأقدار أو الغدر
يا ليتني كنت بمقربة ... عليّ لأحميه من الشر
قضينا عاما في مرح ... والدهر بما يجري يجري
ألقاك وتلقاني فرحا ... بالكر أمامي والقر
وتداعبني حتى أنسى ... بك حينا أشجان العمر

واليـــــــــوم تغـــــــــادرني وحـــــــــدي أرقـــــــــب كـــــــــل غـــــــــد دوري

وهو في البيت الثالث يشير إلى اعتقاده أن شخصًا ما قد دس للسنور في طعامه شيئًا.

وكانت فيه إلى جانب هذه الرقة والدماثة والوداعة أنفة واعتزاز وكبرياء، فظاهره هادئ وادع وباطنه ثائر متمرد.

وكان الغاياتي مقلًا في كلامه وصداقاته خصوصًا في أواخر حياته لدرجة أنه لم يكن يغادر مكتب الجريدة إلا إلى منزله المجاور، وكان يعرف أخبار العالم حوله –وهو الصحفي- من أصدقائه بالتليفون.

وكان النظام رائده في كل شيء، في عمله ووقته وحتى في ترتيب حاجاته الشخصية.

وكان مثالًا للنظافة: نظافة اللسان والتفكير، ونظافته الشخصية، وقد شاهدت طرابيش عمامته التي كان يلبسها في مطلع القرن العشرين وأشهد أنها بقيت كما هي جدة ونظافة.

وكان الغاياتي صبورًا على أحداث الدهر وتقلبات الزمان وطبائع الناس، متوكلًا على الله أبدًا، يدع الأمور تجري في أعنتها مردداً كلما عبس الزمان قول الشاعر:

لا تـــــــــدبر لـــــــــك أمـــــــــرا فـــــــــأولو التـــــــــدبير هلكـــــــــى
فـــــــــوض الأمـــــــــر إلينـــــــــا نحـــــــــن أولى بـــــــــك منكـــــــــا

وكان يحلو له أن يردد كلما حز به أمر أو أصابه مكروه[1]:

دع المقـــــــــادير تجـــــــــري في أعنتهـــــــــا ولا تبيـــــــــتن إلا خـــــــــالي البـــــــــال
مـــــــا بـــــــين طرفـــــــة عـــــــين وانتباهتهـــــــا يغـــــــير الله مـــــــن حـــــــال إلى حـــــــال

ويتلو قول الله تعالى ﴿إن مع العسر يسرا ۝ إن مع العسر يسرا﴾.

ومن مظاهر هذا التوكل عنده: معجزة صدور منبر الشرق، فقد كانت تعصف به الأزمات ويضرب العمال لأنهم لم يتقاضوا أجر أسبوع مضى ولا يجد ما يشتري به الورق، وقبل موعد صدور الجريدة

(١) منبر الشرق، ٢٣٠.

بساعات يدق جرس التليفون معلنًا موافقة تاجر الورق على تأجيل الدين، أو يتسلم حوالة من أحد مراسليه في الأقاليم، بل كانت تمر عليه أيام لا يجد في جيبه قرشًا واحدًا فيستنجد بالله، فيصله أحد الاشتراكات المتأخرة.

وكان الغاياتي يقدس الرأي وإن اختلف مع رأيه ما دام لا يمس معتقده الديني وعقيدته الوطنية، بل ولا يكابر في اعتناق الرأي المخالف متى ظهرت صحته، فهو في مسألة القتل السياسي كان من المدافعين عنه المتحمسين له في مطلع شبابه وهو الذي أقام تماثيل إعجاب بالشاب الهندي دنجرا قاتل اللورد كرزون، والورداني قاتل بطرس غالي، فإذا انتد به العمر ورأى ما يحدثه هذا القتل من فوضى إلى جانب كونه لا يأتي بالثمار المرجوة نراه يعارضه أشد المعارضة ويحمل عليه الحملة إثر الحملة.

ومهما اختلف مع الرجال في مذاهبهم واتجاهاتهم فهو يعرف أقدارهم وينس إساءاتهم، فهذا الشيخ علي يوسف الذي ختم حياته السياسية بممالأة الخديوي ومهادنة الإنجليز والذي أغرى السلطات بديوان الغاياتي: نجد الغاياتي لا ينس فضله وفضل صحيفته عليه وعلى الفكر والأدب ويعترف له بأنه "منشئ مدرسة السياسيين الأولى على ضفاف وادي النيل بقلمه وأقلام كبار الكتاب في صحيفته على مدى ربع قرن من الزمان"[1].

يقول في رثائه:

ومـــــن يكـــــن كعلـــــي في مكانتـــــه ... وكـــــان تاريخـــــه في قومـــــه فخـــــرا
ومـــــن كـــــان ذا أثـــــر مثـــــل –المؤيـــــد– في ... مصـــــر هـــــداها وكانـــــت قبلـــــه حـــــيرى
وكـــــان للـــــدين والـــــدنيا إذا نزلـــــت ... بنـــــا الخطـــــوب حســـــاما حـــــالف النصـــــرا
بكيتـــــه وبكـــــاه كـــــل ذي أدب ... فمثلـــــه ببكـــــا أمثالنـــــا أحـــــرى

وهذا الشاعر إمام العبد يهدر دم الغاياتي بعد فراره إلى تركيا، فلما جاءه نبأ موته بجنيف رثاه بقوله:

أرثـــي إمامـــا وأعفـــو عـــن إســـاءته ... وأنـــدب البـــؤس فيـــه نـــدب مبتـــئس
مـــا كـــدت ألمـــح في ليلائـــه غســـقا ... حـــتى رأيـــت نـــذير الفجـــر في الغلـــس
يا أســـود النـــاس وجهـــا بـــين أظهـــرنا ... قـــد كنـــت في شـــقة العليـــاء كـــاللعس

(١) منير الشرق، ٢٧٦.

تركـــت بـــيض أيامنـــا وهـــي باكيـــة لم يبـــق فيهـــا وجيـــب الـــنفس مـــن نفـــس

ونسى الناس إمامًا ولم يعد يذكره أحد إلا الغاياتي الذي أفرد له في كل عدد من جريدته مكانًا ينشر فيه بعضا من شعره إحياءً لذكراه في قلوب الناس.

وكان الغاياتي يفضل الأطعمة المصرية على أطعمة سويسرا الدسمة الشهية، فكان يبعث إلى بعض أصدقائه بمصر يسأل عن طريقة طهو بعض الأطعمة، وقد حدث ذات مرة أن أراد طهو نبات الملوخية، فأحضر عدة رؤوس من الثوم –كما فهم من الخطاب المرسل إليه- لا عدة فصوص، وقشرها ووضعها في المقلاة، حتى ملأت الرائحة الشارع وزكمت الأنوف، وأطل الجيران من النوافذ، باحثين عن مصدر هذه الرائحة، ثم علموا أنها آتية من مسكن المصريين.

أما عن تدينه، فقد كان أمة وحده في دينه: يرى أن الدين ضرورة اجتماعية، ومادام الدين قد وجد قبل الأوطان، فهو يسمو على المصلحة الوطنية، وإن كان لا يتعارض معها بل يحض عليها ويؤيدها[1].

وقد صدر ديوانه بمقدمة جاء فيها "لا ريب أن أنجع دواء لمصر وهي خير البلاد الإسلامية إنما هو إحياء معالم الدين الإسلامي بين ربوعها وإقامة شعائره في ديارها"[2]. ولا يذهب مذهب الذين يريدون فصل الدين عن الدولة، حتى ليفرد في جريدته بابًا خاصًا جعل عنوانه (الإسلام دين ودولة)، ولم يكن يرى كمسلم فوق العقيدة شيئًا آخر، فهي ملاذ المسلمين في جميع بقاع الأرض، ولم يكن يرى حياته وقلمه وجريدته إلا لخدمة الإسلام والمسلمين، ومن هنا كانت دعوته الحارة إلى الجامعة الإسلامية.

وإيمان الغاياتي بالله من أبرز صفاته إلى جانب الزهد ونكران الذات والتجرد عن الأغراض، ومن أجل ذلك عاش في كد ومسغبة وإن ظل غنيًا بالإيمان عامر النفس بالعقيدة، وإيمانه ليس عن وراثة فقط بل عن تأمل وتفكير كذلك، فهو من سلالة الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ تمتد سلسلة نسبه من جهة أبيه إلى بيت النبوة، وكانت آخر قصيدة له في مدح الرسول نظمها أثناء زيارته لقبره في المدينة، كما كان أبواه متدينين يحرصان على الصلاة وتلاوة الأوراد، وقد ظل حرصه على أداء الفروض في أوقاتها يرافقه حتى في أحرج ظروف العمل، فهو يصحو مع الفجر ليؤدي الصلاة ويبتهل إلى الله، وهو دائم التلاوة للقرآن الكريم تعبدًا واهتداءً، ويكثر من ذكر الموت، ويحقر من شأن الدنيا، ويحرص على الحج والزيارة حتى إذا لم تساعده

(١) منبر الشرق، ١ وجريدة السياسة ٢-٤-١٩٣٨.

(٢) مقدمة وطنيتي، ص ٥.

صحته، وقد عاد في المرات الثلاث الأخيرة من زيارة الأراضي المقدسة وقد أصيب بالحمى أو التسمم ومع ذلك فهو يعاود الزيارة، وهو يربي أولاده –رغم البيئة المتحررة التي عاش وسط أعاصيرها- تربية دينية كاملة ويؤدي معهم شعائر الدين صلاة وصومًا وحسن معاملة، فكان بيته أشبه بجزيرة منعزلة دينيا، وقد عاش كل يوم من أيام حياته كأنه سيموت غدًا، عقيدة المؤمن الصادق، وبصبر المؤمن تحمل فجيعة فقده لابنه الوحيد الذي كان أستاذا بكلية الفنون الجميلة، ويحج عنه في العام التالي، وكان يكثر من ذكر الموت، وهو الذي يقول ولم يكن قد بلغ الرابعة والعشرين:

ولـــو كـــان نحـــبي في يـــدي لقضـــيته وغـــادرت عيشـــا فيـــه أمـــري مشـــتت

ومن هنا كان اهتمامه بالقبر وزيارته والعناية بأزهاره وصباره.

ولم تستطع أحداث الدهر وصروفه أن تغير من عقيدته أو تجعله يجاري العصر ويساير التقدم، بل على العكس كلما طغى تيار الانحلال في المجتمع ازداد هو تحفظًا وجمودًا وغلوًا حتى ليفخر بأنه رجعي. ويخصص في منبره باب يذيله بتوقيع (رجعي) ينشر فيه مقتطفات من المباذل التي تنشرها الصحف الرخيصة. وفي الوقت الذي اختفت فيه اللحى من وجوه العلماء تمشيًا مع العصر، إذا به يطلق لحيته كما جاء في السنة، ونشر صورته باللحية في الجريدة ليراها القراء والأصدقاء ويعرفها القلم السياسي إن شاء[1].

ويعود أيضًا إلى لبس العمامة فيكون كما يقول فضيلة المفتي الشيخ حسنين محمد مخلوف:

"ثالث ثلاثة من رجال الصحافة في الإعلام الذين يفتخر بهم الشيوخ وتفخر بهم مصر والشرق والإسلام"[2]، والآخران هما الشيخ علي يوسف والشيخ عبد العزيز جاويش. ويستقبله صديقه الشاعر محمود رمزي نظيم:

مبـــــــارك عـــــــودة العمامـــــــة تتـــــــوج الفضـــــــل والكرامـــــــة[3]

ويحاول توفيق دوس المحامي –في القضية التي نعرض لها بعد قليل- التعريض بالغاياتي وجعل يدعوه متهكمًا مرة بعد مرة بالشيخ، فأجاب الشيخ وأجاب محاميه الكريم الأستاذ فتحي رضوان بأن هذا اللقب من

(١) منير الشرق، ٥٢٤.

(٢) منير الشرق، ٦٤٤.

(٣) منير الشرق، ٦٤٥.

أحب الألقاب إليه، ونشر في نفس العدد من المنبر صورتين له بملابس الشيوخ، ويذكر أنه حين وفد إلى جنيف كان يفخر بأنه يذيل كتاباته في صحفها بلقب الشيخ... هو إذن شيخ تعمم أو تطربش أو تقبع.. توقيع الشيخ علي الغاياتي.

وعندما أصبح الاختلاط شعار العصر وقضي على الحجاب، إذا به يطلب من زوجته الفرنسية أن تحتجب عن مقابلة زواره وأن تنتقب، فإذا وجدت حرجًا من ذلك وصعوبة تزوج سيدة مصرية مسلمة وجد فيها كثيرًا من صفات أمه المتدينة: يقومان معًا فجرًا للصلاة والقراءة ويقرآن الأوردة والأدعية ويحجان معًا.

ولعل أبرز ما يوضح هذه النزعة الدينية عند الغاياتي ذلك الكتيب الصغير الذي أصدره عام ١٩٠٨، وهو مازال بعد في الرابعة والعشرين بعنوان (فتنة دمياط)، والذي دافع فيه عن العقيدة الإسلامية وبرأها من التعصب والجمود.

ولم يكن يشوب تدينه هذا تعصب أو ضيق أفق، فقد أعجب وهو الشيخ الأزهري بشبلي شميل المفكر المادي الذي ترجم كتاب المادية العلمية لبوخز. ولم يبهره الغرب بأضوائه وتقاليده، ولم تحل مدنيته البراقة دون مداومته لفروض الدين.

أما عن رجولته، فقد كان رجلًا كاملاً حقًا وفاضلًا حسب تعريف برنارد شو للرجل الفاضل بأنه "هو الذي يعطي الحياة أكثر مما يأخذ منها".

والكلام عن الغاياتي الرجل يسوقنا إلى الكلام عن مواقف رائعة في حياة الغاياتي نستبين منها كمال رجولته وعظمتها، وقد كان مؤمنًا برجولته التي لا يغرها وعد ولا يخيفها وعيد، معتمدًا على نفسه يمضي في الأمر بوحي من عقله وضميره وفؤاده، وهو لا يفرط في رجولته مهما كانت الظروف ومهما كانت الأسباب، ولم تجرح رجولته في موطن من المواطن.

وكان عصاميًا لا يقبل مساعدة، وكانت عليه مبالغ كثيرة، وكثيرًا ما حجز على منقولاته، وكان قوام طعام الأسرة في أغلب الأحيان بعد حضوره إلى مصر ببضعة شهور فقط الفول والطعمية، بل قوام مائدة الضيافة لأصدقائه المقربين، يقول الأستاذ أحمد حسين أنه دعي "يومًا لتناول الغداء على مائدته وكانت أروع مأدبة يمكن أن يدعى لها إنسان في مصر، وإني لأسجلها للتاريخ فقد كانت مأدبة تتألف من الطعمية والفول

والسلطة لأن هذا أعظم ما يستطيع الغاياتي أن يقدمه في ذلك الوقت"[1]. وكان يحرص على اجتماع أزواج بناته يوم الخميس من كل أسبوع ويقدم لهم على مائدته أبسط الأطعمة.

وكان لا يعرف لينًا في الحق ولا هوادة، فهو يهاجم السراي ممثلة في الملك –رأس الفساد-، ويهاجم الحكومات ويهاجم بلجيكا ويرد لها وسامها من درجة فارس حين يعارض مندوبها في الأمم المتحدة حق مصر في الاستقلال في نوفمبر ١٩٤٤، وحين يرشح نفسه في الانتخابات عن قسم عابدين الذي شهد مولد "وطنيتي"، وتبدأ الحكومة في مضايقته ينسحب من المعركة ويكشف زيف الانتخابات وشراء الأصوات، ويهاجم محمد محمود خليل رئيس مجلس الشيوخ حين أعلن عن عزمه إهداء تحفه الفنية لفرنسا، فلما أقام عليه جنحة مباشرة، رد الغاياتي على صفحات جريدته... "إن هذه القضية ستكون فرصة لكشف رئيس مجلس الشيوخ الذي يمثل الأمة أو يمثل بها"[2].

ويهاجم الذين يتزوجون بالأجنبيات –وهو منهم- ارتفاعًا بالمبدأ فوق الظروف الشخصية، ومعظمهم أصدقاؤه كويصا واصف وعلي الشمسي، بل يهاجم الشيخ مصطفى المراغي شيخ الجامع الأزهر لحضوره حفلًا ضم سيدات متبرجات بالرغم من عمل زوج ابنته الدكتور محمد البهي تحت رياسته، كما هاجم الجامعة العربية ممثلة في أمينها العام –الأستاذ عبد الرحمن عزام- لفشلها في حل المشكلة الفلسطينية دون أن يفكر فيما يمكن أن يحدث لزوج ابنته الدكتور مختار الوكيل.

وكان في الغاياتي تواضع العارفين، يشيد السيد مبشر الطرازي –رئيس الجالية التركستانية بمصر- بانتسابه لآل البيت، فيعقب الغاياتي بأنه "ليس بشيء يذكر بجانب السلف الصالح الذين أرادوا مقارنتنا بهم ونحن في الحقيقة لا نساوي قلامة ظفر منهم، وكل ما يجمعنا بالحسن بن علي سبط الرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم هو أننا من نسله"[3].

(١) أحمد حسين، فجر الثورة، ص ٩/٨.

(٢) منير الشرق، ٤٣١.

(٣) منير الشرق، ٦٤٣.

ويكتب الأستاذ أحمد الشرباصي –الدكتور فيما بعد- مقالًا يتحدث فيه عن كفاح الغاياتي ويعترف له بتلمذته على كتاباته، فيرد عليه "بأن خياله الفتي هو الذي صوره له بهذه العظمة وأنه قد جعل الحبة قبة ثم حسب ما تحت القبة شيخًا... ويطلب منه ألا يعود إلى مثل هذا الإطراء ثانية"[١].

وهو إذا كان قد نادى جهده بإلغاء الرتب والألقاب فقد كان يكره أن يدعوه الناس بها، فإذا فشل في إقناعهم بالعدول عن ذلك كتب لهم على صفحات جريدته مناشدًا إياهم أن يدعوه باسمه مجردًا فإن "أكرمكم عند الله أتقاكم"[٢]، ويعود في ثانية ملمحًا أن في لقب الشيخ أو الأخ زيادة لمتزيد[٣].

أما الحديث عن الغاياتي الزوج، وهو ما يضطرنا إلى العودة سنوات طويلة إلى الوراء في نهاية العقد الأول من القرن العشرين، حين فرَّ الغاياتي إلى سويسرا، ففجأة يجد الشاب الأزهري الدمياطي نفسه وسط بيئة تغاير بيئته كل المغايرة: عقيدة وتفكيرا، وتخالفها أشد المخالفة: عادات وتقاليدا، ويقضي شهورا متنقلا بين (بنسيونات) جنيف فلا يستقر به الحال، حتى إذا ضمن دخلًا ثابتًا أو شبه ثابت صرف تفكيره كله إلى الزواج يعصمه من الزلل ويوفر له طمأنينة النفس وراحة الجسد، وتحدث الغاياتي مع صديقه أنور العطار الذي وفد إلى جنيف لمواصلة دراسته والذي كان قد خطب لنفسه فتاة سويسرية تحدث إليه برغبته في الزواج، فدلته الخطيبة على فتاة فرنسية بنى بها الغاياتي.

وفي حفل بسيط عقد القران وشهد العقد صديقه العطار وصديق آخر هو الاستاذ خليل مدكور الذي عمل مدرسًا للغة الفرنسية بالأزهر.

يكتب توفيق الحكيم عن أثر المرأة في أدبائنا المعاصرين "فما من أديب أو فنان عاش كل حياته وأنتج كل عمله بعيدًا عن امراة أو شبح امرأة أو ذكرى امرأة"[٤]، وإذا كانت المرأة على هامش حياة العقاد، وأمًا وزوجة عند طه حسين، فقد كانت أمًا وزوجة وصديقة وزميلة للغاياتي؛ فقد عاشت معه قرابة الأربعين عامًا تشاركه كفاحه وفكره وهموم الحياة وأعباءها، تعطي دروسًا للأطفال لتساعد في تكاليف المعيشة، وتعلمه

(١) منير الشرق، ٩٦.

(٢) منير الشرق، ٣٨٨.

(٣) منير الشرق، ٦٢٨.

(٤) مجلة الثقافة، العدد ١٥، السنة الأولى، ١١-٤-١٩٣٩.

الفرنسية وتسهر معه الليالي الطويلة في تحرير جريدته وتحبيرها، بل وترضى وهي المرأة الفرنسية المثقفة أن تنجب له مثل هذا العدد من الأبناء.

وقد عرف الغاياتي الحياة الأسرية ورأى لمسات الزوجة في كثير من مظاهر حياته، وانقطع عن مواصلة دراسته في جامعة جنيف ليهتم بأسرته الجديدة. وقد كان الغاياتي مثالًا ممتازًا لحنان الأبوة وحدبها، تذكر بناته أنه حين أنجب ابنه البكر (محمد) كان يضعه في عربة الأطفال ويقطع به شوارع جنيف ساعات طويلة –رغم ضيق وقته- حتى إذا كان صبيًا كان يقضي معه ومع بناته أوقاتًا طويلة يداعبهم ويلاطفهم ويلبس ابنه ملابسه الأزهرية التي ظل محتفظًا بها أو ملابسه الإفرنجية، شاعرًا بسعادة فائقة تغمره فالأبناء عنده هم "هدية الرحمن وسنة الخليقة وزينة الحياة، وإن أسرة لا تسمع فيها صيحة مولود ولا ترى ابتسامة طفل لهي أشبه بالليلة المظلمة والأرض المجدبة لن يغمرها نور ولن تورق فيها شجرة"[1].

ومن مظاهر بر الغاياتي بأولاده تسجيله أعياد ميلادهم بعديد من الصور التذكارية وهو لا يترك ذكرى لعيد ميلاد إلا ويقيم حفلًا بسيطًا في طابعه ولكنه كبير في معناه وفي نفوس أبنائه، حتى ابنته ثريا التي توفيت عن تسعة شهور لم يكن ينساها فيزور قبرها في جنيف وينظفه من الحشائش ويلتقط من المقبرة زهرة يحتفظ بها في حافظته، ويبكي حفيده زياد –نجل الدكتور مصطفى الحفناوي- على صفحات جريدته.

وقد غرس الغاياتي فضائله في نفوس أبنائه حتى زكا الزرع وكانت مصر العزيزة لا تغيب عن باله فراح ينشئ أبناءه على حبها ويغرس في نفوسهم تقديسها ويخترع لهم شخصية –بابا العربي- الذي يأتي ليلًا ليضع تحت وسائدهم –إذا أخلصوا الحب للوطن- النقود والحلوى، ويحرص الغاياتي على تعليمهم فروض الدين ويربيهم على كمال الأخلاق، وكان من أهم أسباب عودته لمصر رغبته في تزويج بناته من مصريين مسلمين.

وكان بيت الغاياتي على بساطته أنيقًا منسقًا يضفي عليه بخيال الفنان لمسات من الجمال وينسق الشرفة ويجملها بالزهور التي يتعهدها بنفسه رعاية وسقيًا، وقد كان يفوز كل عام بجائزة أجمل شرفة في المسابقة التي تجريها بلدية جنيف، وكان يهدف إلى جانب الاستمتاع بجمال الأزهار –كما ذكرت لي بناته- أن تكون سترًا لهن عن العيون.

(١) منير الشرق، ٢٨٤.

وإذا كان بيت سعد زغلول في مصر هو بيت الأمة المصرية، فقد كان بيت الغاياتي في جنيف هو بيت الأمة العربية بل بيت الشرقيين جميعًا يستضيف فيه كل عربي ومصري ومناضل ويتناجى فيه الأحرار جميعًا بصرف النظر عن ميولهم الحزبية أو عقائدهم الاجتماعية أو معتقداتهم الدينية.

والغاياتي يرى أن المجتمع لن يصلح إلا بصلاح خلاياه الصغرى أولًا وعماد الخلية هي الزوجة وعليه فإنه يجب التدقيق في اختيارها كما أوصى الرسول صلى الله عليه وسلم، وهو ينادي بأن تكون شريكة العمر متفقة مع الزوج في عقيدته وعاداته، والمرأة الصالحة عنده هي "من صلح دينها، وصلاح الدين يشمل صلاح الأحوال كلها وفقا لتعاليم الدين، فالفتاة أو السيدة التي تقر في بيتها وتؤدي فروضها –ومنها طاعة الزوج- فيما يرضي الله، والتي تقنع بما في يدها ولا تتطلع إلى ما في أيدي الناس والتي لا تكون المادة أو الشهوة أكبر همها في الحياة، هذه الزوجة الصالحة حقًا فلا تبحث في المرأة أول ما تبحث عن المال أو الجاه أو الجمال أو الشباب، ولكن ابحث أول ما تبحث عن الدين قبل كل شيء وبعد كل شيء"[١].

وهو لهذا يهاجم الزواج بالأجنبيات –وزوجته فرنسية- يبعث إليه أحد القراء يسأله النصح فيما يقرره من زواجه بأجنبية فيرد عليه ناصحًا ألا يتزوجها "فإن الغرام مهما اشتد سينتهي إلى الزوال بعد الزواج بمدة طالت أم قصرت ولن تبقى أمام الزوج إلا الحقيقة المرة وهي أنه لا انسجام بينه وبين زوجته في العواطف السامية الباقية أي في الدين والوطن، وإذا رزقهما الله بأولاد كانت البلية أعظم... وقد جربنا ذلك بأنفسنا وكررنا النصح من قبل في أوروبا ومصر لكل من استشارنا في ذلك"[٢].

والعبارة الأخيرة توضح لنا وتفسر اشتداد حملة الغاياتي على الزواج المختلط فهو يهاجمه عن تجربة وخبرة، والظاهر أن تنافر الطباع والمشارب بينه وبين زوجته الفرنسية والتي عاشت معه قرابة أربعين عامًا وأنجبت له كثيرًا من الأبناء، الظاهر أن هذا التنافر ظهر بوضوح عقب زيارته للأراضي المقدسة عام ١٩٤٨، حين عزم على إطلاق لحيته والعودة إلى لبس العمامة، وأن يقضي بقية أيامه –وقد بلغ الشيب- بين يدي زوجة من أهله وعشيرته تصونه وترعاه وتحافظ عليه في دينه ودنياه[٣]. أملًا أن يرزقه الله منها غلامًا بعد فقد ابنه الوحيد "ليقتفي أثره في جهاده الإسلامي الذي يضطلع به منذ أربعين عامًا"[٤].

(١) منير الشرق، ٦٨٣.

(٢) منير الشرق، ٦٢٥.

(٣) منير الشرق، ٦١٣.

(٤) السابق.

وقد كان الغاياتي مغاليًا في مطالبته لزوجته بالحجاب وعدم الاختلاط لا سيما وقد عاشت معه طوال هذه السنوات في جنيف ومصر ترتدي الملابس العصرية وتقابل زواره ومعارفه.

وبدأ الغاياتي الإعلان عن رغبته في الزواج على صفحات جريدته، فكتب في أغسطس ١٩٥٠ تحت عنوان: "طلب زواج" بأنه يريد شريكة تعاونه في أداء رسالته ويجب أن تكون "محافظة على الدين وآدابه، كل المحافظة، فتؤدي الفرائض والسنن ولا تتبرج ولا تتزين إلا لزوجها وتتجنب الاختلاط بكل أنواعه وتمقته، وترتدي لباس المسلمات الصالحات"[١]، وتظهر المعارضة على أشدها في محيط الأسرة لا سيما من بعض الأفراد، ولكنه يعقد على فتاة تقارب الأربعين يصفها وكأنه يصف أمه بأنها "مثال المرأة المسلمة القانتة النقية الوفية"[٢]، ولكن ضغوط نفس الأشخاص -الذين يشير إليهم تلميحًا- يجبره على الانفصال "عن أحب مخلوق إليه، فودع النعيم إلى الجحيم ولسان حاله يقول:

ودعتـــــه وبـــــودي لـــــو يـــــودعني طيـــــب الحيـــــاة وأني لا أودعـــــه

...وبقيت لوعة الفراق متأججة قوية لا يطفئها الدمع المنهمر ولا يخفف من لظاها مرور الغداة وكر العشي"[٣]... إنه حب روحي خالص لا سلطان للجسد فيه، فالرجل قد بلغ الستين ولديه زوجة جميلة وهي سيدة مجتمع بارزة، ولكنه كان قد انصرف إلى السمو بالروح والنفس وتطهيرهما، ويبلغ به الضيق أشده فيفكر في الرحيل عن مصر ويشعر بأنه غريب في وطنه، لأنه كما يقول "تصور بلاده على غير حقيقتها وهو ناء عنها وجعل منها جنة في خياله، فلما دخلها وأقام بها وجد أن أهلها ليسوا هم أولئك الذين كان يتصورهم في منفاه".

ويعزو الغاياتي سبب ذلك إلى الابتعاد عن الدين والانغماس في الشهوات، كما أن عقارب الحزبية تكيد له ولصحيفته وهو لا ينسى ما رآه من ضروب الضغوط والمساومات حين رشح نفسه في الانتخابات "لذلك أصبح كصالح في ثمود يدعو من لا يجيب وينادي من لا يسمع ولذلك أيضًا بات غريبًا في وطنه بل في بيته وبين أهله وعشيرته.. بيد أن هذا كله لن يثني من عزمه وسيواصل بقوة إيمانه الذي لا يتزعزع كفاحه ونضاله

(١) منير الشرق، ٦٠٤.

(٢) منير الشرق، ٦١٣.

(٣) السابق.

يدعو الناس إلى ما ينجيهم من غضب الله وعقابه.. وهو في جهاده لا يهاب كبيرًا ولا صغيرًا ولا يراعي صداقة ولا قرابة".

وانتهز الغاياتي فرصة سفر زوجته الفرنسية للخارج بصحبة ابنتها وزوجها وأعاد زوجته التي عقد عليها، وعاشت معه السنوات الباقية من عمره تشاركه كما أراد الفروض والطاعات، فتصلي معه الخمس لأوقاتها وترافقه في رحلة الحج وترعاه وترعى بيته.

*****

وفاته

عاش الغاياتي أجمل سني عمره مغتربًا عن الوطن، وكانت أعظم أمانيه أن يدفن في ثرى مصر وأن يلف جثمانه بالعلم المصري كمصطفى كامل. سكت قلم الغاياتي وسكن قلبه وانطفأت شعلة الثورة التي كانت ملء العين والقلب، وطوى القدر صفحته على بياض ناصع فخلد اسمه في عداد شهداء الوطنية وثوار الحق.

وإن فجيعة الوطن به لجد عظيمة، ومع هذا فإن ما شغلته كلمات التأبين لا يتناسب مع آلاف الأنهار ومئات الأعداد التي ملأها طوال نصف قرن، حتى الوعد الذي قطعه الدكتور الحفناوي على نفسه بمواصلة إصدار المنبر تبخر[1]. وصدر قرار بوقف إصدار الجريدة ورفع اسمها من قائمة الصحف المصرح بإصدارها في مصر في ٢٧ نوفمبر ١٩٥٦، أي بعد وفاته بشهرين[2].

وسيظل رغم عقوق أمته آية مسطورة في سجل نضال الحركة الوطنية، وذكرى شريفة لشهيد ثائر، وإذا كان قد خرج من دنيانا فراغ اليد منسيا، فقد آن الأوان لأن يعود الغاياتي فكرة خالدة في القلوب والعقول وشمعة متوهجة في النفوس والشعور. وقد أوصى بألا يقام له سرادق تنفيذًا لأمر الإسلام، وأن يكفن بالعلم، وكانت وفاته في ٢١ محرم ١٣٧٦ الموافق ٢١ سبتمبر ١٩٥٦. وقد نعته الإذاعة المصرية بوصفه أحد أبطال مصر، وأوائل المجاهدين لها.

وقد ترك من المؤلفات:

١ – القول الوافي في علمي العروض والقوافي.

٢ – ديوان "وطنيتي" الذي تقدم ذكره.

٣ – ديوان هجرتي.

٤ – فجر الثورة.

٥ - على هامش الحج.

٦ – قلة ذوق.

(١) الأهرام ٢٦/ ٩/ ١٩٥٦.

(٢) الهيئة العامة للاستعلامات، سجل رقم ١٠ لقيد الصحف المصرح بإصدارها في مصر تحت رقم ٥٠٩.

قالوا عن الغاياتي

يقول توفيق حبيب "عرفت الصديق الغاياتي سنة ١٩٠٦، في هذه السنة سافر المرحوم إمام العبد وبعض إخوانه إلى دمياط. وكان الغاياتي يعلم الصبيان القرآن الكريم واللغة العربية. فما زال إمام به حتى أقنعه بأن يخرج من مقبرة دمياط ويأتي إلى القاهرة، حيث المجال واسع والدنيا عريضة لبناء مستقبله وإعلان علمه وفضله وأدبه وشعره ونثره".

ثم يواصل توفيق حبيب "وزرته في جنيف سنة ١٩٢١، فإذا السنوات العشر قد غيرت ذاك الشيخ الهزيل صاحب الجبة الطويلة الأردان، ورأيت شابًا ممتلئًا صحة وعافية مبرنطًا أنيق الثياب. الشيخ علي الغاياتي المصحح في العلم أصبح "مسيو جاياتي" المحرر في صحيفة "تريبون ده جنيف"، يلخص أقوال صحف الشرق، ويحرر مقالات في المسائل الشرقية السياسية، ويعرف رجال حكومة جنيف ورجال جمعية الأمم، وله عندهم مكانة سامية. وأخذني إلى بيته وقدمني إلى السيدة زوجته وهي شابة سويسرية، وكان له وقتذاك على ما أذكر ثلاثة أطفال. وسمعت ممن صادفتهم حينذاك من الطلبة ثناءً جمًا على ما يبذله الشيخ الغاياتي لهم ولغيرهم من المصريين الغرباء من خدمات أدبية ومادية."

ويختتم حديثه "هذا هو الشيخ الغاياتي الأزهري الوطني الذي قاسى كثيرًا في سبيل الوطنية. والمصري الذي كافح وجاهد فكان خير مثال لإخوانه المصريين الراغبين في الحياة الحرة؛ غير معتمد على مساعدة فرد أو جماعة"[١].

وفي كتابه "عصر ورجال"، وصف فتحي رضوان الغاياتي بقوله "فهو السياسي وعالم الدين المناضل، ونموذج الأزهري الثائر الذي يضطلع بدور رجل الدين الإسلامي الحقيقي في الكفاح ضد الاستعمار والاستبداد وتبني مطالب الأمة والدفاع عن قضاياها، وهو أيضًا الشاعر الملهم الذي يفيض قلمه رقة وعذوبة، وإلى جانب الرّقة والعُذوبة يتقد حماسًا ووطنية، وهو الصحفي القدير الذي يحرّر المقالات ويصدر الصحف المُتميزة والملتزمة بقضايا الشعب بكبرياء الإيمان والثورة، ولا يَّمد يَده إلى أحد أو يبيع قلمه إلى جهة رغم قسوة الظروف، فتحمل الكثير في سبيل قضية الأمة وكتب لأجلها ديوانه (وطنيتي) الذي هو بلا شك ديوان الوطنية المصرية في الفترة ما بين سنة ١٩٠٧ حتى سنة ١٩١١، فما إن تقرأه حتى تَكتمل لديك صورة

(١) توفيق حبيب، أبو جلدة وآخرون، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٤، ص ٩٣-٩٥.

كاملة للعهد الذي ظهر فيه إذ لم تترك قصيدة منها حدثًا سياسيًا إلا وتعرّضت له بروح ثائرة مُحبة للوطن، لقد كان الغاياتي يُعبّر بقصائده عن لحظات عودته إلى مصر مَغموراً قبل أن يموت في الوضع ذاته".

قال عنه الأستاذ عبد الرحمن الرافعي في كتاب (شعراء الوطنية): "من شعراء الوطنية ومن المجاهدين القدامى، اعتنق مبادئ مصطفى كامل منذ أن استمع إلى خطبته الكبرى التي ألقاها بالإسكندرية في ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٧، وصار من تلاميذه وأنصاره الأوفياء الحافظين لعهده طوال السنين".

ويقول الدكتور أحمد الخميسي عن الشيخ علي الغاياتي "لقد أيد في مقالاته وشعره كل عمل ثائر في مصر وخارجها، من أجل إجلاء الإنجليز، والأخذ بالدستور، وإصلاح الحكم، والضرب على يد الفساد، ونشر التعليم، وامتدح بقصائده قادة الحركة الوطنية مثل مصطفى كامل ومحمد فريد والشيخ عبد العزيز جاويش الذى منحته الحركة الوطنية وسام الشعب بعد أن اكتتب المصريون بثمنه وقلدوه إياه عند خروجه من السجن".

يقول الشاعر أحمد سويلم "أن يثور الإنسان من أجل كرامته.. فهو بهذا يحقق إنسانية الإنسان.. وأن يثور من أجل وطنه.. فهو بهذا صاحب رسالة نضالية لا تضيع من ذاكرة التاريخ. ومن هؤلاء الذين حملوا الوطن رسالة في قلوبهم نابضة مشتعلة بلا انطفاء الشاعر والكاتب علي الغاياتي"[١].

وقد احتفل في نادي الصحفيين في يوليو ١٩٤٧ بذكرى مرور أرعين عامًا على اشتغال الأستاذ علي الغاياتي بالصحافة وحضر الحفل شاعر القطرين الأستاذ خليل مطران، وكتب هذه القصيدة التي نشرت بجريدة منبر الشرق بتاريخ ١٩٤٧/٧/١٨ بعنوان "تحية لأستاذي بهذه المناسبة":

جهادك في صفحة مجد مصر ... ستعلي شأنها في كل عصر
وما (وطنيتي) إلا شعاع ... تبدى منك في نثر وشعر
ومنبرك الأغر غدا ملاذا ... وأنت المستقل لكل حر
إذا بالكيف يوزن والمعاني ... وجدت صحيفة في كل سطر
تزاول مهنة تجدي غناء ... وما للمال عندك أي سحر
تقول الحق قصدا لا اضطرارا ... وتنصر أهله في كل قطر
وسيلتك الصحافة في جهاد ... مريرٍ ضد خصم مستقر

(١) أحمد سويلم، عشرون من شعراء المنافي والسجون، دار الطلائع، ٢٠١١، ص ٢٩.

قضـــــيت بهـــــا مـــــن الأعـــــوام عمـــــرا تجـــــــــــدده ولكـــــــــــن أي عمـــــــــــر

ومـــــــــــــــا الأيام بالأيام تمضـــــــــــــــي ولا الأيام بالســـــــــــــــاعات تجـــــــــــــــري

فعامـــــــك يا (علـــــــي) لـــــــيس عامـــــــا وهـــــــذي الأربعـــــــون تفـــــــوق حصـــــــري

*****

مصادر الدراسة

أولًا- الوثائق والمحفوظات:

١) أعداد مجلة منبر الشرق العربية والفرنسية.

٢) مخطوطات لمذكرات الشيخ علي الغاياتي.

٣) أعداد جريدة اللواء.

٤) أعداد صحيفة الجوائب المصرية.

٥) أعداد جريدة المؤيد.

٦) أعداد جريدة المقطم.

٧) أعداد جريدة الثقافة.

٨) أعداد مجلة المصر

٩) أعداد مجلة المنار.

١٠)السير ألدون جورست المعتمد البريطانى فى مصر، تقرير الحالة العمومية لسنة ١٩١٠.

١١)مذكرات الزعيم أحمد عرابي.

ثانيًا- الكتب:

١) إبراهيم الإبياري، الوطن في الأدب العربي، دار القلم، القاهرة، ١٩٦٢.

٢) أحمد أمين، حياتي، مكتبة الجماميز، القاهرة، ١٩٥٠.

٣) أحمد أمين، زعماء الإصلاح في العصر الحديث، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥.

٤) أحمد حسين، فجر الثورة.

٥) أحمد سويلم، عشرون من شعراء المنافي والسجون، دار الطلائع، ٢٠١١، ص ٢٩.

٦) أحمد شفيق باشا، مذكراتي في نصف قرن، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠١٣.

٧) أحمد محفوظ، حياة حافظ إبراهيم، مؤسسة نصار للتوزيع والنشر، القاهرة، ١٩٣٢.

٨) أحمد محمد الحوفي، وطنية شوقي: دراسة أدبية تاريخية مقارنة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٥٥.

٩) توفيق حبيب، أبو جلدة وآخرون، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٤، ص ٩٣-٩٥.

١٠)تيودور رتشتين، تاريخ المسألة المصرية (١٨٧٥ – ١٩١٠)، ترجمة عبد الحميد العبادي ومحمد بدران، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٣٦.

١١)حافظ إبراهيم، ليالي سطيح، مطبعة الإصلاح، القاهرة، ١٣٢٤/١٩٠٦.

١٢)الدكتور حسين فوزي النجار، الفكر المعاصر، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٧.

١٣)الدكتور زكي المحاسني، نظراتٌ في أدبنا المعاصر.

١٤)شوقي ضيف، شوقي شاعر العصر الحديث، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٢.

١٥)طه حسين، حافظ وشوقي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٨، ص ١٣٢.

١٦)عباس محمود العقاد، شعراء مصر وبيئاتهم في الجيل الماضي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٣٧.

١٧)عبد الرحمن الرافعي، شعراء الوطنية: تراجمهم، وشعرهم الوطني، والمناسبات التي نظموا فيها قصائدهم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة، د.ت.

١٨)أبو سعيد عبد الملك بن قُريب الأصمعيّ، كتاب الدارات للأصمعي، دراسة وتحقيق يسري عبد الغني عبد الله، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

١٩)الدكتور علي الحديد، محمود سامي البارودي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والأنباء والنشر، القاهرة، سلسلة أعلام العرب، ١٩٦٧.

٢٠)علي الغاياتي، ديوان وطنيتي، مطبعة عطايا بباب الخلق، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٣٨.

٢١)فتحي رضوان، عصور ورجال، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٦٧.

٢٢)لوثروب ستودارد، حاضر العالم الإسلامي، ترجمة: عجاج نويهض، تعليق شكيب أرسلان، دار الفكر، بيروت، ١٩٧١.

٢٣)الدكتور محمد أحمد خلف الله، عبد الله النديم ومذكراته السياسية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٥٦.

٢٤)محمد توفيق البكري، صهاريج اللؤلؤ، مطبعة الهلال، القاهرة، ١٩٠٦.

٢٥)الدكتور محمد حسين، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر، الجزء الأول، مكتبة الآداب، القاهرة، الطبعة السابعة، ١٩٨٤.

٢٦)محمد حسين هيكل، تراجم مصرية وغربية، دار ناشرون، الجيزة، ٢٠١٧.

٢٧)محمد رشيد رضا، تاريخ الأستاذ الإمام، مطبعة المنار، القاهرة، ١٣٢٤هـ.

٢٨)الدكتور محمد عبد الرحمن برج، دراسة في الحركة الوطنية المصرية.. وزارة بطرس غالي (١٩٠٨-١٩١٠)، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٨٠.

٢٩)محمد عبد المنعم خفاجي، بنو خفاجة وتاريخهم السياسي والأدبي، المطبعة الفاروقية الحديثة، القاهرة، ١٩٥٠.

٣٠)محمد الماحي، ديوان الماحي، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٨.

٣١)محمود أبو ريه، جمال الأفغاني، دار المعارف، القاهرة، ٢٠٠٦.

٣٢)محمود الخفيف، أحمد عرابي الزعيم المفترى عليه، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٨.

٣٣)مصطفى عبد الرازق، محمد عبده سيرته، دار المعارف، القاهرة، ١٩٤٦.

٣٤)مصطفى كامل، المسألة الشرقية، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، ٢٠١٢.

٣٥)مصطفى كامل باشا، مصر، مجموعة أعمال مصطفى كامل.

٣٦)نعمات أحمد فؤاد، أدب المازني، مكتبة الخانجي بمصر ومطبعة دار الهنا، القاهرة، ١٩٥٤.

٣٧)نقولا يوسف، تاريخ دمياط منذ أقدم العصور، الاتحاد القومي، القاهرة، ١٩٥٩.

ثالثًا- المقالات:

١) حازم أحمد حسنى، "مستقبل الثقافة المدنية في مصر!"، أخبار الأدب يوم ٢٦ - ٠٢ – ٢٠١٢.

٢) علي الغاياتي، فتنة دمياط، صحيفة الجوائب المصرية، ط: الاثنين ٢ ذو الحجة ١٣٢٥ هـ، مطبعة الجوائب.

٣) علي يوسف المتروك، "كلام حول الوطن والمواطنة"، القبس، ٥ يناير ٢٠٠٦.

٤) د. ليلى محمد أسليم، "حب الوطن في ضوء السنة النبوية"، مجلة جامعة فلسطين للأبحاث والدراسات، العدد الرابع، يناير ٢٠١٣.

ملاحق

الحكم الصادر في قضية الشيخ عبد العزيز جاويش والزعيم محمد فريد لمصادرة ديوان "وطنيتي" للشيخ علي الغاياتي

عقدت محكمة الجنايات جلستها اليوم في الساعة الثامنة مساءً والدقيقة ٥٠ صباحًا للفصل في قضية النيابة العمومية المتخصصة بديوان وطنيتي وهي مولفة من حضرة عزتلو، ومحمد مجدي بك رئيسًا ومن زميله علي ذو الفقار بك والمستر سودان عضوين، وجلس في كرسي النيابة العمومية حضرة عزتلو محمد توفيق نسيم بك أحد رؤساء النيابة في محكمة الاستئناف العليا بدلا من حضرة عزتلو علي توفيق بك رئيس نيابة محكمة مصر الذي ألم بصحته انحراف خفيف منعه من الموافقة في هذه الدعوي ورأينا قاعة الجلسة مزدحمة بالمحامين ومندوبي الصحف وجمهور غفير من المتفرجين والمتهمين الثلاث الحاضرين قعودًا في مجلسهم وهم الشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ محمد حسن القزويني والياس دياب أفندي وكذلك رأينا خارج القاعة جمهورًا غفيرً آخر من المتفرجين لم يجد له موضعًا في داخلها.

وبعد فتح الجلسة أعلن الرئيس أنه لم يضع نظاما استثنائيا للمحاكمة وأبقي حضورهم عموميا مباحا مؤملا أن يحافظ الحاضرون أنفسهم على النظام ويلزموا السكينة ثم تلا كاتب الجلسة ورقة الاتهام وقد نشرناها برمتها في حينها وسئل المتهمون الثلاثة عن التهم المعزوة اليهم فأنكروها وعن أسمائهم وصناعتهم إلي آخر ما هو معروف من هذا القبيل ثم قسم المحامون دفاعهم عن المتهمين وبعد ذلك نهض حضرة عزتلو محمد توفيق نسيم بك رئيس النيابة العمومية في محكمة الاستئناف العليا فألقى مرافعته التالية بما اشتهر عنه من طلاقة اللسان وفصاحة البيان وهذه صورتها.

مرافعة النيابة

تطالب النيابة العمومية معاقبة المتهم الأول بالمواد ١٤٨ – ١٤٩ – ١٥١ – ١٥٤- ١٥٦ -١٥٩- ١٦٠ من قانون العقوبات بوضعه وطبعه كتاب – وطنيتي – ولما كان فعل المتهمين الآخرين يحتمل أن يوصف بفعل أصلي أو باشتراك فتطلب معاقبتهم بالمواد المذكورة وبالمادة ٣١ فقرة الثانية و٤٠ فقرة ثالثة من قانون العقوبات مع مراعاة تطبيق المادة ١٥٤ عقوبات في حالة ما إذا اعتبر المتهم الثاني مرتكبا لجريمة تمجيد الجرائم.

وفي حالة اعتبار المتهم الثاني فاعلا أو شريكا مع الأول يلاحظ انه سبق الحكم عليه لارتكابه بواسطة طرق النشر المنصوص عليها في المادة ١٤٨ جريمة قذف وإهانة الموظفين وقد ضمنت جريمة الاهانة إلى جريمة القذف أخذا بأشدهما.

وإني لمحدثكم بأمر هذا الكتاب قام رجل من إسراء الخيالات الذين ينظرون بغير رؤية ويحكمون بغير عقل وأخذ لنفسه حظها من لذة استباحة الجرائم وتعظيم الجناة ومن سوء التهجم على أسمى مقام في البلاد والتجريم على هيئة الحكومة والمحاكم بما أودعه في كتباه الذي طبعه ونشره.

وأصبحت تداوله الأيدي وتقرأه الألسن وتناقله العامة. وأكثر الناس عامة.

وضع هذا الشاعر المفتون ذلك الكتاب ووسمه بوطنيتي فلا حيا الله وطنية تجعل الله للحض على اجتياح السيئات وبث التعاليم التي تفسد القلوب وتذيق الناس بعضهم باس بعض – بل لا بارك الله في وطنية تلبس كما يلبس الثوب مقلوبا فتؤلم النفوس وتفتن الخواطر.

إني لا أطيل عليكم البحث في كل ما نظم أو كتب في هذا الكتاب من الأمور والوجوه الجنائية بل الفت نظركم إلى ما ورد في صفحة ٣٤ تحت العنوان – وطني يناجي ربه... وطيف الوطنية – وآية الإخلاص وإلى ما جاء في الصفحة الخامسة نثرا وهذه صورته.

"فلئن حييت لأنصرن مبادئ الحزب الوطني نصرا ولأطلعن من دياجي الخطوب من حياتي فجرا ولا جودة بالنفس يوم تدعو البلاد للأمة حرابا لغيرن ما استطعت وجه التاريخ الحديث في مصر تغييرا تخر له جبابرة الظالمين سجدا يبكون خشية وفرقا ويرفع الوطن المفتدي رأسه مهللا مكبرا منصورا إن شاء الله".

فالعبارة واضحة والانتقام والخصام والحمام وإرهاق الدماء واختيال الآجال وتغيير وجه التاريخ الحديث في مصر تغييرا يبكي منه الظالمون خشيا وفراقا لا تحريض عن القتل بين الناس.

غرض الشاعر في هذه الأبيات غاية في التجلي والظهور بقطع النظر عن النشيد الوطني والأغاني الحماسية الأخرى وليس بعد هذا القول المنظوم والمنشور بعد ما ورده بشأن دنجرا والورداني القاتلين وتمجيده فعلهما من دليل على الإغراء على القتل بين الناس.

وهي جريمة معاقب عليها بالمادة ٤٩ من قانون العقوبات. ثم أنتقل بكم ما ورد في صفحتي ٥٥ – ٥٦ تحت عنوان (إلى سمو الأمير والوزارة والأمة).

وليس أنطق بالسفه من هذه الأبيات التي تدل على جراءة غررت بالقائل بالتعريض بقدر ما تكتنفه مهابة الإجلال والتعظيم وإلى ما في صفحة ٧٣ بعنوان إلى وزراء مصر وإلى ما في صفحتين ٦٣ – ٦٤ بشان اهانة ناظر الحقانية وصفحتي ٦٨ بشان الحكم على المتهم وإلى ما في صحف ٦٠ -٦١ -٦٢ ٧٠ – ٧٢ – ٩٤ – ٩٦ – ٩٧- ١٠١ تحت عنوان إلى دنجرا قبل الإعدام وتحت عنوان إليه بعد الإعدام وإلى ما بين قبول النقض ورفضه.

وصحيفة ٧٢ تحت عنوان- الوسام بعد السجن – وصفحتي ٩٦- ٩٧ – تحت عنوان – الحادث الخطير – وصفحتي ١١ -١٢ تحت عنوان – يوم القضاء –.

قال ومازال بين مهاب هذه الأهواء لمدح الإثم وبعظيم الإثم يدفن الحسن ويعرض السيئة يشيع الفوضى وينشر الباطل مما كانت تدعوه إليه نزوات نفسه وخواطر قلبه الأثيم الجرائم التي تحن بصدد الكلام عليها حامله بظهور كتاب وطنيتي فجسم الجنائية فيه إنما هو ذلك الكتاب بمحتوياته ومشتملا به بتأليف هذا الكتاب من منظومات وقصائد أكثرها فيما يسمونه بالحركة الوطنية الحاضرة ومن مقدمات بينها وبين هذه القصائد من العلاقة والربطة ما لا يخامره إبهام ولا بداخله شك فهي أجزاء مرتبطة يبعضها ارتباط قصد مقرور عليه وغرض مسبوق العزم إليه.

يدلكم على هذا الغرض وذلك القصد تلك المقدمات الثلاث وهي مقدمة إهداء الكتاب وفيها يقول الغاياتي إنه كان بدمياط بين قوم يعبدون الحكام كآلهة فلما أقام بالقاهرة وشربت نفسه مبادئ الحزب الوطني بفضل قائدي زمام الحركة الحاضرة فريد بك والشيخ عبد العزيز الذين تعهدا شعوره فسما وأمداه فما ولم يكن منهما إلا كالبحر يمطره السحاب وماله.

فضل عليه لأنه من مائه نظم ما نظم هذه القصائد مشرفا عليها من سماء الحزب.

ثم مقدمة فريد بك حيث يتكلم فيها عن الشعر بأنه يحض على القتال ويجب اقتحام الأخطار ويحمل على القتال ويحبب اقتحام الأخطار ويحمل النفوس على المكارم ويعيب ما يقال الشعر مدحا في الأمراء والكبراء.

ثم مقدمة الشيخ عبد العزيز وفيها يبين الأشعار التي تترك في النفس أثرا وتكون صادقة العبارة مناهضة للهمم موقده للعزائم.

فهذه المقدمات الثلاث متفقة في المعني وهي تضمن الكتاب من القصائد المطالبة لما ترمي إليه من الغرض المقصود أجزاء متواصلة تكون مجموعا واحدا هو كتاب – وطنيتي _.

نعم أن من أجزاء هذا الكتاب أيضا بعض قصائد وردت في باب المتفرقات كشفاء ولي العهد ورثاء المرحوم عاصم باشا ونحو ذلك مما لا يوجد مسؤولية ولا يدعى إلى مؤاخذة لكن وجود هذه الأجزاء في الكتاب لا يبرر عمل المتهمين بأن الأجزاء الأخرى.

يدلكم على ذلك ما ذكر في مقدمات المتهمين بشأن هذا النوع من الشعر فالغاياتي يلوم نفسه في مقدمة الكتاب على ما كان يقوله من هذه الأشعار ويعتذر بأنه كان بدمياط بعيدا عن الحزب غائبا عن مبادئه وأنه قد جاء بشيء منها في كتابه ليكون مثالا رادعا للشعراء حتي لا يطرقوا من الشعر إلا ما كان في خدمة الوطن وحب البلاد. وفريد بك يقرع كل شاعر يقول الشعر مدحا في ملك أو كبير.

والشيخ ينحو نحوها في ذكر الشعر الذي يستفز الهمم وورود هذه الأجزاء التي يذمونها في مقدماتهم أقطع في تأكيد المسؤولية وأوضح في بيان تماسك بقيه أجزاء الكتاب من مقدمات وقصائده يدلكم على ذلك أن أغلب القصائد التي يستفاد منها المسؤولية الجنائية نشرت بجريده اللواء كقصيده دنجرا وكقصيده سمو الأمير والوزارة وكقصيدة إلى وزراء مصر كغيرها من القصائد الحماسية كقصيده السين يضطرب والنيل ينتحب وآية الذكرى.

أليس في نشر هذه القصائد من قبل في جريدة اللواء التي كانت لسان حال الحزب الوطني وفي تقريظها والكتابة عليها في مقدمات كتاب وطنيتي وذم غيرها من مشتملات الكتاب مما هو مبسوط في ذيله اتفاق غريب يدل على أن المتهمين توافقوا وساروا في وجهة واحدة لغرض مشترك وقصد شائع بينهم وهو إيقاد العزائم وإنهاضها بمثل هذه الكتابات وتلك القصائد.

أليس فيما ذكره اللواء الذي كان لسان حال الحزب في عدد ٢٥ ابريل ١٩١٠ أن كتاب وطنيتي الذي عزم الغاياتي على طبعه يشتمل على مقدمة الكتاب وكلمة الإهداء وكلمتين مأثورتين لفريد بك والشيخ عبد العزيز وقصائد ومنظومات في الحالة السياسية والحركة الوطنية وعلي ذيل ومتفرقات ما يريد أن المقدمة والقصائد إنما هي أجزاء تكون مجموعا واحدا هو كتاب وطنيتي.

خلص من هذا البيان أن هذه المقدمات بورودها في هذا الكتاب بهذا المعنى وذلك المبنى هي جزء من أجزائه هي عنوان خاطر المتهمين وترجمة ضميرهم.

ما الذي أثار هذه الأوصاف في ذهن واضع الكتاب؟ وما الذي أغواه حتي أنشأ هذه الأضلولة؟ أثارها في خاطره التصاقه بالحزب الوطني كما هو يعترف في مقدمته وتعرفه بالرئيسين وما يتلقاه عنهما من تعاليم والإرشادات.

يستفاد ذلك من أقواله في كتابه فهو يقول في موضع إنه كان ينظم من الشعر ما لا يفيد البلاد ولا ينبه العامة ولا يذكر الخاصة ويقول إن عذره في ذلك أنه كان بعيدا عن الحركة الوطنية لا يعرف عنها شيئا حيث كان بدمياط بين قوم كرام يكادون لا يذكرون الوطن والوطنية على الإطلاق ثم غادرهم للقاهرة.

وهو يقول في كتابه، إنه يرفع – وطنيتي – بيد الإخلاص إلى إمامي الوطنية وقائدي زمام الحركة الحاضرة رئيس الحزب الوطني محمد بك فريد والشيخ عبد العزيز جاويش يرفع لهما ويهديهما هذا الكتاب الذي هو عنوان شعور نفسه قد تعهداه فسما وأمداه.

فإذا ما أثنى عليهما في كتابه ثناء تلميذ معترف بما لهما عليه من التربية وواجب الإرشاد في كلمتيهما وتقريظهما كان ثناؤهما ثناء تلميذ أستاذ مرب حكيم يريد أن يبلغ بتلميذه شأوا من الفضل فلا يزال به مشجعا مرغبا.

الغاياتي يقول ما هو أبلغ من هذا كله وأقطع في الدلال على اشتراكهم معه في وضعه هذا الكتاب بالذات حيث يقرر صراحة على إثر قوله إنه تلميذهما وإنهما مرشداه ومعلماه أن ذلك كان أيضا شأني وشأنهما في هذا الكتاب أي كان لهما في وضعه تلميذا كما كان كلاهما له في وضعه أستاذا ومرشدا.

أليس هذا اعتراف صريح بتعاونهم على وضع الكتاب المذكور؟

ليس أقوى في الاحتجاج من عبارات ذات الجاني التي اطلع عليها المتهم كما سنتبين بعد وسكت عنها سكوت المسلم بها المعترف بصحتها. ولما يسأل الشيخ عبد العزيز عن هذا الاعتراف الصريح يقول إنه محض كذب افتراه الغاياتي لغرض في نفسه.

أبينك وبينه عداوة تحمله على إسناد هذا الأمر إليك، فيجب كلا ولا علم لي بالسبب الذي دفعه إلى قول ذلك.

أليس هو الغاياتي المصحح بالعلم أخيرا؟ أليس هو الكاتب تلك القصائد في اللواء قديما؟ أليس هو المهدي إليك كتابه حديثا؟ أليس هو المثني عليك والمعترف بأستاذيتك له في طول كتابه وعرضه؟ فما هو يا ترى الباعث الذي يحمل هذا الرجل على هذا الكذب الممقوت.

يقول الشيخ لا أدري وإن اعتراف الغاياتي لا يسري علي.. صحيح ما تؤيده القرائن وتوكده وقائع الدعوي من لأولها إلى آخرها.

ثم يقول إنه يجوز أن يكون قصد الافتخار وإعطاء كتابه قيمة له بإسناده إلي. ما لهؤلاء الكتابيين يحسنون لأرباب الرذائل رذاءلهم فيصورونها في نظرهم وفي نظر العامة فضائل مما يلبسونها من ثياب الوطنية وبما يقولونه في تمجيدها ثم إذا اسألوا عنها حوسبوا عليها ينكرونها ويدعون أنهم لم يقرأوها وأنها سخافات وكليمات وشعير لا قيمة لها.

إذا كانت هذه حال حمله الأقلام وأرباب الرياش والفكر فماذا يكون حال بقية الناس وسائر الطبقات؟

هلا يوجد لأي هؤلاء الكتابيين قلوب واعية تمازجها روح الوطنية الصحيحة.

هلا لا يبلغون من التبصر بالعواقب حدا يقيهم شر الغوائل والمكار حتي أصبحوا على حد قوله القائل:

وفي كـــــل يـــــوم غـــــارة مشـــــعلة وفي كـــــل عـــــام غـــــزوة ونـــــزال

بالغ الغلاة وأغرقوا فلم يتعرفوا معني حرية القول حتي حسب الشاعر المفتون أن الحرية والوطنية هي أن يقول ما يشاء ولا يسمي.

ولذلك لم يخلص كتاب وطنيتي من المعايب والمساوئ وأنا أدعو كل من لم يقتنع بهذه الحقيقة أن يطالعه ليتعرف هذا السخف بل تلك السخافات كما وصفها المتهم الحاضر.

أدعوه الدعوة التي تخالف ما دعاه إليه المتهم في مقدمته فهو دعا الناس لقراءته ليتعرفوا صدق عباراته وأنا أدعوهم ليتبينوا سخافة ذلك الكتاب الذي قال المتهم عنه في التحقيق لو كنت طالعته لمزقته وبعبارات أخرى لما كنت أقرأه.

ليس أهون يا حضرات القضاة من جلوس الكتاب وراء كلامهم فيطير بهم خيالهم ويرسلون أقلامهم فيحملون على الرجال ويرمون البعض بالمروق والبعض بالسوء وهم يظنون أنهم يحسنون عملا.

ليس أسهل على من ليس لديه سوي جرأة القول الهرب من أن يعمل بكتاباته على مجافاة هيئات الحكومة وتسفيه آراءها ويفتن الناس ويقول ذلك هو خدمة المصلحة العامة بإخلاص واستقلال.

وهنا نهبت المحكمة النيابة لدعوتها الناس لقراءة هذا الكتاب وبالتالي لتسخين الجريمة التي تطلب الحكم على المتهمين من أجلها فاستطرد رئيس النيابة قائلا هذه القيمة قد حصلت عليها مقدمتك التي كتبتها فيه وهي التي إن لم تجعلك معه فاعلا أصيلا في وضع الكتاب لأنها جزء منه كما قدمت فلا أقل من أن تجعلك شريكا له لأنك ساعدته على ترويج الكتاب ونشره بما كتبته عنه في مقدمتك يكون له قيمة وشأن.

وبما يذهب الدفاع إلى ما لهج به بعض الجرائد أخيرا بشان الخطاب المقول بأن الغاياتي أرسله من الآستانة إلى إحدى الجرائد في مصر ينفي ما أسند في التحقيق إلى الشيخ وفريد بك وخلاصة ما في الخطاب متعلق بهما وأنهما لا يعلمان بأسراره وغايته وأنه استكتبهما مقدمتين حكيمتين دون أن يعلم شيئا من أمر الكتاب.

هذا الخطاب لم تتبين بعد صحة مصدره ولم يناقش الغايات بشأنه ولا بشأن موضوع الجرائم مناقشة قانونية تكون من ورائها أنه وجد الحق من الباطل وهو خطاب لا قيمة له في نظر القضاء من جهة ويكذبه ما قام في الدعوى من الأدلة المبطلة لما تضمنه من جهة أخرى.

ومثل كاتبه لو صح أنه غاياتي وليس شخص آخر إنما كمثل كل جان أبعد نفسه بالهرب عن طائلة العقاب فأراد أن يبعد أيضا زملاءه في الإثم وشركاءه في الجريمة عن تلك الطائل بزعم من المزاعم فادعاء من الدعاوي على أن مسئولية الشيخ لم تكن مستفادة فقط مما قاله الغاياتي عنه في كتابه بل هي مستفادة أيضا من القصائد ومن الوقائع ثبتت من قبل.

ما لهؤلاء الشعراء والكتاب يفسدون الأخلاق بما يقولون ويكتبون انتصارا لأنفسهم بعنوان" الوطنية والكتاب" كما يعرفون هم من مجموع الأمة بمنزله العقل المدبر والروح المفكر فصلاح حالهم وكتابتهم مصلح لحالها وفسادها مفسد له.

حاصل جوابات الشيخ عبد العزيز أنه لم يطلع على كتابه ولم يعرف ما فيه وأنه كتب مقدمته مجاملة للغاياتي.

ودليل على عدم الاطلاع أن كتبت مقدمته وسلمها للغاياتي في شهر مايو قبيل أن يتم تأليف الكتاب وجمعه بدليل ما هو مذكور في آخر الكتاب. (وأنهي تقريره في ٢٤ يونيو ١٩١٠) وهذا دليل مردود.

أولًا: ذكرت جريدة الشعب في ٥ أبريل ١٩١٠ وهي التي كان يحرر فيها الشيخ ويصحح فيها الغاياتي كانت لسان حال الحزب أن الغاياتي عزم على طبع كتاب" وطنيتي" وأنه يشتمل على منظومات نظمها في الحركة الوطنية الحاضرة وعلي مقدمة الاهداء وكلمتين مأثورتين لفريد بك والشيخ عبد العزيز ومذيل بمفترقات شتى وأن قيمة الاشتراك ثلاثة قروش.. وهذه الواقعة لو ذكرت في أي جريدة غير جريدة الشعب لكانت مبطلة لدليل المتهم إذ كيف يعلن عن العزم على طبع الكتاب في ٢٥ ابريل ١٩١٠، بل كيف يذكر في الإعلان وصف الكتاب وأنه مبتدئ بكذا ومختتم بكذا وفي وسطه كذا وأن قيمة الاشتراك كذا ولا يكون قد تم بيعه أو حصل تأليفه؟ بل كيف يذكر في ذلك التاريخ أن الكتاب يشتمل على كلمتين للشيخ ولفريد بك ولا تكون مقدمة الشيخ قد كتبت وسلمت إلا في شهر مايو؟

فكيف يكون أنهى تأليفه بالمعني الذي يريده في ٢٤ يونيو وطبعه في ٣ يونيو والمسافة بين التاريخين لا تسمح بالطبع لا سيما وقد قال صاحب المطبعة أن الطبع استغرق من ١٥ إلى ١٨ يوم وأن الغاياتي حضر له من أربع أسابيع مضت.

وهنا استوضح المحقق المتهم هذه الأوجه وكان جوابه إنه ليس مسؤول عما ينشر في الشعب ولا العلم لأنه لم يكن رئيس التحرير – ما لنا ولا لرئاسة التحرير فإنه لم يسأل عن موضوع ما ورد في العلم وهو من قبيل الوقائع.

بالغ الشيخ الحريص على دعواه على عدم الاطلاع أن أنكر اطلاعه على الكتاب حتي ساعة التحقيق وأنه لم يراه إلا أثناء استجوابه وقت أن دعت ضرورة التحقيق إلى قراءة شيء منه.

يا سبحان الله ينثر بعض قصائد الكتاب في جريدة اللواء منذ كان الشيخ رئيس تحريره المسؤول رسميا كالقصيدة إلى سمو الأمير والوزارة وبعدها نشر ما كانت ترسل الرسائل باسم الشيخ عندما تعين الدكتور منصور رفعت مديرا مسؤولا كقصيدة دنجرا وقصيدة إلى الوزراء ونحوهما.

ويهدي الغاياتي للشيخ نسخة من الكتاب فتضيع منه لأنه وضعه على مكتبه ثم افتقدها ولذلك لم يقرأها؟ نعم أن الغاياتي نظم قصائد ومقاطيع أخري في أثناء طبع الكتابات بشأن حوادث جدت بعد هذا التاريخ ثم ضمها إليه مثل أبياته على القوانين الجديدة وقصيدة الحكم على الورداني وقصيدة روزفلت وهي عن حوادث تمت بعد ٢٥ أبريل وإن كانت لها مقدمات حصلت قبل ذلك التاريخ لكننا نحن لا نتهم المتهم بتلك القصائد الجديدة بل نأخذه عن القصائد التي أشرنا إليها مقدما ولا نزاع في أنها قيلت عن حوادث حدثت من أشهر مضت وقد ذكر منشؤها تاريخ تلاقيها، بل وأوضح في تعليقاته على الكتاب ما سبق أن نشر منها في جريدة اللواء.

فهذا الاعتراف الذي يتوقعه الاتهام من الدفاع غير سديد ومردود.

ثانيا: نشر في جريدة العلم في ٢٠ مايو ١٩١٠ أنه أنجز من طبع الكتاب ملزمتان تحتويان على ابتداء الكتاب وإهداءه وعليه كلمتين لفريد بك وللشيخ عبد العزيز بتوقيعهم على ما يليهم من الكلام على نشيد المارسيليز.

ونشرت تلك الجريدة أيضا في أيام موالية في شهر يونيو أن الكتاب سيظهر قريبا ونشرت أيضا في ١٩ منه أنه سيظهر في بحر أسبوع وقد ظهر بالفعل في ٢٤ يونيو أي فيما يقرب من أسبوع هو تأويل قولهم في آخر الكتاب وتم تحريره أي طبعه في ٢٤ يونيو.

فكيف يصح أن يقال بعد تعدد هذه النشرات أن الكتاب لم يبدأ في طبعه أو لم يتم طبعه أو تأليفه إلا في ٢٤ يونيو؟

ثالثا: نشرت جريدة العلم أول ٣ يوليو ١٩١٠ أن الكتاب ظهر بالفعل وأنه يطلب من صاحبه في إدارة العلم.

وينشر في جريدة العلم مرات متوالية عن طبع الكتاب وظهوره وأنه يطلب من صاحبه إدارة العلم.

وينشر في جريدة العلم في ٧ يونيو ١٩١٠ مقدمة فريد بك عن الكتاب وتكتب أيضا في تلك الجريدة مقدمة الشيخ جاويش!

يباع الكتاب في إدارة العلم بمعرفة الفراشين كل ذلك يحصل والشيخ يقول إنه ما قرأ الكتاب إلا أثناء التحقيق وأنه لو اطلع عليه لكان مزقه وفي عبارة أخرى لو عرفنا ما توجبه موضوعاته من المسؤولية لما كان يقره عليه.

ليس الشيخ وحده الذي ينكر اطلاعه على الكتاب حتى ساعة التحقيق بل قد أنكر ذلك أيضا إسماعيل أفندي حافظ مدير إدارة العلم إذ قال إن الغاياتي أهداه نسخة من الكتاب فردها إليه لتشويهه في احدى صورها ووعده بأخري ولكنه لم يفعل.

لماذا كل هذا الابتعاد عن وطنيتي إذ كان الغاياتي هو واضع الكتاب وحده بل لماذا كل هذا الإنكار إذا كان مدح الكتاب حصل اعتباره ومجاملته؟

بل لماذا يخفي الغاياتي كل المسودات فلا يوجد من أوراقه شيء لا في منزله ولا في إدارة العلم ولا في المطبعة؟

بل تهرب بتلك الأوراق كما هرب الغاياتي الآن. الغاياتي كان يظن أن في إخفائها إخفاء لجريمته وثبوتها لا يحتاج مثل هذه الأوراق مادام الكتاب شاهدا عليه وناطقا بتأثيمه؟

أم هناك سر يتعلق بإخفاء اشتراك آخرين معه في وضع هذه القصائد وتلك المنظومات.

لماذا لا توجد نسخ من هذا الكتاب في إدارة العلم وقد أعلن عنه بطلب من صاحبه فيه.

هذا ما وسعه المقام من مرافعة النيابة العمومية وقد ختمها صاحبه بأقوال جديدة بليغة أوضح بها واجبات الكتبة والمتصدرين للإرشادات وبث الوطنية في النفوس.

لسان الدفاع

وتلاه حضره محمد علي بك ودفاعا عن الأستاذ الشيخ جاويش فأخذ ينتقض خطة النيابة في التحقيق فردته المحكمة في التكلم في الوقائع فقال إن الشعب نشر في أبريل الماضي إعلانا يفيد عزم الغاياتي على طبع ديوانه وأنه مصدر بمقدمتين الواحدة لحضره محمد فريد بك والأخرى للشيخ عبد العزيز جاويش ومعلوم أن الحكم على الورداني بالإعدام كان في ١٨ مايو بعده وقصيدة روزفلت أو خطبته في جولد هول كان في ٣١ منه هذا يدل دلالة صريحة على أن المقدمتين لم تكتبا تقريظا ولا مدحا لكل ما ورد في هذا الديوان ولا كان

في شيء مما يعاقب عليه قانونا وقت كتابتهما هذا فضلا على اعتياد المقرظين المجاملة في كل ما يطلب منه تقريظا من الكتب والمؤلفات وعن عدم تضمن المقدمة التي وضعها الشيخ لديوان وطنيتي مدحا في شيء خلال أسلوبه في النظم بضرب أمثلة على المجاملات في التقاريظ وعدم مطالبة واضعيها للمؤلفات التي يطلب منهم تقريظها منها أن المرحوم الشيخ ابراهيم اليازجي وشهرته في اللغة والأدب ما تحتاج إلى تعريف قرظ مؤلفا وضع لمذمته شخصيا. ثم ذكر شواغل الشيخ عبد العزيز وأعماله المختلفة بين العلم ومجلة الهداية والإفتاء في عدة مسائل يستفتي فيها قائلا أنها تستغرق أوقاته وتمنعه من مطالعة ديوان طلب واضعه إليه فاكتفى في مدحه أسلوبه اللفظي ولم يتقصد غير ذلك.

وقال جوابا على سؤال للمحكمة إنه دعا في مقدمته الناس لقراءة وطنيتي ولكنه لم يقرأ شيئا منها بل سمع من الناظم أنه سيسمي ديوانه "وطنيتي" اقتداء بأحمد نسيم أفندي في تسمية ديوانه "وطنيات نسيم".

وانتقل إلى قصيدة ورد الربيع التي ضبطت في الغلاف الذي كان يحمله الشيخ عبد العزيز فانتقد استخلاص النيابة منها شبهاتها المعروفة لكلام لا يتعدى ما انتقدتها الصحف عليه قبله.

وهنا طلبت إليه المحكمة أن يثبت بالأدلة المقنعة عدم اطلاع الشيخ عبد العزيز على وطنيتي مشتمل قبل الطبع أقام الشيخ نفسه وقال إن الغاياتي أخبرني إنه سيجمع أشعاره في ديوان يسميه وطنيتي وطلب مني تقريظه فأجبته علي طلبه علي أنني ما اطلعت علي شيء من ذلك الديوان ولا كان هو قد طبع شيئا منه في ذلك الحين.

فسألت المحكمة لماذا لم تطلب الاطلاع على وطنيتي قبل إعطاء كاتبها التقريظ، قال إني ما خشيت قط من إعطاء تقريظه لمعرفتي أن قصائده التي ينوي جمعها طبعت كلها في اللواء قبل ذلك بأشهر فلم يحاكمه عليه أحد.

قالت المحكمة ذلك حجة عليك لا لك والحكومة حرة في عدم المحاكمة حينا وتطلبها في حينا آخر.

قال الشيخ غرضي من هذا البيان كله أن أؤكد للمحكمة عدم اطلاعي علي وطنيتي قبل طبعها.

واستأنف حضرة عزتلو محمد علي بك الكلام بعده ما غير وبدل في الديوان من فترة الإعلان عنه والفراغ من طبعه وانتقل إلى البحث في تعريف النيابة للجرائم المعزوة إلى المتهمين مخطئا إياها في تطبيق القانون

بكلمات موجزة وأبقت التفصيل بعده لحضرة عزتلو أحمد لطفي بك شريكه في الدفاع عن الشيخ عبد العزيز جاويش.

بعد هذا وقف حضرة عزتلو أحمد لطفي بك فأسهب في تخطيئه النيابة العمومية لعدم تعيينها التهمات وإجمالها الكلام عليها إجمالا عاما وتكلم عن الاشتراك ودعائمه وسوء القصد بفصاحته المعهودة.

وتلاه حضرة وهيب دوس أفندي مدافعا عن الياس دياب أفندي مدير مكتبة التأليف وحضر شريكة عزتلو محمد أبو شادي بك مدافعا عن الشيخ القزويني والياس دياب أفندي بل عن المتهمين الأربعة جميعا لتناوله في مرافعته البحث في جميع التهم المسندة إليهم وتفنيدها وتفسيره الأبيات التي اعتمدت عليها النيابة العمومية لطلب معاقبتهم يخالف المعاني المستخرجة منه ودفع إلى المحكمة في خاتمة مرافعته مذكرة مطبوعة بتفاصيل التهمات والردود عليها.

الحكم اليوم

وبعد ذلك انفضت الجلسة على أن تعقد اليوم في الساعة الرابعة مساء للنطق بالحكم.

صورة الحكم

افتتحت محكمة الجنايات أول أمس الحكم في قضية النيابة العمومية على الشيخ علي الغاياتي وشركائه بالمقدمة المألوفة بالأحكام القضائية مشفوعة بالتهمات المسندة إلى المتهمين والعقوبات المطلوب تطبيقها عليهم وانتقلت من ذلك إلى وقائع القضية فقالت ما يلي:

وحيث إنه يثبت من التحقيقات التي حصلت في هذه الدعوي من الاطلاع علي ما ورد في الكتاب المضمون بوطنيتي أنه في شهر يونيو إلى ٢٤ منه ١٩١٠سنة وإلى ١٠ يونيو ١٩١٠ بعده قد تجرأ الشيخ علي الغاياتي في القاهرة علي وضع ونشر كتاب سماه وطنيتي يشتمل علي قصائد ومنظومات شعرية تتضمن بعضها تحريض علي كراهية الحكومة والازدراء بها بالصحف الآتية بنمرة ٢٤ تحت عنوان طيف الوطنية ضمن أبياته:

وولاة أقســـــــــــموا أن يســـــــــــجدوا كلمـــــــا رام العـــــــدا منـــــــه مرامـــــــا

وفي صفحة ٥٦:

ألا أمطـــــــر الله الـــــــوزارة نقمـــــــة ولا بلغـــــــت ممـــــــا تـــــــروم مرامـــــــا
تحـــــــاول أن تقضـــــــي علينـــــــا بإثمهـــــــا ولكـــــــن ســـــــتلقى دون ذاك أثامـــــــا

في صفحة ٦٨:

يا ليـــــــت شـــــــعري هـــــــل بـــــــدا في مصـــــــر يـــــــوم أقـــــــتم

إلى بيت:

حـــــــتي تحاربنـــــــا الحكـــــــو مـــــــة عنـــــــدما نتـــــــألم
وتســـــــومنا ســـــــوء العقـــــــو بـــــــة حينمـــــــا نســـــــترحم

في صفحة ٧٤ موجها كلامه إلى أعضاء الحركة حيث قال:

فتزلزلـــــــت أقـــــــدامكم مـــــــن هولهـــــــا وهرعتمـــــــو فزعـــــــا إلى الأبـــــــواب
ورضـــــــيتمو الهـــــــرب المعيـــــــب لأنـــــــه خـــــــير مـــــــن الإفـــــــلاس عنـــــــد حســـــــاب

وفي صفحة ٧٥ مسترسلًا في نفس هذه القصيد بقوله لهم:

عـــــــار علـــــــيكم أن يقـــــــال وزارة لم تـــــــدر إن ســـــــلت بيـــــــان جـــــــواب
هربـــــــت فـــــــرارا مـــــــن ميـــــــادين الســـــــؤ ال وســـــــجلت مـــــــا ســـــــجلت مـــــــن عـــــــاب

في ٧٧ ما نصه:

ظلمـــــــات مـــــــن المظـــــــالم أودت بضـــــــياء الحيـــــــاة بعـــــــد الحيـــــــاة
يشـــــــتكي الشـــــــعب والقضـــــــاة خصـــــــوم فلمـــــــن يشـــــــتكي خصـــــــام القضـــــــاة؟

وعقوبة علي هذا الأمر حين إذ بمقتضي المادة ١٤٨، ١٥١ عقوبات. وهو تجرأه أيضا في الظروف المذكورة علي نشر هذا الكتاب وطنيتي وعلي عيبه فيه في حق ذات ولي الامر في صحفتي ٥٦، ٥٥ موجها خطابه إلى سمو الأمير بما نصه بعض أبيات:

ونيـــــأس مـــــن آمالنـــــا فيـــــك كلمـــــا قضـــــيت علينـــــا أن تكـــــون غضـــــابا
وأرضـــــيت أعـــــداء الـــــبلاد وأهلهـــــا وأصـــــليتنا بعـــــد (الوفـــــاق) عـــــذابا

رويـــــدك يا عبـــــاس لا تبلـــــغ المـــــدى ولا تســـــــتمع للظـــــــالمين خطـــــــابا

وعقوبته علي هذا الأمر تكون بمقتضي المادة ١٤٨، ١٥٦ عقوبات. وكذلك هو حسَّن في هذا الكتاب في الظروف المذكورة جريمتي دنجرا الهندي والورداني بقتلها وزيرين في صحيفة ٦٠ – ٦١ بقوله:

هنيئـــا فقيـــد الهنـــد نلـــت مـــدى المجـــد وخلـــدك التـــاريخ في مصـــر والهنـــد

وقـــــدمت نفســـــا للفـــــداء كبـــــيرة لتبعـــث وجـــدا في النفـــوس علـــى وجـــد

إلى أن قال:

يمـــــوت ولكـــــن لا يمـــــوت جهـــــاده وعمـــــا قريـــــب تصـــــبح الهنـــــد للهنـــــدي

في أبيات أخرى عن دنجرا بقوله:

كيـــــف أرثيـــــك دنجـــــرا بمقـــــال يـــــدعي القـــــوم أنـــــه إجـــــرام

إلى أن قال:

مـــــت بالأمـــــس والممـــــات حيـــــاة خلـــــــــــدتها لـــــــــــذكرك الايام

فســـــلام عليـــــك والـــــدمع جـــــار وســـــلام وفي القلـــــوب ضـــــرام

في صفحة ١٠١ حسَّن جريمة ناصف الورداني بأبيات مطبوعة في هذا الكتاب أولها:

هـــل خـــال إبـــراهيم عنـــد قضـــاته أمـــلا مـــن الآمـــال دون حياتـــه

لم يغنـــه حســـن الـــدفاع ولم تفـــد فتـــوى الشـــريعة وهـــى حصـــن نجاتـــه

إلى أن قال:

حـــتى كـــأن المـــوت مـــن رغباتـــه ليكـــون في الأحيـــاء بعـــد مماتـــه

وعقوبته علي هذا الأمر تكون بمقتضى المادة ١٤٨، و١٥٤ عقوبات.

وكذلك في الظروف المذكورة أهان الشيخ علي الغاياتي سعادة ناظر الحقانية بصفته موظفا عموميا وبسبب وظيفته هذه وبصحيفة ٦٣،٦٤ حيث قال موجها كلامه إليه:

حكمت ولم تنصف وقلت فلم تصب ورميت مرامًا دونه الله والناس
فأغضبت في مصر القضاء وأهله وأرضاك أن ترضى خؤون وجساس

فلا تك بعد الآن للعدل موئلا فغيرك بعد الآن للعدل حراس

وحارب بسيف الظلم من شئت بيننا فغاية ما يغني من الظلم إفلاس

وعقوبته علي هذا الأمر تكون بمقتضي المادة ١٤٨ و١٥٩ عقوبات وكذلك في هذه الظروف كلها حصل مذكور جريمة الشيخ عبد العزيز جاويش التي حكم عليه بسببها في ٢٥ أغسطس ١٩٠٩ وذلك في صحيفة ٦٧ مخاطبة له:

يا ساكن السجن الكريم وأنت نعم الأكرم

وإلى أن قال:

ما السجن للشرفاء إلا رفعة وتنعم
أنت البريء ومن يخالك مجرما هو مجرم

وعقوبته علي هذا تكون بمقتضى المادة ١٤٨، ١٥٤ عقوبات.

وحيث إن هذه الجرائم ارتكبت بالنشر في كتاب واحد هو "وطنيتي" ولغرض واحد وهي مرتبطة في الكتاب المسمى ببعضها فيجب اعتبارها جميعها جريمة واحدة والحكم بالعقوبة المقررة لأشدها وهو هذا المذكور في المادة ١٥١ عقوبات.

وحيث إنه لم يثبت أن المتهم الشيخ علي الغاياتي قد حرض مباشرة على القتل في كتابه الذي نشره باسم وطنيتي هذا وحينئذ إذ يجب براءته من هذه التهمة.

وحيث إن الذي ثبت للمحكمة من التحقيقات التي حصلت في هذه الدعوى بخصوص الشيخ عبد العزيز جاويش هو أنه في شهر يونيو ١٩١٠ بالقاهرة إلى ٢٤ منه وإلى ١٠ يوليو بعد غد قد حسَّن ومجَّد وضع كتاب وطنيتي ونشره الذي ثبت أنه في حد ذاته حاو ومشتمل علي جملة أفعال معاقب عليها قانونا بصفة جنحة وذلك بأن امتدح هذا الكتاب بمقدمة وضعها فيه بإمضائه وهي مطبوعة تحت عنوان الشعر والشاعر وآخرها "ومن شاء أن يري نموذجا من الشعر جمع بين رقة الألفاظ وجزالة المعاني وألف بين أحكام التأليف وصدق العبارة فليقرأ شيئا من وطنيتي ومن شاء فليسأل عن آثارها تلك الهمم الناهضة والنفوس المتوقدة والعزائم الصادقة فإنها من غراسها وجميل ثمارها، الخ صفحة ٩ – ١٠ -١١ وحينئذ فعقوبته على هذا الأمر تكون بمقتضى المادة ١٤٨، ١٥٤ عقوبات.

وحيث إنه ثبت أنه في أوائل شهر يوليو إلى ٦ منه إلى ١٠ بالقاهرة تجرأ كلا من الشيخ محمد حسن القزويني وإلياس أفندي دياب علي ترويج الكتاب المطبوع والمنشور باسم وطنيتي المشتمل علي قصائد ومنظومات هي معاقب عليها قانونا كما سبق بيانه بأن باع الشيخ القزويني عدة نسخ لإلياس أفندي دياب بقصد بيعها وهذا أعده للبيع وباع منها فعلا لأشخاص آخرين بعد العلم بضبط الكتاب بمعرفة الحكومة منعا لانتشاره مع علمهما بما اشتمل عليه من العبارات المعاقب عليها قانونا بصفة جنحة مذكورة بالمواد ١٥١ – ١٥٤ – ١٥٦ عقوبات فتكون عقوبتهما بمقتضى المادة ٣٩ فقرة ثانية و١٤٨ عقوبات.

حيث إنه لم يسبق الحكم علي المذكورين وقد رأت المحكمة معاملتها بمقتضى المادة ٥٢ وما يليها.

فبناء علي هذه الأسباب وبعد الاطلاع علي المواد المذكورة.

حكمت المحكمة غيابيا بالنسبة للشيخ علي الغاياتي وحضوريا للشيخ عبد العزيز جاويش والشيخ القزويني والياس دياب أولا – بمعاقبة الشيخ علي الغاياتي بالحبس لمدة سنة مع الشغل وتبرئته من تهمة التحريض على القتل – ثانيا – يحبس الشيخ عبد العزيز جاويش مدة ٣ أشهر حبسا بسيطا. ثالثا – بمعاقبة كل من الشيخ محمد حسن القزويني والياس أفندي دياب مدة شهرين وإيقاف تنفيذ هذا الحكم الآن طبقا للمادة ٥٢، ٥٤ عقوبات.

*****

القاهرة — الخميس ٥ جمادى الأولى سنة ١٣٦٩ — ٢٨ مارس سنة ١٩٤٧ — الشرق المشرقية — السنة ٢٦ — العدد ٤٤٥ — الثمن ١٠ مليمات

منبر الشرق

جريدة مصرية مستقلة

تأسست في ديسمبر عام ١٩٢٢ لسان حال مصر والشرق العربي

مؤسس الجريدة ورئيس تحريرها المسئول
علي الغاياتي

جريدة الشرق المشرقية
١٠٠ قرش في الداخل
٢٠٠ قرش في الخارج
وتدفع هذه القيمة سلفاً

الإعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

المليفون رقم ٥٦٢٤٢

في محيط الصوفية

خلع وخلعة

اقيمت حفلة الخلعة على النحو الذي جاء في بلاغ كبير الامناء الصادر يوم الاثنين ٢٤ مارس الحالي وهذا نصه :

« في تمام الساعة الرابعة احتفل في قصر عابدين العامر بالياس حضرة صاحب السماحة السيد احمد الصاوي شيخ مشايخ الطرق الصوفية الخلعة السنية . وقد حضر الاحتفال حضرات اصحاب الفضيلة رئيس المحكمة العليا الشرعية ، ومفتي الديار المصرية ، ووكيل الجامع الازهر والمعاهد الدينية ، ونائب المحكمة العليا الشرعية واعضائها ، ومفتي وزارة الاوقاف ، والسكرتير العام للازهر ، وشيوخ كليات الازهر ، وحضرات مفتشي الازهر والمعاهد الدينية ، ومشايخ الطرق الصوفية وو كلائهم ، و كبار موظفي القصر الملكي .

وبعد ان تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك بمصافحة الحاضرين اذن لهم بالجلوس ، ثم تقدم حضرة صاحب المعالي كبير الامناء والقس الاذن الكريم في الياس حضرة صاحب السماحة السيد احمد الصاوي الخلعة السنية ، ثم اتجه السيد ليعرب لحضرة صاحب الجلالة الملك عن شكره وصادق ولائه ففضل اعزه الله فصافحه وقبله بعطفه الكريم ، ثم القى السيد بين يدي جلالته كلمة مناسبة للمقام فرد جلالته بهذه الكلمة السامية :

« يسرني اليوم ان يحتفل بشيخ الطرق الصوفية ففي ذلك تقدير لما يقوم به الصوفية من عمل جليل في نشر الدين وخدمته ، وبرهان على الرعاية التي تهيئ لهم اسلافنا . حقق الله الآمال وبلغنا بفضله ما نحب . »

وفي نهاية الاحتفال تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك فاطل من شرفة القصر العامر لتحية وفود الطرق الصوفية التي احتشدت في ساحة عابدين . و كان يرفقه جلالته السنية حضرات صاحب السماحة السيد احمد الصاوي و كبار رجال القصر الملكي . »

***

سجلنا هذا البلاغ لما حواه من وصف رسمي صحيح لهذه الحفلة التقليدية ، ومن نطق سام كريم تفضل به صاحب الجلالة الملك ردا على كلمة صاحب السماحة السيد احمد الصاوي شيخ مشايخ الطرق الصوفية الجديد التي اختتمها بقوله :

« مولاي : ان الصوفية وهي منار السالكين تهدف الى نشر الحقيقة في ابهى صورها ، وقد حملت يا مولاي مشعلها ، فبك نستضيء ومن هديك نسترشد ، ومن روحك العالية نستمد الهدى والالهام . وانها وقد سعدت بعطفك السامي وخيرك العميم سيزول عنها ما شابها من التواء قد صادفها ومن تعثر قد لحقها بفضل بذلك الرحيمة التي ادر كتها وعهدناك السعيد الذي تعيش فيه . وهما يكفلان لها الرفعة والسمو ان شاء الله تعالى .

واني اذ اتشرف بالوقوف بين يديك اليوم ، اقطع على نفسي عهدا وثيقا ان اكون لجلالتك المخلص الوفي ، وان اصل بالصوفية الى الغاية العليا التي تنشدها وترجوها بكل ما وسعني من قوة وايمان .

امدك الله يا مولاي بروح من عنده ، واليسك حلة من مجده ، وايدك بمدد من جنده ، واعانك بعونه ، وكفلك بعين رعايته وفضله . آمين ! »

***

وسماحة السيد احمد الصاوي — الذي تنشر صورته هنا بجلعته الملكية (وهي فراجية من الجوخ الاخضر المبطن بالفرو) ، وعمامته الخضراء التي ألبسه اياها شيخ السادة الرفاعية في يوم الدور الاول من القصر العامر حسب التقاليد المرعية — عالم من الاتقياء الصالحين ، وهو شيخ المسجد الحسيني . وقد صدر الامر الملكي باسناد مشيخة الطرق اليه في اليوم الذي خلع فيه سلفه السيد احمد مراد البكري من هذا المنصب ، وهو يوم الثلاثاء ٢٨ يناير سنة ١٩٤٧ .

ومما يذكر ان تعيين السيد البكري خلفا للمرحوم والده كان في يوم الثلاثاء ٢٧ اغسطس سنة ١٩٤٠ . وقد ألبس الخلعة في عصر يوم الاثنين ٩ ديسمبر سنة ١٩٤١ ، في احتفال كهذا الاحتفال ، وكان معه السيد عبد الرزاق العروسي ، شيخ السادة الوفائية ، رحمه الله واكرم مثواه .

ولكن الخلعة لا تاتي من الخلع اذا لم يحسن السلوك ، ويحقق الهدف المنشود .

وكل ما نوده هو ان يوفق الله سماحة السيد احمد الصاوي الى ما يصبو اليه — ونحن جميعا معه — من ازالة ما شاب الصوفية من التواء وتعثر ، ومن الوصول بها الى الغاية العليا التي تهدف اليها وترجوها . حقق الله الآمال ، واصلح الاحوال .

علي الغاياتي

الموقف الحاضر

لمندوبنا السياسي

كانت انباء لندن تصر طوال الاسبوع الماضي على ان محاولات حل مصر على العدول عن عرض قضيتها على مجلس الامن لا تزال جارية ، و كانت تزعم ان هناك املا في نجاحها ، و كانت تقول ايضا ان اسهم سوريا ولبنان لم تنفد بعد وانهما قد يعملان بشكل او باخر لحمل مصر على تغيير وجهتها وحل مشكلتها بينها وبين انجلترا .

و كان الانجليز يعولون على مناوءة انقسام داخلي في الجامعة العربية اذ ظنوا ان بعض الدول الشقيقة ترفض ان تؤيد مصر في مطلبها الخاص بوحدة وادي النيل .

ولعلهم قد شعروا باكبر خيبة امل منوا بها حينما طلع على العالم اجمع قرار اجماعي من جامعة الدول العربية تؤيد فيه الدول العربية كلها مطالب مصر القومية في الجلاء الناجز التام ووحدة وادي النيل العدالة تحت التاج المصري ، كما يراه القارئ بجانب هذا المقال .

ان رجال الجامعة العربية [illegible] حينما يستوحون شعوبهم و[illegible] رغباتها . ولقد خرجت الجامعة بقرارها منتصرة بعد ان اجتازت فترة مليئة بالدسائس ...

والواقع الذي لا شك فيه هو ان كل قطر عربي يؤيد سائر الاقطار الشقيقة لأن كل قوة لأي قطر هي قوة للعرب كلهم . ونحن نتمنى اليوم الذي تكون فيه فلسطين للعرب ، والذي يظهر فيه المغرب من المستعمرين ، و كذلك نتمنى ان يتمتع كل من العراق وشرق الاردن بالسيادة التامة والاستقلال الكامل . ولا شك ان كل امانينا ستتحقق لان الله معنا ولأننا عقدنا العزم على ان نعمل لتحقيقها .

***

مصر هي مصر لم تتغير ولم تتبدل منذ بدأت المفاوضات بينها وبين انجلترا . ولكن مصر اليوم لا تمد يدها الى الانجليز بل ترفض يد الانجليز التي تمتد اليها . واني هذا التبدل في موقفها يرجع التغيير في موقف انجلترا . فقد كانت انجلترا تقف منا موقف العناد والتعصب ، وهي اليوم تو شك ان تتوسل الينا لتتحول مصر عن موقفها .

ولعل في هذا حجة كافية للذين كانوا يقولون باننا دولة صغيرة لا قبل لها بمواجهة الامبراطورية العظيمة ...

وبغض النظر عن ان هذه الامبراطورية قد زالت او هي في طريق الزوال السريع فان مجرد تمسكنا بحقنا بكفينا قوة نرغم انجلترا على ان تسلم لنا بكل مطالبنا .

ان ايماننا بحقوقنا لا يتزعزع ، وايماننا بالنصر لا يرقى اليه شك ، لذلك لا نرهبنا ما يشاع من ان رفضنا بد الانجليز التي تمتد اليوم اليها سيترتب عليه اعتبارنا على الدعاء الاستعماري والدعاية الكاذبة لغير بأعضاء مجلس الامن وتحملهم على عدم تأييدنا .

ان اعتبارنا اولا وآخرا هي انفسنا ونحن لم نلجأ الى مجلس الامن الا لنستنفد كل الطرق السلمية المشروعة للوصول الى الغاية المنشودة . فاذا رفض المجلس ان يعترف لنا بحقوقنا كاملة فانا سنلجأ الى طرق اخرى لنوقع اهدافنا الوطنية . ونحن نعرف الطريق الموصل الى ذلك ، وسنسلكه حتما مهما كان شاقا .

نأييد الجامعة العربية لمصر تأييدا تاما

نسجل فيما يلي مغتبطين القرار التاريخي العظيم الذي اتخذه بالاجماع مجلس الجامعة العربية في اجتماعه الثالث قبل ظهر يوم الاثنين الحالي ٢٤ مارس :

« لما كانت الدول العربية قد اعربت في مناسبات مختلفة عن تأييدها التام لمصر في قضيتها الوطنية ومطالبها القومية ، واكدت هذا التأييد في اجتماع رؤساء دولها في زهراء الشاص في ٢٨و٢٩ من مايو سنة ١٩٤٦ ، كما اكدته في الدورة الاستثنائية لمجلس الجامعة التي انعقدت في بلودان في ٨ الى ١٢ يونيه من سنة ١٩٤٦ .

« ولما كانت المفاوضات بين مصر وبريطانيا لم تؤد الى اتفاق ، و كانت الحكومة المصرية قد اعلنت عزامها عرض قضيتها على منظمة الامم المتحدة ،

« فان مجلس الجامعة ينتهز فرصة انعقاده في دورته الحالية ، ليكرر مرة اخرى تأييد الدول العربية المطلق لمصر في مطالبها القومية الجلاء التام الناجز التام ووحدة وادي النيل الدائمة تحت التاج المصري . »

صورة صاحب السمو السيد ادريس السنوسي الذي عزز به الانجليز ابان الحرب العالمية الاخيرة ، فكانوا يطلقون في وثائقهم السرية تقديرهم له ولرجاله وينوهون بخدماتهم العظيمة . ولكنهم لم يشاءوا ان يرتجلوا اي عهد يلزمهم بالعمل على استقلال بلاده العربية (ليبيا) ، كما استقلت الحبشة . فهل نرى بكل اسف عربيا صلفا كان يعامل مثل هذه المعاملة الجائرة من شيعة الاستعمار ، وحامية الحرية والعدالة ؟ ...

قرر مجلس الجامعة العربية في اجتماعه الرابع المعقود مساء الاثنين مباشرة قضية فلسطين بكل الوسائل امام هيئة الامم المتحدة . كما اعلن من جديد اصراره على وحدة اوربا واستقلالها .

?

- هل يسعى نادي الاتحاد المصري الانجليزي — بعد حل الاتحاد والطبع — نادي الصداقة الاحزاب — بعد اتحادها بالطبع ايضا — وهل يتكون مجلس ادارته من زعماء الامة وساستها مع بقاء رياسة الشرف لصاحب السمو الملكي الامير عبد العزيز ؟
- هل ينوي السيد البكري بعد جلاء الانجليز ، وحل الحادم ، والقائه من الشبابة ان يغادر القبلي ، ويقيم الركب الهادي ايذانا سار ؟
- هل يجعل الجامعة ، ويعود الى الطربوش ، ام هل يحرص على ملابس الآباء والاجداد ، فيحتكف في زاوية السادة الاتجاه ، يجد ربه ، ويتلو ورده ، ويجدد عهده ؟
- هل يعلم الناس ان الجناح الذهبي متاع الغرور ؟ والجبروت .

عبد المنعم رياض

وافت المنية فجأة في صباح الاثنين من هذا الاسبوع عالما فاضلا ، وعلما من اعلام القانون يشار اليه بالبنان هو المغفور له الدكتور عبد المنعم رياض بك ، المستشار في محكمة النقض الادارية بمجلس الدولة .

وقد شيعت جنازته في مشهد عظيم بعد الظهر وتحف جلالة الملك فاتحم في احمه بثلثان اعضاء من الهرجة الثانية .

والفقيد ذائع الصيت في الجامع المصرية ، والمحافل العلمية ، وله مؤلفات قيمة ، ومحوث قانونية كثيرة . وهو من مواليد ١٨٩٩ .

رحمه الله رحمة واسعة ، ونرى فيه آية من آيات الله في الحياة والموت ، وعزاء جميلا . وانا لله وانا اليه راجعون .

فى المغرب الاسبانى

يزداد اهتمام الدول والشعوب العربية يوما عن يوم بتطور النهضة القومية في افريقيا الشمالية كلها ، من حدود مصر الغربية الى ساحل المحيط الاطلنطيقي . ويتبع الرأي العام العربي في الشرق ، اخبار الاحرار ونشاطهم في المغرب . ولكن ، اذا كان انباء طرابلس وبرقة وتونس والجزائر ومراكش يتمكنون من الاتصال باخوانهم في الشرق العربي ، اما بواسطة رسلهم اليه ، واما بواسطة لجانهم وفروعها في الاقطار العربية ، فان هناك قطراً من اقطار افريقيا الشمالية يعيش سجيناً داخل حدوده ، وهو مقطوع عن العالم الخارجي ، حتى عن جيرانه الاقربين . ذلك هو الريف ، او المنطقة الخليفية ، او كما اراد ان يسميه المستعمرون « المغرب الاسباني » للتفريق بينه وبين « المغرب الفرنسي » .

ومايقع الآن في المنطقة الخليفية بالمغرب العربي ، يذكرنا بما كان يحدث في طرابلس وبرقة عند ما حل فيهما الايطاليون ضيوفا ثقلاء غير مرغوب فيهم . فالاسبانيون يرسلون الى الريف افواجا من بني جلدتهم كما كان الايطاليون يشحنون المرتزقة والفلاحين الى طرابلس وبرقة ، لكي يحلوا محل العرب الذين يدفعون دفعا نحو المناطق الداخلية القاحلة . والاسبانيون يضربون حول الريف نطاقا من الحراسة القوية الصارمة ، كما كان الايطاليون يحيطون لوبيا بحائط من الاسلاك الشائكة . والاسبانيون يخنقون الروح العربية في الريف كما كان الايطاليون يخنقونها في لوبيا . وليس في الريف من يملك الحرية الكافية لاصدار جريدة او القاء خطبة او الانضمام بحديث او عقد اجتماع ... او السفر حيث يريد . فليس للمغربي في المنطقة الخليفية حق الانتقال من مكان الى مكان بدون تصريح . وليس له الحق في تبادل الرسائل مع من يريد من الناس ، لا في الداخل ولا في الخارج . واذا كانت الصحف العربية في افريقيا الشمالية الفرنسية تصدر وفيها اسطار بيضاء عملت محتويانها يد الرقيب ، فان الصحف العربية في افريقيا الشمالية الاسبانية لا تصدر بالمرة ، لا مباقية ولا غير مباقية . وآخر ما وصلنا من انباء عن هذه الحالة المؤلمة ، تعطيل جريدة « الريف » التي كانت تصدر في تطوان لانها تحدثت عن « الامانى القومية » .

ولدى رسالة من صديق في المنطقة الخليفية يقول لي فيها ان شخصا اعرفه قد هوجم بيته ، وحكم عليه بالسجن لسنتين ، لان البوليس اكتشف عنده آلة كاتبة ، والسلطة الاسبانية تعد احراز الآلة الكاتبة جريمة يعاقب مرتكبها بالحبس ! اما الرسالة التي تحمل الى هذا الخير ، فانها قد وصلتني بطريق التهريب كجميع الرسائل التي تلقاها من الريف المغربي !

***

لقد سمعنا مرارا ان جامعة الدول العربية قد خاطبت اسبانيا ، فارسلت مذكرات ، ورفعت احتجاجات ، وقامت بسلسلة من الاتصالات ، بغية الوصول الى تخفيف القيود عن الحريات في المنطقة الخليفية ، ان لم يكن للمطالبة بحقوقها كاملة غير منقوصة . فهل لنا ان نسمع كلمة الجامعة فيما اسفرت عنه مساعيها ؟ وهل لوزير اسبانيا في مصر ، الذي ينعى في كل مناسبة — واحيانا بدون مناسبة — بصداقة بلاده للعرب ، ورغبتها في توثيق العلاقات مع الدول العربية ، ان يخبرنا اذا كانت هذه الاخبار التي تلقاها عن الضغط والارهاق والارهاب في الريف ، صحيحة ام كاذبة ؟ وهل « توثيق العلاقات » مع الشعوب العربية يتطلب من الاسبانيين الامعان في « شد وثاق » القارية في المنطقة المنكوبة باستعمارهم ؟

حبيب جاماتي

« وطنيتي »

اطلبوها من ادارة هذه الجريدة ومن جميع المكتبات . الثمن ١٥ قرشا

على هامش الحج

تم طبع هذه الرسالة ، وهي تطلب من « منبر الشرق » ، وثمنها ٢٠ مليما عدا اجرة البريد .

Année 26 — No 445 — Prix : 10 m/m. « L'Orient aux Orients Jaux » Le Caire — Vendredi 28 Mars 1947

LA TRIBUNE D'ORIENT

RÉDACTION - ADMINISTRATION
Place Khédive - Ismaïl
Immeuble Bahari. Bloc C.
TÉLÉPHONE : 56242
Directeur — Fondateur
ALY EL-GHAÏATY

ORGANE ÉGYPTIEN INDÉPENDANT
Fondé à Genève en 1922 pour la défense des droits de l'Orient renaissant

ABONNEMENTS ANNUELS
ÉGYPTE . . P.T. 100
ÉTRANGER . . P.T. 200
Les abonnements se paient d'avance

Pour la publicité s'adresser à l'Administration

من احمد حسين

الى المستر ترومان رئيس الولايات المتحدة

ارسل الاستاذ احمد حسين ، رئيس مصر الفتاة ، من نيويورك في ٢٠ مارس الى المستر ترومان ، رئيس الولايات المتحدة ، برقية هذه ترجمتها :

« سيدي الرئيس :

سألني مندوب صحفي في مؤتمر صحفي ، عقده في نفس اليوم الذي القيتم فيه خطابكم التاريخي العظيم ، عن رأيي في خطابكم هذا ، وعما إذا كان لدي ما اعلق عليه به . فقلت له : ليس هناك من هو اسعد من باعتباري مصريا لهذا الاتجاه الجديد الذي تتجه اليه الولايات المتحدة في سياستها الخارجية من حيث اهتمامها بالشرق الأوسط ، وادخالها اياه في حظيرة مناطق السلامة الدولية . فلم يكن هناك ما يؤلمنا نحن سكان الشرق الأوسط في مصر وبقية البلاد العربية الأخرى اكثر من ان نرى امريكا وقد نهضت بدءا من هذا الجزء من العالم ، واعتبرته منطقة نفوذ اجنبية لا تعنى امريكا بطريقة مباشرة او غير مباشرة .

إن الشرق الاوسط يا سيدي الرئيس كان وسيبقى دائما ابدا ملتقى الطرق بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب . ولذلك فقد كان في القديم هو قلب العالم النابض ، وإذا كان مركز القوة قد انتقل من ذلك الجزء من العالم ، فانه لم يفقد أهميته الاستراتيجية الخطيرة في شؤون العالم . ولذلك فقد كان وسيبقى المنطقة الحساسة التي تحسم فيها المعارك العالمية .

إنني أرجوك أن تصدقني إذا قلت لك إن معركة العلمين الصغيرة نسبيا والتي جرت في الصحراء الغربية المصرية ، كانت إحدى معاركي ثلاث حاسمة في هذه الحرب . وقد لا أكون مغاليا إذا قلت : انها المعركة الحاسمة الاولى بالنسبة للحرب مع المانيا فلو قدر للالمان الظفر فيها ودخلوا مصر لاصبح البحر الابيض كله في أيديهم . وبذلك انطلقت تجارتهم ولاطبقوا على روسيا من الجنوب ، ولاتصلوا باليابان . وتغير بذلك مجرى الحرب كله ، او على الاقل حولها الى حرب طويلة شاقة أشبه أضعاف ما كانت عليه .

فالشرق الاوسط هو ميدان الفصل في أي حرب عالمية . ولو حدث صراع بين روسيا من جانب وقوات الديموقراطية من جانب آخر «لا قدر الله» لكانت هي أمام المؤتمر ، فانه لاتوجد قوة على ظهر الارض تجرؤ على تحدي امريكا وتعكير السلام بعد أن رأت ما رأت في حربين متواليتين من عزم امريكا وقوتها الجبارة التي لا تغلب .

ونحن من ناحية اخرى نعرف من تاريخ امريكا الطويل وكفاحها المتواصل في سبيل الحرية في شتى أشكالها انها لن تحمل لواء هذه السياسة المدفوعة ، سياسة الاستعمار والاستغلال للشعوب الصغيرة . بل ان مصلحة امريكا المادية هي في حرية سائر الشعوب والتعاون معها على اساس متبادل للمنافع الاقتصادية والثقافية .

ذلك ما نتصوره في مصر وفي مختلف بلاد الشرق الاوسط ، ولذلك فان ملكا كان السعود لم يرحبا في فتح بلاده للشركات الامريكية وذلك لاطمئنانه ان هذه الشركات لن تكون إلا مصدر خير لبلاده من الناحية الاقتصادية ولن تكون بحال من الاحوال طلائع استعمار سياسي .

كل ذلك يجعلنا نرحب بهذه الخطوة الجديدة الحاسمة التي خطتها الولايات المتحدة من اعلان رغبتها في معاونة شعوب الشرق الاوسط مبدئة باليونان وتركيا .

وإنه لشيء ، قد في تاريخ العالم أن تبدأ مساعدة امة كبيرة لاخرى صغيرة بدءا بأربعمائة مليون من الدولارات لترفيه أحوالها والنهوض بها ، وذلك على عكس ما كان تحدث قديما ولا يزال تحدث عندما كان كل هم الدول الكبرى من علاقاتها بالدول الصغرى أن تنتهز فرصتها وتبقيها في حالة سيئة لكي يسهل حكمها واستغلالها .

على أن اليونان وتركيا وايران ليسوا هم كل مناطق الخطر وليسوا هم كل الشرق الاوسط ، إن كانوا يؤلفون من غير شك خط الدفاع الاول ضد توسع الدائم لروسيا . ولكننا نعلم أن المعارك الآن لم تعد مقصورة على خط الدفاع الاول بل ان رقعتها قد امتدت إلى ما وراء هذه الخطوط الامامية ، ومن هنا يتعين على خطط امريكا الدفاعية ضد الزحف الشيوعي ان تشمل فيما تشمل مصر باعتبارها قلب الشرق الاوسط الخفاق ، ومصر لا تريد من الامريكان مالا ولا تريد جيوشا لانها لن تعنى عن هذا المال او هذه الجيوش بل لاننا نحتاج إلى شيء ماجل نقدمه على المال والاقتصاد والحياة نفسها ، ذلك الشيء هو الحرية .

ان مصر تتعلق بالحرية ، وتكافح في سبيلها الى اصبحت بالنسبة لنا كالهواء والماء حتى لقد ضحينا في سبيل هذه الحرية بكفاحنا في سبيل معاشنا وقوتنا اليومي . . فلو ان جهود مصر انصرفت كلها نحو تحسين معاشها لاستطاعت ان تتغلب على الفقر الضارب اطنابه في طول البلاد وعرضها ولكننا نرى ان معركة الحرية اولى وابدى لاننا نؤمن متى تحررنا بأننا نستطيع في ظل الحرية ان نفعل في يوم ما نحتاج منا عملة الى عشر سنوات . . .

لقد دخل الانجليز بلادنا منذ خمس وستين سنة فشعرنا منذ ذلك اليوم بمرارة الهزيمة وفقدان الحرية ، ولاسبيل لكي نسترد كرامتنا الا في اليوم الذي يخرج فيه الانجليز من بلادنا بدون قيد او شرط . في ذلك اليوم فقط ياسيدي الرئيس نتحول الى حلفاء مخلصين اقوياء امريكا بل ولانجلترا نفسها بعد ان يزول سبب الاحتكاك الوحيد بيننا وبينها .

فالانجليز يجب ان يخرجوا من مصر لكي يهدأ بال المصريين ويقفوا على اقدامهم امة حرة ذات كرامة واستقلال وفي ذلك الوقت تتحول مصر الى حصن حصين للديموقراطية ضد اي زحف شيوعي يهدد الشرق الاوسط . ان سكان مصر يربو أقلون من خمسة وعشرين مليونا اذا اضيف عدد اليوم دلتين الى وهو ما يطالبه به مصر لانه مصدر حريتها واستقلالها . وشعب مؤلف من خمسة وعشرين مليونا يسيطر على اراض وسيعة غنية بالموارد الطبيعية يستطيع بمعاونة الديموقراطية الامريكية والانجليزية بعد استجابتها لمطالب مصر الحيوية في الجلاء ووحدة وادي النيل — تستطيع هذه الدولة القوية الفتية ان تكون سدا منيعا دون تسرب المبادئ الشيوعية الى العالم عن هذا الطريق وتستطيع هذه الدولة ايضا في خلال الازمات العسكرية ان تكون قوة عسكرية مرهوبة الجانب .

سيدي الرئيس :

ان القضية المصرية مستطرح بعد اسابيع قليلة على مجلس الامن هنا في هذه البلاد فانا شدك الله وانا شدك ارواح اسلافك العظماء الذين وضعوا الاسس لاعادة تنظيم العالم على قواعد العدل والمساواة والحرية ان تقف الى جوار مصر وتقنع الانجليز بان مصلحتهم المحققة في مصادقة مصر لا معاداتها . ان مصر تريد ان تؤلف مع السودان ، حيث يقبع النيل حياة مصر وروحها ، وحدة سياسية واحدة . وليس هناك من يفهم هذه القضية العادلة كما تفهمونها معاشر الامريكان حيث ادركتم ان لا سبيل لازدهار الولايات المتحدة الا باتحاد الشمال مع الجنوب . هذا هو شأننا في مصر بل ان شأننا اعمق من ذلك لان المياه التي منها نشرب لبعض واقي نزرع بها ثلثينا من السودان ، وخزاناتنا ومستودعات مياهنا ومشروعات ريها كلها في السودان . واحسب ان ليس هناك مصلحة تربط افراد امة من الامم بعضها اقوى من هذه المصلحة وليس يحق لانجلترا ان تتدخل في هذه القضية او ان تتكلم باسم السودانيين ونحول بينهم وبين الاتحاد مع مصر . وليس يحق لها ايضا ان تستغل اغراءها بادارة السودان على خلاف المعاهدات لكي تعرض السودانيين على الانفصال عن مصر فيما لا تكتب من وراء ذلك شيئا الا ان تؤجج نيران الخصومة بينها وبين المصريين في الوقت الذي لا تفيد فيه السودانيين شيئا . فالسودان بعد خمسين سنة من حكم الانجليز لا تزال نسبة اشتراء تجيش في حالة الطفولة العقلية الاولى ولا يزال العبيد من سكانه يعيشون هنا وسط الاحراش والغابات مع انه يوم ان يتاح لمصر ان تجعل من السودان ارضا مصرية ومن السودانيين مواطنين مصريين يتمتعون بكل حقوق المصريين ، فان عشر سنوات لا تنقضي حتى يكون نور الثقافة والحضارة قد انتشر على ربوع السودان .

سيدي الرئيس :

اني اعد كتابا صغيرا في شرح القضية المصرية السودانية اشير من التفاصيل حيث سأورد الوثائق والنصوص والمعاهدات التي تظهر حق مصر ولكني اردت ان ابعث اليكم بهذه الرسالة على عجل لاهنئكم على نجاح دعوتكم الموفقة ولأعلن نظركم الى القضية المصرية المفتوحة والتي نوشك ان تكون على البحث في ايام قلائل مقبلة .

ارجو ان يلقى خطابي هذا اهتماما منكم وانتهز هذه الفرصة لأحيي الشعب الامريكي الجميل ممثلا في شخصكم .

عاشت امريكا نصيرة للحرية والديموقراطية في جميع انحاء العالم . »

الوهم قاتل

كثيرا ما يصيب المرء مرض بسيط ، فلا يلبث ان يرى صحته تذوى ، فيحسب ان الداء قد تمكن منه وهدم جسده ، فيسوء تفكيره ويقلقه خوفه من المرض الذي لحق به فيضمحل ، ويعزى هذا الاضمحلال الى مرضه ، وما هو في الحقيقة بمريض .

أعرف رجلا ظن نفسه مصابا بالسل ، وقد رجح هذه الفكرة عنده انه كان اذا بصق نزل بعض الدم مع بصاقه . فساءت حياته واعتلات نفسه بالهواجس . ومازال يزداد حزنا على نفسه ، وينظر الى المستقبل فيقنع ويقساءل عمن يعول اولاده من بعده ؟ أليس هذا المرض هو بداية الموت ؟ وكلما تمكنت من نفسه هذه الافكار استسر وثار ، ولكنه كد حزنه ، وأطبق صدره على آلامه وشجونه . وكاد الرجل يقضي ، ولكن عناية الله ارسلت له طبيبا على شيء من الفطنة وبعد النظر ، وخصه فلم ير من عوارض السل شيئا . ولكن كيف يفسر هذا الاضمحلال المستمر ، وبماذا يفسر وجود الدم مع البصاق ؟

الهم الله الطبيب ان يأسى مريضه بفتح فمه ، وباستقصاص لعابه ثم ببصقه ، فرأى كالمعتاد دما مع البصاق . وهنا صاح الطبيب : لقد عرفت . ان لديك جرحا باللثة مكان ضرس اقتلعته فكنت اذا اردت البصاق ، اعتصمت لعابك ، فاحدث هذا ضغطا سالبا في تجويف الفم ، مما يساعد على امتصاص الدم من الجرح [illegible]

اما كيف اضمحلت صحة الرجل ، هذا الاضمحلال السريع ، فذلك هو ما اسوقه اليكم فيما يلي :

اثبت الطب الحديث ان الحالات النفسية العنيفة كالقلق والهم والحزن والخوف تسبب افراز مادة في الدم تسمى «الادرنالين» ، وتفرزها الغدة فوق الكلى ، وهذه المادة تجعل الانسان يستهلك بسرعة فائقة المواد الغذائية المختزنة حتى يفنيها ، فاذا تقصدت هذه المواد الى حد معين اتخذت من أنسجة الجسد وقودا لها . وليت الأمر اقتصر على هذا ، فانها تسبب هدما في الجسم ، وتحول المواد الغذائية والانسجة الجسمية الى سكريات يفتقدها الدم عن طريق البول دون ان يستفيد الانسان منها شيئا .

فاذا علمت ايها القارىء ان العقل اذا فكر استهلك في مجهوده عشرة اضعاف ما يستهلكه الجسم كله في حالة قيامه بعمل متوسط كالمشي ، وان حالة التفكير المسودة تسبب خسارة اكبر في المواد الغذائية اللازمة للجسم ، فلا تستغرب ان ترى اناسا كثيرين يبدون من جراء الفكر المرير ، وسوء فهم وهمهم وحزنهم الى الرموس ، وهم قد فقدوا اجسامهم بانفسهم وانتحروا بايديهم . إن الله سبحانه وتعالى يقول : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » ، وهل هناك نعيم اسمى من الصحة ، فكيف لا نحاسبنا الله ، اذا نحن فقدنا عليها بالهم القاتل ؟

علي احمد شركس
اسكندرية

أنباء الاسكندرية

مصلحة العمل والعمال المتعطلون :

نحن هنا نلمس خطورة الشكايات التي يتقدم بها الينا العمال المتعطلون ممن تنطبق عليهم شروط الاعانات .

ولكن الشيء الذي تتقطع له نياط القلوب اسى وحسرة هو رؤية العمال المصابين بالسل وقد فتك بهم الداء ، وعز عليهم الشفاء ، واقتدهم عوزهم وبؤسهم ماهم في أمس الحاجة اليه من دواء وغذاء وكساء ، ولا تدري اية مأساة تمثلها مصلحة العمل مع هؤلاء ، وهي تعاليهم بالاماني والرجاء ، وترسل اليهم طالبة شهادات طبية وصورا شخصية وبيانات عن عدد افراد العائلة ، ثم تنصرم الشهور ويتكرر سؤال السائلين ، وهي لا ترد ولا تجيب .

نقابة عمال الغاز :

ارسلت النقابة مذكرة الى النيابة العامة ووزارة الداخلية والجهات الرسمية الاخرى احتجاجا على ما حدث من موظف الشركة بمصر ، وهو عزيز افندي مرقص رئيس نقابة القاهرة ، واعتداءه على نقابة الاسكندرية كما اشرنا الى ذلك في العدد السابق .

والنقابة تطالب باجراء تحقيق سريع ووضع الامور في نصابها .

شركة ماتاشوف والعمال :

كثرت الشكوى من الشركات الاجنبية في مصر وسوء معاملتها لعمالها المصريين واستغلالهم اسوأ استغلال .

وشركة ماتاشوف للغاز تعامل عمالها كالآتي :

١ — اجور عمالها القدامى بالمحطات تصل الى عشرة قروش بالعلاوة مع ان لهم عائلات واطفالا .

٢ — ليس بالشركة طبيب خاص بالعمال للكشف عليهم وعلاجهم .

٣ — صناديق الاسعاف الموجودة بمحطات « البترن » ليس بها ادوية .

٤ — معاملة الرؤساء الاجانب للعمال المصريين باحتقارهم وشتمهم . وقد كثرت الاعتداءات بالسب والاهانة .

نقابة بائعي الصحف :

اجتمعت النقابة يوم الاحد الماضي بدارها واتخذت قرارات خاصة ببعض الحوادث خصوصا « الاهرام » ودار « الهلال » بطالبة اياها بزيادة التعريفة ، وتخفيف الاعباء ، موضحة الصعوبات التي يلاقيها الموزعون والباعة .

ونظرا لأهمية الامر فقد قررت النقابة اعتبار الاجتماع مستمرا الى جلسة يوم الاحد المقبل داعية الجميع للبحث والتشاور واستكمال المسائل الخاصة بمصالح الطائفة .

أنباء النحاتين :

تقوم تلك النقابة بجهود جبار ، رغم ما يكتنفها من صعوبات وتحيط بها من متاعب ، اعاد الامل الى نفوس اعضائها وفتح امامهم سبل الحياة وآفاق العمل خارج القطر . ولقد تمكنت من ابرام اتفاقات تضمن لهلها العيش بضع سنين وبهذا ضربت خير الامثال في الكفاح وبعد النظر وضمان مستقبل العامل والمحافظة على كيانه وكيان اسرته .

الاخوان الحرية ومناصرة الاستعمار :

لقد انشأ الانجليز ابان الحرب ووقت المحنة جمعية اخوان الحرية فاخذت تعمل جاهدة لتضم اليها افرادا من الطبقة الدنيا ، امثال حسن قناوي — الذي كان يثيره تجبا واختيالا لأنه عضو عامل فيها — كما قرر في التحقيق بانه يدها بما يتصيد من معلومات . وقد وقعت في يدي نشرة الجمعية الدورية وهي تتضمن ترويجا للاستعمار البريطاني وحليفه الامريكي كما تعدد المزايا التي خلقها واوجدها البريطانيون في مصر ...

الطوائف المحرومة :

يتم كل عيد [illegible] الجمهور المتكدر من ويلات بسبب البلدية وتصرفاتها التي بلغت حدا لا يطاق . ورحم الله من قال :

يا بائع الفجل يا مليم واحدة
كم للعيال وكم للمجلس البلدي

وقد اشتد عيث البلدية واستهتارها حتى اكتوى بنارها المحصلون .

ولعل القارىء يعجب اذا علم ان مجلس الوزراء اصدر امرا سنة ١٩٤٤ بجعل وظائف الصيارف والمعاونين ومفتشي الطريق قاصرة على المحصلين . ووافق القومسيون البلدي على ذلك .

ولكن البلدية لم تحترم هذا القرار ووجدت الواسطة والمحسوبية طريقها الى الوظائف الشاغرة فلم تلتفت الى هؤلاء البؤساء من المحصلين القدامى بل عمدت الى تعيين بعض الجدد من المحظوظين ، مع العلم بان هؤلاء المحصلين ، الذين قضوا في المهنة قرابة الثلاثين عاما ، قضوا نحبهم اثناء عملهم او اصيبوا بمرض مزمن ولم يتلوا ما يستحقون من مكافأة او تعويض ، كما ان الكثيرين منهم لم يتعد راتبهم الستة جنيهات رغم أنف الكادر والانصاف .

رسائل الأقاليم

توكلنا ومراسلينا في انحاء البلاد

قليوب

— يلي وكيلنا على حضرة احمد الاخرس بك بالتهنئة بمولوده الجديد ، فيما لنا ينتهز من جهد جهيد في تنظيم محطة النور والبلدية

طهطا

— قدم إلينا حضرة علي بك عرب مأمور مركز طهطا الجديد وتسلم عمله بهمة ونشاط . وهو معروف بالخير والكرم والعطف ، فرحب بحضرته ، ونتمنى له التوفيق في عمله .

بني سويف

— يشكر وكيلنا جميع من تفضلوا بالسؤال عن صحته والده الشيخ سيد عبد الجواد الناجر اثناء مرضه . ونخص بالشكر حضرة الدكتور عبد الله الفيري بك مفتش صحة البلدية لما بذله من العناية والعناية في علاجه .

سمالوط

— انتشر الهاء البري عندنا انتشارا يزعج القائمين بتحسين وجهها بثقة صغيرة ليس بها الجانب . فالى رجال الادارة توجه بالرجاء ليضربوا يده من حديد على كل من لم يقم على هذا العمل الذميم .

— يلزم فحص المرضى بالفتح يوميا وبغاء الفحص يومين عند القصابين فيوجدون مسمومين بسبب السابق حتى شكا معظم الناس خصوصا الفقراء العاجزين عن دفع هذا الثمن . فيا رجال الحكومة ارفقوا الشعب جيدا ولكم الاجر والثواب .

الى القراء بالاسكندرية

الطلبة والمتربين في باعة الصحف ، هذا هو المحل الذي ستجدون فيه كل ما تحتاجون اليه من ادوات المدرسة بشارع البي دالبان رقم ٤٩

رسم المؤلف موسوما بتوقيعه

هدية من المؤلف الى
مجلة "الرسالة" الغراء.

على الفايانى

٢٠-٢-١٩٣٨

هدية الى الطا
عبد الفتاح حامد الق
من مؤلف إبرام
("الزيات")

وطنيتي

بقلم

على الفايانى

الطبعة الثانية

١٣٥٦ هجرية — ١٩٣٨ ميلادية

مطبعة عطايا بباب الخلق بمصر

محمد حايد لسيا